رواية NOVEL

ليث التّل

# آخرُ الرَّجْم

دار أصالة

# آخر الرَّجْم

## رواية

ليث التل

**الناشر: دار أسامة للنشر والتوزيع/الأردن - عمان**

**هاتف: 5658252 – 009626/5658253**

**فاكس: 009626/5658254**

**العنوان: العبدلي – مقابل البنك العربي**

**ص.ب: 141781**

**Email:darosama@orange.com**

**حقوق النشر محفوظة للمؤلف**

**الطبعة الأولى/2019م**

**الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (2019/1/360)**

**813.03 التل، ليث طارق**

**آخر الرجم/ليث طارق التل-عمان:دار أسامة للنشر والتوزيع 2019.**

**ر.أ: (2019/1/360)**

**الواصفات:/الروايات العربية/الأدب العربي/العصر الحديث/**

**ISBN:978-9957-22-800-2**

# استهلال

الكاتب كجامع الورود، يقطفُ من أحداث الحياة وخفايا النّفس ما يُزَيّن به صفحات حكايته، يُؤلّفُ بها بَاقَةً تَفُوح على من يقرؤها بتجربة حياة واستنارة فكر، يُناغِمُ بها الحاضر بالماضي والخاص بالعام، ينتقل بالقارئ إلى قلب الحدث كأنه طرف فيه، يتمنّى أنْ تصير الأحداث إلى ما يرغب، يُنازع الكاتب أَحْرُفَهُ نحو أفكار يعتقدها ونهايات يرجوها، فَيُغْضبه مسارٌ هنا وتُرضيه نهاية هناك، ورغم أنَّ القارئ - في العادة - يُخالف الكاتب في كثير من الآراء والنَظَرات، إلّا أنّ متابعته للقراءة مُترقبا الأحداث مُتشوقا لنهايات آخر صفحة ...

لَهو دليل توفيق وقبول.

**إن أيّ تشـــابه أو تمـــاهٍ لأي مـــن شخصـــيات هـــذه الروايـــة أو أحـــداثها مـــع أي شـــخص أو حـــدث فـــي الواقـــع هـــو محـــض خيـــار يقـــوم بـــه القـــارئ لا علاقـــة للكاتب به**

# الإهداء

# إلى أحلام

**...**

**بن**

**بشرى**

**بنت**

**عمر**

**بن**

**طاهر**

**بن**

**حامد بيك**

**بن**

**...**

# الجذور

# أوّل الواصلين (1)

**الأكيد أنه لم يتذكّر، وكيف له أن يتذكّر، مع أن الواقعة حصلت وشهدها بنفسه، كما شهدها الكل، ولم يَذْكر أحد منذ آدم عليه السلام أنه تذكّر رغم الجمع المهول ورغم المشهد المرعب، ورغم إقامة الدّليل القاطع الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فقد نسي تماما، وعندما سَأَلَتْهُ بُنَيَّتُهُ الصغيرة بشرى، في يوم لاحق لما سبق، عن تلك الواقعة، فقد أعجزته الإجابة وخانته الكلمات، فالتقط ألبوم صُوَرِها، وحدَّثها عن صورة لها، يوم قُدِّر لها الحياة فبُعثت في جَسد مريض، دَخَلتْ على إثْره خداج الأطفال في المستشفى، فالتقط لها صورة للذّكرى.**

**- هل تذكرين تلك الحادثة ؟**

**فأجابت بالنفي، فأردف مستعجلا بالجواب :**

**- وكذلك أنا لا أتذكر ذلك اليومَ الضاربِ جذوره في القِدَمْ، رغم الحضور ورغم الشهادة.**

**لكنَّ الأكيد أنه يتذكّر يومه الحاضر وأمسه القريب، وربما تذكّر، ولو في عقله الباطن، يومَ كان في بطن أمه، جنينا نما وكَبُر، بعد أن كان حيوانا من ملايين الحيوانات المنويّة السابحة يسابق بعضها بعضا نحو نصفه الآخر، فكان أوّل الواصلين، قبل أن تغلق بويضةُ أمِّه الجدار، معلنة موت الملايين في الخارج، لتبدأ الحياة الجديدة في الداخل. توزع خلاياه المهام بينها متكاثرة، فسمع بأذنيه الصغيرتين، بعد تشكُّلهما، نداء أمّه من فوق ظلمات الرحم الثلاث :**

**- ماما ماما.**

**وأحس بِيَد أبيه تحنُّ على بطنٍ أثقله الحمل، وأوشك على الوضع، وسمع أباه يقول :**

**- سليمة .. ما الاسم الذي تقترحينه للمولود ؟**

**ربما تذكّر ظلمات الرحم، ولو فتش في عقله الباطن لاستحثَّ خلاياً في دماغه خاملةً، لكنه لم ولن يتذكّر يوم التقى والده بوالدته قبل ولادته بسنوات، خاطبا إياها.**

**سأل والده يوما :**

**- أين كُنتُ أنا يوم تزوّجتَ ماما ؟**

**فجاءته الإجابة سريعة، حاسمة للنقاش فيا يتهرّب الآباء من الإجابة عنه في العادة :**

**- في عالم الذرّ !**

**بحث الصغير بعدها كثيرا عن هذا العالم، لكنه لم يجده، وأخبره أحدهم، أن الله في ذلك اليوم أخذهم من ظهور آبائهم وأشهدهم على أنفسهم، ألست بربّكم ؟ .. فقالوا بلى، فحذّرهم ربّهم أن يعتذروا بالغفلة. ومع أنه استحثّ كل خلية وفعَّل كل عصب ليتذكّر، إلا أنه لم يتذكّر، لكنْ بالرغم من ذلك هو أيضا لم يَغفُل.**

**أمّه سليمة وأبوه طاهر، أولاد خالة ألتقيا لأول مرة في كَرْم زيتونٍ موسِمَ القطاف، كانت في السادسة من عمرها عندما أخبرت أختها الكبرى ليلى أنَّها شعرت أنَّ طاهرا سيكون من نصيبها، وهو ما كان بعد ذلك باثْنَيْ عشر عاما.**

# سليمة (2)

كانت سليمة يتيمة الأب، والذي تركها، وترك لها الدنيا وهي رضيعة صغيرة، تَرمَّلت أمّها وعندها خمسة أطفال أكبرهم لم يبلغ الحُلُمَ بعد، فأضافت نشأتها الكسيرة إلى طيبتها اللامتناهية، ضعفاً إلى ضعف، ليس ضعف العقل ولا ضعف العاطفة، إنّما ضعف السند وغياب الركن الشديد، مما جعل منها أنثى فوق كل أنثى، في شفافية النفس، وفي سمو الأخلاق، فكانت تتعاطف مع كل ضعيف كسير، فكم ربّت في حجرها قِطَطًا صغيرة، وكم سقت بيدها عصافيرَ عَطْشى، وكم تخلّت عن مصروفها اليوميّ لشحَّاذ أو فقير، فنشأت مع طفولتها رحمةٌ كان بِوُدِّها لو وزّعتها على كلّ الخلائق، حتى أنَّ ابنها عمر الذي لم يرث تلك الطيبة عنها وعن طاهر بالموروث من الجينات فحسب، بل اكتسبها بالتربية أيضا، قال لها يوما بعد نقاش محتدم عن الرحمة والعذاب وعن الجنة والنار، بعد أن عركته الحياة عركَ الأديم : "والله يا ماما لو كان الأمر بيدك، لأدخلتِ إبليس الجنة"

لم يكن طاهر يقل عن سليمة طيبة وحسن ظن بالناس، فكانا لا يعتقدان أنّ في الناس شرّا، أو أنّه يمكن لإنسان أن يؤذي أخاه الإنسان، ولعلَّ نشأتها كَرَبَّة بيت، جعلها على خلاف

طاهر، تحافظ على نقاء الفطرة الأول، الذي لم تضطرّه ظروف الحياة لمعاركة أصناف البشر المختلفين، فكان مرور الأيام عليها يزيدها براءةً وحبا للحياة والخير، بينما كانت الأيام تعلّم طاهرا أن مقابل الخير شرا، ونظير الطيبة لؤما.

كان بيت سليمة الذي جلَّلَته الأحزان يقبع في منتصف المدينة ، فيه غرفتان وحمّام واحد ومطبخ صغير، وليس فيه إلّا صنبور ماءٍ واحد، يُؤْخذ منه الماء للمطبخ لإعداد الطعام وتنظيف الأواني، وإبريق من نحاس ودلو ماء يُعبّأ لغايات قضاء الحاجة والاستحمام، أمّا الأجهزة الكهربائية فربّما فُقِدَ أو وُجد مذياع واحد لكل عشرة بيوت، يجتمعون حوله وكأنّه خطيب جمعة ، يسمعون من خلاله أخبار معارك الجيوش العربية مع إسرائيل والتي انتهت نهاية حزينة لا تختلف عن السّواد الذي اعتادته سليمة في بيتها.

لا تذكر سليمة أنها شاهدت أمها تلبس لونا غير الأسود مذ وعيت على الدنيا، وقد تفاجأت يوم رأت نساء أُخْرَيَات يلبسنَ الألوان الزاهية، فَحَرَّكَ ذلك في نفسها غرائزَ الأنوثةِ التي تحب، الجمال والزينة، والتي نسيتها أمها مُنذ توفي زوجها، فكانت تعمد إلى خزانة والدتها تختار منها الملابس الفاتنة والجميلة والأحذية ذات الكعب العالي، تُغني وترقص بها في ساحة البيت، وفي ذهنها ابن خالتها طاهر، مثيرةً بذلك أحزان أمها الأرملة وقد أَحْيَت لها ذكريات زواجها القصير، أيام الحب والدلال .

**كانت لِفَرْط شفافَّيتها ولِصفاء نفسها تتمتع بحاسَّةٍ سادسة، وقد أخبرت أختها ليلى أنها على يقين أن طاهرا هو الفارس المنشود، ولم تكن تدري ليلى، هل هو القدر ؟ وهل هي حاسة أختها السادسة التي جعلت من ذلك حقيقة بعد فترة من الزمن ؟ أم أنه تخطيط سليمة ! التي لم تكن تحسن التخطيط أصلا ! أم أنه كيد الأنثى يوم ترمي بشباكها من حيث تدري أو لا تدري ؟**

**شَكَتْ لأُمّها ذات يوم من صعوبة دروس الحساب والجبر، ملمّحة لها أن ابن أختها طاهر والذي يَكْبُر سليمة بخمس سنوات كان مُتَفوّقا في دراسته خاصّة المواد الرياضية، فكان يأتي لبيت خالته مساء كل خميس متطوعا لتدريس بنت خالته، محتسبا ذلك في ميزان حسناته، فنشأ بينهما ما ينشأ بين الشاب والفتاة من أُلْفة، بدأت بصلة القرابة، فانتقلت إلى السكون والراحة، ثم وصلت لألم الفراق والبعد وانتظار الخميس بعد الخميس على أحرّ من الجمر، فزادت صعوبة المواد الدراسية عند سليمة وكَثُرت استِعاناتها، وإضيف إلى الحساب العلومُ واللغةُ والشعرُ، والذي تحوّل بعده إلى ما يسمو إليه كلُّ سويٍّ من حبِّ القصائد والمعلّقات مديحا وغزلا، ولم يكن كلُّ ذلك بِمعزلٍ عن أَعْيُن أمها، التي أحسّت أنّه آن الأوان أن تخلَعَ عباءةَ أحزانها، وأن تطردَ شبحَ الموتِ الذي سكن البيت وعشّش فيه، فاستدعت أختها أم طاهر على عجل.**

# طاهر (3)

لم تبدأ الملائكة بالكتابة والتسجيل، فَطاهر لم يبلغ الحُلُم يوم رأى أخاه عز الدين، الذي يكبره بما يُقارب الثلاثين سنة، يستغل سفر والده ويحضر زجاجة عرق محلّي الصنع، اللون أبيض، والرائحة كريهة، ورشفة واحده تُذهِب الوقار والهيبة قبل أن تُذهِب العقل والدين، خبأها في الرفّ العلوي لخزانة ملابس والدته، الخزانة التي أحضر حامد بيك لأجلها نجّارين مُختصّين من العاصمة لجعلها تحفة فنية تتكلّم بها نساء القرى المجاورة، فكانت خزانة نادرة لا يوجد بين قَرِيناتها مثيل، متينة ضخمة مصنوعة من خشب شجر البلّوط المتواجد بِكثرة في محيط بلدته، تغطّي المساحة بين الجدارين، ويبلغ ارتفاعها ما قبل السقف بقليل، حيث يُخبئ هناك عز الدين ما لا يستطيع أحد بلوغه، زجاجات خمر وعرق، تجهيزاً لسهرة مع الشباب تُنسيهم حاضِرَهم البائس، وهزيمةً حلّت بهم من قريب. تسلّل الصغير إلى الغرفة وتطاول بصعوبة إلى الرف العلوي، قبل أن يتطاول على ملكية من يفترض به أن يكون عزا للدين، زجاجة عرق، ربما كانت خمرا مُعتَّقا، أو نوعا رديئا، صُنع محليا من كروم العنب المحلية على عَجَل، ليلبّي الطلب المتزايد، المهم

أنّها كانت تستفزّ الطفل الصغير بنتائِجها المُرِيعة بعد كلّ عربدة وسهرة، وكاللّصّ خرج متسلّلا إلى الحاكورة الخلفية للمنزل، أراقها تحت شجرة التوت وهرب.

- مين الكلب الذي أخذ زجاجة العرق ؟
- من غير الأزعر الصغير ... الشيخ طاهر .

كانت واحدة من المشاكل التي يفتعلها الصغير بين الحين والآخر، تنتهي "عَلْقةِ ساخنة"، تترك ندوبا على جسده الغض، وتسمو بها نفسه، فقد أنكر بيده ، ما يَسمّيه إمام مسجدهم - الشيخ العجوز عليّ - منكرا.

كان الوقت ربيعا عندما جلس مع والده جلسة عائلية نادرة، فحامد بيك كان كثير السفر بين الولايات والأقضية والنواحي، وكثير التنقّل بين المناصب الإدارية في الدولة العثمانية وما تبعها من إمارات أو دول. سأله الصغير طاهر :

- أبتِ، هل سبق أن التقيت بالخليفة العثماني السلطان الأعظم محمّد رشاد ؟

كان الكل يخاف من حامد بيك فهو أب متقلب المزاج نَزِق، بلغ من الكِبَر عتيّا، تعلم الصرامة وعَلَّمَها خلال عمله مع الأتراك، ينظر بحزم ولا يأمر، وإذا أمر لا يُناقش، كان نحيل الجسد، أصلع الرأس، اصفرّت أصابعة لكثرة ما كان يدخن السجائر التي كانت زوجاته الأربع تقضى وقتا طويلا في لفّها وتجهيزها له، بعد تنشيف التبغ وإضافة النكهات الخاصة له

وإعداده، وكان قد تطبع بعادات الأتراك، مواليا لهم، مذ درس في استنبول، وأكمل هناك عمله مع الدولة العثمانية، ورغم تفانيه في الولاء للباب العالي، وخدمته لعشرات السنوات، إلا أنه كان يعتز بعروبته، ويعتقد بسريرة نفسه أن العرب أحقُّ بالخلافة من العثمانين، وعندما كان يناقش من يثق بهم من أصدقاءه العرب، ورغم إقراره بأحقّية العرب، إلا أنّه كان يقول لهم : " لم يأخذها الأتراك إلا لأننا أضعناها، وإنّما تؤخذ الدنيا غِلابا ".

وكان سرّ تركه للعمل مع الأتراك من الأسئلة التي حّيرت عمر يوم كان يبحث عن نفسه بنبش ماضي أجداده، فأجابه طاهر عن ذلك بأن جدّه كان لِشدّة إخلاصه في عمله، يُثير إعجاب قادته الأتراك، فقال له ناظر الشؤون الخارجية يوما ما مادحا : "إنتَ حرام تكون عربي يا حامد بيك، فأنت تركي أكثر من الأتراك" فأدرك جدك أن التتريك والقوميّة بدأت تنتقل من الأحزاب المعارضة إلى صلب المؤسسة الحاكمة، والتي لم يكن يعمل معهم جدك لأنهم أتراك، بل لأنهم خلافة إسلامية لكل المسلمين، فاستقال على إثر ذلك، وعاد إلى بلدته، يرعى أولاده، ويزرع كَرْمه الذي اشتهر بزيتونه الروميّ المعمّر وعِنَبِه الشاميّ، والزينيّ، والبلديّ، وسور شجر الصبر الذي أحاط حامد بيك به مُلكيته حتى لا يعتدي عليها أحد.

رغم الهيبة التي كانت تُخيف كل من حوله، إلّا أن طاهراً كان له شأنٌ آخرٌ، فرغم خوف حامد بيك من طيبة طاهر المبالغ فيها، فقد رأى فيه من الرجولة وتحمّل المسؤولية

وجرأته في تنفيذ ما يقتنع به، ما يؤهله ليكون خليفته من بعده، لذا فهو يُجلسه على يمينه دائما :

- يا بنيّ اجلس فهذه مجالس الرجال، وأنت الرجل من بعدي في البيت.

كان هذا يثير ضَغينة الإخوة الكبار خاصة يوسف، رغم استغلالهم لهذه الخاصية، فَيُوَسِّطُون طاهرا لِطلب رفع المصروف، أو لِطلبٍ خاص يتعلّق بالذهاب في رحلة إلى القرية المجاورة على حمار حامد بيك شخصيا، يتصببون هناك على الصبايا الجيد عند الغدير حيث لا رقيب ولا عتيد، ويُدخنون الشيشة، وأحيانا يُوَسِّطُوه للشفاعة من قائمة العقوبات الطويلة التي تنتظرهم عند عودة حامد بيك من السفر.

- نعم يا طاهر لقد التقيت بالسلطان محمّد رشاد مرة واحدة.

يتطاول الصغير للتفاصيل، فَلُعاب الفضول قد سال على فَكِّه الأسفل المتدلّي.

- وهل صحيح يا بابا أن طول يد السلطان عشرة أذرع ؟

يقهقه حامد بيك قهقهة تتعالى في أرض ديار، تطوف على مسامع سكان البيت، ذاك البيت المبني على الطراز العربي الأصيل، والذي امتد أفقيا لا عموديا، غُرَفٌ على شكل مستطيل تُحيط بساحة داخلية مفتوحة على السماء في وسطها بركة ماء صغيرة تُسمى (أرض ديار)، كل شيء في البيت مفتوح على

**الداخل بأبوابه ونوافذه مغلق على الخارج بجدرانه وأسواره، فتتلقى النساء حظها من الشمس والهواء، وتأخذ حريتها في اللباس في معزل عن الناس، فالبيوت لسكانها، ينعمون بالخصوصية والحرية في نفس الوقت، بخلاف بيوت الفرنجة التي كانت مغلقة من الداخل مفتوحة بالنوافذ للخارج، لا يأخذ سكانها حظهم من الحرية إلا بالتكشف للخارج، وكان هذا النمط في البناء من الاستفزاز بمكان، مما استدعى حامد بيك الذهاب إلى البلدية احتجاجا على نمط البناء الغربي الجديد الذي بدأ يجتاح بلدته، لكن طلب الموظف منه الانتظار خارج مكتب رئيس البلدية، وهو حامد بيك الذي كان يحكم محافظات وألوية وأقضية واسعة مع الدولة العثمانية، ويقف الناس على بابه بالطوابير، جعله يغضب ويترك البلدية مرددا في نفسه :**

**" والله خربت يا حامد بيك، والله خربت"**

**قهقهة تعالت في البيت، فتهرع النساء وعز الدين ويوسف ومن تواجد من الأولاد والشباب والأطفال، فالضحك في البيت نادر فكيف إن كانت قهقهة.**

**- ومن أين أتيت بهذا الوصف يا طاهر ؟**

**يرتبك الصغير وهو يجيب : إننا نسمع كثيرا عن السلطان، لقد حدثنا الشيخ علي أن الخليفة كان سلطانا عظيما، وكان أقوى إنسان على الأرض، ويده تطول كل البلاد، ، فاختلفنا أنا**

**وأصحابي، منا من يقول أن طول يده ثلاثة أذرع ! ومنا من قال خمسة ! ومنا من أوصلها لعشرة !**

**يطرق حامد بيك رأسه وهو لا يدري، هل يستمر في القهقهة، أم يحزن على ما آلت إليه الدولة العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى، فيقول والعبرات تخنقه : لقد كانت يده طويلة يا بُنَيّ ...**

**لقد كانت يد السلطان يا طاهر أطول من عشرة أذرع بكثير.**

# من خلق الله ؟ (4)

- طاهر، هل يستطيع ربك أن يخلق صخرة أكبر منه بحيث يعجز عن حملها ؟؟؟

أدرك بفطرته السليمة سُخف أسئلة أخيه يوسف، لكنه لصغر سنه وحداثة تجربته، لم يمتلك بعد الحُجّة التي يَدحَض بها استهزاء يوسف به، خاصة إذا اجتمع أناس عندهم في البيت، فموضة الاستهزاء بالدين والمجاهرة بالكفر كانت سائدة، وأصحاب يوسف يجتمعون عنده كل أسبوع في أرض ديار يستهزؤن ويسخرون، وكأنَّ غياب السقف عن هذه الساحة التي تتوسط البيت رفع حد الانحلال، فجعلها مشاعا للرقص والتبرج في موسم الأعراس، وأزال حد الإخبات، فكانت منتدىً للتطاول على السماء في جُمعة الإلحاد والشيوعية المُشمشية.

- انظر أين وصل التقدم العلمي عند الكفار يا طاهر، وأين أنتم تقبعون في ذيل الأمم المهزومة !!!

هو يعلم أنّ الله قادر على كل شيء وهو يعلم أنْ ليس كمثله شيء ، وأنّ له قوانين خاصة به لا تخضع لإدراكنا نحن المخلوقين، لكن تَغَوُّل يوسف الكبير عليه، وضحكات أصحابه،

وسخريتهم بِلِحْيَتِه الناشئة التي بدأت تظهر على ذقنه، جعلته يتجنّبهم، لكنّ شيئا كامنا كان يدفعه للمواجهة دائما، شيءٌ سيجعل من موته بعد سبعين سنة حدثا كبيرا تتحدث به أمّة الإسلام، وتغرد به الطيور لأفراخها، وتتمناه الكائنات لِذَاتِها.

- إن كان الله خالق كل شيء فمن خلق الله ؟؟

لم يكن لطاهر من عون على تلك الأسئلة وهذه الغربة، في زمن رِدّة بعد هزيمة نكراء، احتل فيها اليهود أقصى المسلمين وقدسهم، ورغم أنّهم في بلاد كانت يوما ما تابعة للخلافة العثمانية يسودها التدين ويغلب عليها المحافظة، إلا أن سقوط الخلافة والهزيمة كانت أكبر منهم جميعا، فكلهم بما فيهم جيل طاهر وأصدقاؤه، في هَمّ يوسف شرقُ، إلا بقية دين عند شيخ مسجدهم العجوز علي والصغير طاهر، وقليلٌ من الآخرين.

- احلق هذه الشعرات عن وجهك يا طاهر فهي كلحية التَّيسْ.

استفزازٌ يصل به إلى مواجهةٍ كَمُواجهة إراقة زجاجة خمر أخيه عز الدين، لكنّ هذا النوع من المواجهات لا ينفع هنا، إنما هي الحجة بالحجة، لكن الحجة، وصيحات الاستهزاء بالدين تملأ البيت، بل الحارة، بل كل البلاد ... من أصعب الأمور وأكبر أسباب غربة الطاهرين.

الشيخ علي : أي طاهر، إني في غاية السرور منك، أنْ تفضل الله عليك بِحُبّ دينه والغيرة عليه، في زمن القبض على

**الجمر هذا، واعلم يا بُني أنك صاحب حق، والحق لا يكون في موقف الدفاع أبدا.**

**طاهر : لكنّهم يهاجموني وأنا وحدي.**

**الشيخ : إنما مهابتك يا بُني بندوب معاركك، وهي رصيدك في كهولتك، فلا تتراجع القهقرى أبدا.**

**طاهر : ..... مم ... مم.**

**الشيخ : الله معك، فلا تهبط بنفسك إلى مواضع الدفاع، وكن دائما مبادرا بالأسئلة والهجوم.**

**طاهر : فمن خلق الله يا شيخ ؟**

**الشيخ : إن يوسف وصحبه يا بُني أَبَوْا إلا أن يكونوا أشد كفرا وعنادا من أبي جهل، الذي كان يؤمن أن للكون إلها خالقا، فكانوا كلما وصلوا إلى نظرية علمية تُفَسِّر بداية الكون كنظرية انشقاق السماء أو غيرها، ينقلهم ذلك إلى سؤال متجدد، ماذا كان قبل هذه البداية ؟ وكيف تشكلت ؟ وأين كانت وماذا كان قبلها ؟ فيأبى عليهم فرحهم بعقلهم وعلمهم الذي أعطاهم الله إياه، أن يقروا أن هناك قوة ذكية وراء الكون، نظريات لا تنتهي؛ لِكَيْ لا يقروا أن هناك قوة فوق إدراكهم، ودخلوا في دوامة السؤال المتجدد :**

**ماذا كان قبل آخر نظرية خلق ووجود وصلوا إليها؟**

# حامد بيك (5)

اجتماع عائلي صاخب في أرض الديار وسط البيت، اجتمعت فيها النساء والأطفال والكبار بانتظار الأخبار التي ستأتي مع عودة حامد بيك ويوسف من الاجتماع الكبير مع الأمير، كانت النساء ترجو من ذلك اللقاء الذي عقده الأمير مع وجهاء المنطقة وأعيانها، لتمرير اتّفاقيّة جديدة ضمن الاتّفاقيّات والتفاهمات مع الاستعمار الفرنسي والانجليزي، تضمن حقوق اليهود وتضيع حقوق العرب، حسب عز الدين، تأملت النساء منصبا جديدا يُعين فيه حامد بيك بعد الفقر الذي أصابهم منذ ذهب ريح الدولة العثمانية، وتقسيم البلاد العربية إلى قوميات ووطنيات متعددة بعد اتفاقية سايكس وبيكو، فالبلاد بحاجة إلى خبرات لِتَسيِر أمورها، وهل مثل حامد بيك في خبراته الإدارية والعلمية ؟ إن رَضِيَ وَوَقَّع، ورُبَّ وضاعة عند بعض الناس تكون قرة عين عند آخرين.

واقفا خارج البيت منتظرا عودة والده مُتمنيا فشل الاجتماع، كان عز الدين، الذي أحب الدولة العثمانية حبا جما منذ ذهب إلى زيارة استنبول مع والده حامد بيك قبل عدة عقود من الزمن يوم كان طفلا صغيرا، فوقع في نفسه ما رآه من مَدَنِيَّة وحضارة، وذهب بعقله ما رآه من قصور وعمارة، صلّى

هناك في مسجد السلطان أحمد، ورأى كيف أن كنيسة أياصوفيا البيزنطية أصبحت مسجدا، وتَجوَّل في الميادين والمعسكرات، فتنسّم معاني العز والسؤدد، وزار مع والده الباب العالي، ورأى بعينيه علامات الرّياسة والسيادة، ولعلّ نقاشه بعد أن أصبح عجوزا هَرِما مع ابن أخيه الشاب عمر - يوم زار الأخير وزوجته أحلام تركيا سياحة ونقاهة في شهر العسل، وحدَّث عمه عن متاحفها وآثارها - أثار في نفسه الشجون، فقد غدت علامات السيادة مرتعا للسواح، وغدت المساجد مُتحفا للسائحات، فقد كانت قصور دولمة بهجة، وتوب كابي، وقصر يلدز، أماكن يُحكم منها العالم، تُشد إليها الرِّحال طلبا لِلْصُلْح أو دفعا للجزية، وبينما كان عمر يدخلها متمتعا بجمال حدائقها، مسرحا طرفه بالأشجار على طرفي مداخل القصور التي حَوَتْ كل جديد من علوم البناء والراحة والسعادة، وبينما فُتن بكميات الذهب التي زينت قصر دلمة بهجة، أي المحشو بالبهجة، البهجة التي كانت هذه القصور محشوة بها وبكل ما يَسُرّ، وبكل ما يذهب بالألباب، تنظر من نوافذها الكريستالية إلى جمال الطبيعة على طرفي مضيق البسفور، وتُسَرِّح طَرْفك من حدائقها على التلال التي أقيمت عليها استنبول، فبينما كان عمر يُحَدِّث بكل ذلك، كان عمه عزالدين يغلي غضبا، فقد دخل هذه القصور من قبل، ولم يرى فيها ما رأه عمر، إنما رأى دولة وخلافة، ووحدة ودينا، رأى فيها أمة إسلامية واحدة وشريعة ربانية حاكمة، أولويات ومَعَانٍ طَغَت عنده على علامات الضعف التي بدأت تظهر على الدولة حينها، وشعورا

بالعزوة والكثرة، جعله يتغاضى عن موجة التتريك والعَلْمَنة التي بدأت تجتاح الدولة التركية.

أَسْكَتَ عزُ الدين عمرَ، وقال له : "إنما الدول يا ابن أخي روحٌ ومَنَعَةٌ، وليست قصورا وزينة، تراثنا ليس للسياحة يا عمر، ولا قيمة للجدران إن لم يسكنها السلطان، اسأل أباك طاهر يا عمر عن أذرع السلطان التي حَدَّثَهُ عنها جدك حامد بيك يوم كانت طويلة، ولا تحدثني أبدا عن سفرك وسياحتك إلى تركيا مرة أخرى، المعنى قبل المبنى يا عمر، المعنى قبل المبنى ..."، قال عز الدين ذلك رغم أن اليأس قد أحاط به منذ سنوات طويلة بعد سقوط تلك الدولة وضياع ما كانت تحميه من أراض مقدسة، فهرب إلى السُكْرِ والشُرْب، فغدا مدمنا يتجنبه الناس، ولا يحظى بقرب من أحد، إلا بضع زيارات بالسنة، ربما زاره بها من بقي في قلبه رحمة وطيبة، كَعُمر وطاهر.

حال عز الدين في ذلك حال عموم رعايا الدولة العثمانية، يوم كان الخواء قد احتل نفوسهم، فلم يروا من القوة إلا مظاهرها، ولم يعلموا أنما أسباب الغلبة إيمان وجهاد، وأنَّ ما وصلت إليه الدولة العثمانية ما كان إلا بالتضحيات العظيمة والعقيدة السليمة، والتي بدأت الدولة تفقدها منذ عشرات السنين فوصلت إلى ما وصلت إليه، فأصبحت كالبنيان الذي ينخر السوسُ قواعدَه، قائمٌ على وشك السقوط، ظاهرٌ على وشك الاختفاء، وأصبح أغلب الناس قياماً أقوياء في ظاهرهم،

**قعوداً ضعاف في باطنهم، ما تلبث أن تسقط دولتهم، حتى يسقطوا معها فجورا وردة وكفرا.**

**كان عز الدين ينتظر خارج البيت بشيرا، أرسلته النساء في انتظار حامد بيك ويوسف، كان بخلاف يوسف يتمنى أن ينتهي هذا الاجتماع إلى فشل، فهو يرى أن هذه الكيانات والتي فُتَّت الدولة العثمانية، وفشلت في حماية الديار والمقدسات، كان يرى فيها أنظمة لا تملك مُقوّمات الوحدة، وقد بُنيت على أسس وطنية وقومية، فلا وحدة أقامت ولا دينا حفظت، بينما كان يوسف يعتبرها فرصة لتحسين وضعه وتيسير سُبله؛ لِتَقَلُّد منصب هنا أو تَسَلُّمِ رياسة هناك، إن هو استفاد من سمعة أبيه، وسَعْي الناس لرضاه فيما مضى من أيام.**

**عاد عز الدين مسرعا إلى أرض الديار مبشرا إياهم بعودة الوفد، حلَّ الصمت انتظارا حتى يبادر حامد بيك بالكلام، بعد أن خلع شماغه وعقاله وجلس متربعا على طَرَّاحة محشوة بالصوف، وقد امتلأت بالثقوب لكثرة ما أمطرتها سجائر حامد بيك بالنيران، أسند ظهره للجدار وهو ينظر لبركة الماء وقد اكْفَهرَّ وجهه، وتجلت عليه علامات النزق والعصبيَّة، ولم يكن يوسف يقل عنه في ذلك، صورة واحدة لِتِصَوُّرَيْن مختلفين عن نتائج الاجتماع.**

**خلع حامد بيك ما ثقل من ملابسه، وطلب من أصغر زوجاته إحضار علبة السجائر له، علبة فضّية ترافقه أين ما ذهب، في غطائها جيبٌ يُحفظ فيه ورق السجائر الرقيق، وفي**

**حوضها تبغ نفل، أصرّ عليه يوسف أن لا يأخذها معه إلى الاجتماع مع الأمير، حتى لا يُدَخِّن هناك إن أغضبه شيء من كلام الأمير، فَيُضَيِّع على يوسف وعلى النساء الفرصة المنتظرة؛ بسبب قلة الاحترام والذوق الذي ستتهمه به الحاشية التي ترافق الأمير، وتضع برتوكولات الحكم الجديد وأدب التشريفات لما هو قادم كيفما شاءت، تناول منها حامد بيك سيجارة ثم الثانية وثالثة ورابعة، قبل أن تطلب أم طاهر - بعد أن غمزتها ضُراتُها الثلاث - من طاهر أن يسأل أباه عن الاجتماع.**

**طاهر : بابا ، ماذا حدث في اجتماعكم اليوم ؟**

**ردَّ حامد بيك وقد طلب من طاهر أن يجلس على يمينه : "زفت يا بابا ... زفت"**

**عز الدين فرحا : وماذا حدث ؟**

**حامد بيك : يريدون منا الموافقة على التوقيع على معاهدة الخزي والعار.**

**إحدى الزوجات : وهل وافقتم ؟**

**ينظر إليها حامد بيك شزرا : "شو دخلكم إنتو النسوان، إذهبي وحضري لي كأس شاي" ثم يرطن بكلمات تركية غير مفهومة.**

**تخرج مطأطأة الرأس، وقد علمت أن تداعيات هذا التدخل، سَتَمَسُّها لأيام وربما أسابيع، فالنساء لا مكان لهم عند حامد بيك في الرأي والتدبير والمشاركة، هم فقط للفراش والطبخ، وتربية الأولاد، وكَرْم العنب والزيتون.**

**قال عز الدين متداركا الموقف، وقد فرح أن حامد بيك رفض البيع والشراء، خائفا أن يتوقف النقاش فلا يعرفوا ما حدث، فإنْ سكت حامد بيك فلن يُنطقه أي شخص حتى لو كان طاهر : أحسنت يا أبت، فهؤلاء أضاعوا البلاد والعباد.**

**يوسف : وماذا تريد يا عز الدين وأين هو البديل ؟**

**حامد بيك : وهل تريد مني أن أضع يدي بِيَدِ اليهود بعد هذا العمر يا يوسف ؟؟**

**يوسف : لم يطلب منك أحد ذلك يا أبي، إنما طلبوا من الوجهاء تقدير الموقف، وإعطاء فرصة للأمير لِكَيْ يتصرف بِما تقتضيه المصالح العليا للبلاد.**

**حامد بيك : وهذه هي الخيانة، يُزخرفونها ويُسمّونها بِغير اسمها.**

**عز الدين : وماذا كان موقف الأعيان والوجهاء من هذا الرأي ؟**

**حامد بيك : لقد تعدّدت الأراء، واحتدم النقاش، وتعالت الأصوات. يُتبع حامد بيك ذلك بِضحكة عالية، تستفز فضول الحاضرين.**

**عز الدين : لماذا تضحك يا أبي ؟ ماذا حدث بعد ذلك ؟**

**حامد بيك : أخبرهم يا يوسف .**

**يوسف : "لا أدري ... لم أفهم يا أبي لماذا انفضَّ الاجتماع، وخرج الأمير غاضبا بعد حضور لبيب الشاعر، رغم أنه لم يتكلم بشيء ... هل لأن الشاعر كان سكرانا ؟"**

**حامد بيك والاستياء يعلوا وجهه وقد قطَّب جبينه : "أَلم تفهم ما حدث يا يوسف ؟! خَسارةٌ فيك الليرات التي دفعتها عليك في القاهرة، وخَسارةٌ فيك دراسة الفلسفة، وجلسات كثرة الحكي التي تستمر لوجه الصبح ."**

**يوسف : ....**

**حامد بيك : اسمع يا يوسف، سأخبر طاهر بما حدث وإن فهمه، فهو الذي سيرافقني في جلساتي العامة واجتماعاتي بعد اليوم، لا حضرتك.**

**يوسف يهز رأسه مرغما، حاقدا على طاهر بنفس الوقت، إشارة منه على الموافقة.**

**حامد بيك : "اسمع يا طاهر، بعد احتدام النقاش جاء الشاعر لبيب إلى الاجتماع من غير دعوة، فقد استثناه الوجهاء قبل الأمير من الحضور لِكثرة معارضته ولِكثرة هجاءه للأمراء والوجهاء والشيوخ، فقد أصبح شعره محفوظات تتردد في طول البلاد وعرضها لقوتها وبلاغتها وصدقها، مما أثار أستياء الجميع منه، وما أن دخل الشاعر إلى خيمة الاجتماع التي أقيمت في ساحة كبيرة خارج البلدة، حتى قال الأمير بصوت مُرتفع تَعَمَّدَ أن يُسْمِعَهُ للشاعر : (وَ) ... ثم سكت.**

**فاستاء الشاعر، ورد عليه فورا وأمام الملأ بصوت جهوري صاخب، وباستعراض مقصود على طريقة الشعراء السُكارى : (إنَّ) .... ثم سكت.**

**فما كان من الأمير إلا أن غضب غضبا شديدا، ووجدها فرصة لترك الاجتماع الذي لم يُحقّق له مراده، فغادر بحجة وقاحة الشاعر لبيب. وليس بحجّة فشل الاجتماع، فما تفسير الموقف يا طاهر ؟!" ونظر إلى يوسف مُستهزئاً !**

**طاهر يلتفت يمينا وشمال مُستنجدا بِأُمّه، فلمّا لم تُسعفه مخافة أن يحلَّ بها ما حلَّ بضرتها، أجاب بعد تردد :**

**"لعل الأمير قصد ب (و) قوله تعالى : ( وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ )**

**ورد عليه الشاعر لبيب ب (إنَّ) وقصد بها قوله تعالى : ( إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا )**

**فتعلو ابتسامة عريضة وجه حامد وهو يبحث عن يوسف الذي انسلَّ خارج الساحة دون أن يراه أحد، يبتسم وكأنه أثبت للجميع أن طاهر هو خليفته المنتظر، مرددا :**

**وقد أفسدوها يا طاهر ... وقد أفسدوها.**

# لماذا سَلَّمَ اللهُ القدس لليهود ؟ (6)

أصبح يوسف بعد ذلك أكثرَ مُضايقة لطاهر، فَقَدْ نَحَّاهُ عن منصبة كَساعد أيمن لحامد بيك، ورغم أن طاهر لم يتعمد أي شيء من ذلك، إلا أنَّ قناعة يوسف لم تتغير، واستمر باستفزاز طاهر رغم الفارق الكبير في السن الذي يفصل بينهما، فلم يجد طاهر الذي زاده الموقف ثقة بالنفس، غير الشيخ علي ملجأ له من بيت غابت عنه معاني وسمات الإيمان.

الشيخ علي : يا طاهر إنَّ كِبَرَ الملحدين جعلهم لا يُقِّرون أن هناك عقلا أكبر من عقولهم، فأراد الواحد منهم أن يكون دائما هو المُدرِك لا المُدرَك.

طاهر : وكيف أناقشهم ؟

الشيخ علي : إن قضية الإيمان والإلحاد حُسمت بِالمنطق القرآني بِأسئلة بسيطة وحُجَجٍ بالغة، عجزنا عن فهمها لبعدنا عن القرآن، ودخلنا مع الملحدين في نقاش ليس محل النزاع، كما يفعل معك يوسف وصحبه، فلا تنجر إلى أسئلته الفرعية التي يناقض بها نفسه كَسُؤال الصخرة وغيره، وانتقل به إلى أسئلة القرآن ولا تَنْجرّ إلى هَرْطقاته إلّا إن أجابك عن أسئلتك، وأولها :"أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ؟" . فَقُلِ

**ليوسف : "هل أنت يا يوسف خالق أم أنت مخلوق ؟". فإن أجابك بأنه خالق ولن يجيب، فانتقل به إلى السؤال الثاني فورا : "فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ" . يُبهت وينتهي نقاشك معه.**

**طاهر : وإن أقر أنه ليس بخالق ؟**

**الشيخ : فَهو مخلوق موجود، فَعاجله بالسؤال الثالث : مَن الخالق ومَن الواجد ؟ فسيدخل معك في سلسلة الملحدين عن بداية الخلق ينتقل بك من نظرية إلى نظرية أعلى منها.**

**طاهر : نظرياتهم لا تنتهي شيخنا.**

**الشيخ : فاضبط نقاشك معه : أن هذا سؤال متجدد لا نهاية له، إلا أنّ هناك " فَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ" وفوق كل نظرية خلقٍ نظريةٌ أكبر منها، وفوق كل قوةٍ قوةٌ تفوقها، وهذه القوة الذكية هي الله عز وجل.**

**طاهر : وكيف نفهم هذه القوة الذكية ؟**

**الشيخ : تتمتع هذه القوة يا طاهر بصفات كمال لا نقص فيها، وأيُّ نقص يعتريها ينقلها لقوة دنيا لا قوة عظمى مطلقة، وهي التي نعرف بها الله، فهو المحيط الذي لا يُحاط به، " لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ " ولو أدركته عقولنا وأحاطت به لكان مُدركا، وتلك صفة نقص، وأي نقص يعتري هذه القوة، والذي تكرره أسئلة الملحدين الغبية كسؤال الخلق،**

**يخرجها عن كونها القوة المطلقة، وينزل بها إلى مستوى قوة دنيا مخلوقة موجودة مُدرَكة، لا تصلح لأن تكون خالقا. فهذه القوة ليس مثلها شيء مما تُدركه عقولنا وحواسنا.**

**طاهر : "حكي حلو"**

**الشيخ : وإن لم يُجبك يوسف عن هذا السؤال ولن يُجيبك، سؤال البداية مكانا وزمانا وهيئة، فقل له إنه الله الخالق المعبود الكامل، فإن أَصَرَّ، فاعلم أنه مجادل معاند، لا حاجة لك في نقاشه، وإن كان أخوك الكبير وتحبه فليس لك معه إلا الدعاء.**

**يوسف : ولو اتفقنا يا طاهر أن وراء الكون قوة عظمى مطلقة، فمن قال أنها (الله) ربكم الذي تعبدون ؟؟؟**

**طاهر : هل يوجد من قال أو زعم أنه خالق هذا الكون غير الله ؟ ثم أخرج ورقة كتبها له الشيخ علي وأخذ يقرأ منها :"فإن كان جوابك يا يوسف لا ، فالله هو الوحيد الذي أخبرنا أنه الخالق ببلاغ واضح وهو القرآن، فانتهى النقاش بغياب المُدّعي المُنافس، ولو كان الجواب أن هناك خالقا غير الله فأين زَعْمُه ؟ فإن كان غافلا أنّ غيره ادّعى أنه الخالق فتلك مصيبة، وإن كان يدري وبقي ساكتا فالمصيبة أعظم، وكلتاهما صفة نقص لا تصلح لخالق الكون."**

**يقاطعه يوسف : هناك الكثير ممن زعم أنه الخالق غير الله ربّكم.**

**يكمل طاهر القراءة :" وإن عنيت صنما أو بقرة فليس عندنا من هؤلاء أي زعم مكتوب بذلك، وحتى إن أتيتني بِشيءٍ مكتوب منهم، فأين الكمال في مَن ادعيت ؟ فلا نطلق صفة الخالق على أي قوة عظمى يعتريها النقص، كأن تأكل الطعام أو تمشي بالأسواق أو تتخذ ولدا، فلا يبقى كاملا مُدعيا أنه الخالق غير الله"**

**يوسف : ...**

**كان يوسف في كل جولة من جولات النقاش يهرب إلى الأمام، ظانًا أن أسئلته بلغت الحُجّة الكاملة، أعماه العناد وحقده على طاهر عن التسليم، فَنقل المعركة إلى القضاء والقدر ، وألقى قنبلته الأخيرة :**

**لو كان رَبّك موجودا يا طاهر :**

**فلماذا سمح لِمن كفر به النصر على من آمن به ؟؟!! ولماذا ترك النساء والأطفال يُذبحون ولم يتدخل ؟؟!! ولماذا لم يحافظ ربك على خلافة حامد بيك العثمانية ؟؟!! ولماذا سلَّم ربكم القدس لليهود ؟؟!!**

# عمر بن طاهر بن حامد بيك (7)

كان الدّود قد التهم ما بقي من جثة حامد بيك، والأرض تأخذ من عظمه ما قدّر الله لها أن تأخذ، لِيصبح خَبَرًا بعد أن كان عَيْنا، ولِيصبح أحاديثاً بعد أن كان يصنعها، ترقد جثّته أو ما بقي منها على تلّة صغيرة تُشرف على بلدته، لم يَكُن طاهر يعرف لماذا اختير هذا الموقع كَمقبرة، فالمقابر تكون على أطراف البلدات والقرى، ويكون معها من الأرض هامشاً للتوسَع لِتكون مستودعاً للموت الذي لا يتوقف، وبما أنَّ هذه المقابر سَتستمرّ في التمدد والبقاء، فَلماذا كانت في وسط البلدة ؟ هل يُعقل أن تكون المقبرة وُجدت قبل البلدة، فَموقعها الاستراتيجي في منتصف البلدة والمُطلّ عليها من جهاتها الأربع، يجعلها مَطلباً لِلأحياء لا الأموات، يبني عليها عِلْيَة القوم منازلهم وقصورهم، بعيدا عن مجاري السَّيلِ ومَهبِط الأوساخ، مترفّعين عن العامة والرعاع.

حتى حامد بيك لم يَسْتَطِعْ أن يجيب على هذا السؤال قبل أن يموت، فَكلّ الذي يعرفه وتعرفه بلدته أنهم وَعَوا على الدنيا وهذه المقبرة تعلوهم على التلة، ربما كان الموت سابقا للحياة والعمران، وربما بادت بلدات في فناء المقبرة مُنذ دهور فبقيت المقبرة وحدها شامخة عبر العصور، وربما بناها رجلٌ صالح

على التلة، لِيُذّكر الناس بالموت، فَلِلْفَنَاءِ والخرابِ تعظيمٌ في النفوس أكثر من جلال الحياة والعمران أحيانا، لم يعلم طاهر ما هو السبب، لكنّه علم كما علم كلّ أهل البلدة، أن أجيالا بعد أجيالٍ ماتت هنا، وبقيت المقبرة والموت كأنه علم على رأسه نار، شامخا فوق رؤوسهم.

وقد لاحظ عمر في السنوات الأخيرة، مع تتابع زياراته لِقبر جَدّه مع والده طاهر قبل أن يرحلوا ويسكنوا العاصمة، أنّ العمران كان يمتد ويزحف على المقبرة من كل الجهات، يَقضُم منها قضمة مع كلّ زيارة يقومون بها، وكأنّه جيشٌ مُحاصِرٌ لقلعة كانت منيعة يوماً ما، تداعت أسوارُها تحت ضربات الحياة المتتالية، تدكّها دكّاً وتتقدم، حتى أنّ طاهرا لم يَجِد فيها متّسعا، بل لم يجدها أصلا، عندما جاء من العاصمة على عجل لدفن أخاه عز الدين في لاحق الأيام، وكأن الموت مات ولم يعد له في بلدته أيّ ذكر.

ترقد جثة حامد بيك على التلة المُطلة على بلدته، بلدته التي نسيت أنه سار في حواريها دهرا، وشرب من ينابيعها مرارا، قطف زيتونها كثيرا، وتصبّب في صباه على حِسانها شعرا، ودَخَّنَ أغلب تبغها غبًّا، أو أنه يوماً ما وقف في رُبوعها متحدّياً الأمير، رافضاً اتفاقية الذل والعار.

أوراقه الصفراء، وأرشيفه الذي احتفظ به ليثبت للناس أنه كان يوما من الأيام واليا لدى السلطان، الذي لم يعد له سلطان، والقوة التي لم تعد قوة، كانت أوراقاً يعلوها الإهمال

وأرشيفا طواه النسيان، يقبع في رفِّ خزانته العلوية، تُزاحم زجاجات عَرَقِ عز الدين وخَمْرِه، ربما كانت مهمة بعد مائة عام، تؤرخ لِفترةٍ ما، أمّا الآن فهي غرض زائد معرض للكب في أيّ وقت في سلة النفايات، أو وقوداً لِلكانون في الشتاء.

كان وكانت أوراقه ذكرى، ربّما تحدّث بها عمر، وربّما لم يتحدّث، لكنّه سيتذكّر دائما أن اسمه هو عمر طاهر حامد بيك، وسَيُنادى عليه به أينما ذهب وأينما حل، رغم أنّه يوما لم يَرَ حامد بيك إلا باللون الأسود والأبيض في الصور الفوتوغرافية.

وبينما كانت الأرض تفعل فعلها، وتُعيد بقايا حامد بيك إلى سيرتها الأولى تراباً وطيناً، كانت نفس عمر وروحه تتململ، تُزاحِم الأنفس في ذلك اليوم، لِتخرج من مستودعها في عالم الذر، لِتُبثَّ في جسدٍ غضٍّ صغيرٍ مضى عليه في رَحِمِ سليمة أربعون يوماً، لقد كان حدثاً، وحدثاً مهمّاً لِطاهر وسليمة، ولأحلام من بعد، ولِعمرَ ونسله وأولاده همام وصَعْب خصوصاً بشرى، أما الكواكب في مداراتها فلم تأبه، والشمس في سطوعها لم تلتفت، والبشر في مشاغلهم لم يعرفوا ولم يهتمّوا أصلاً أن يعرفوا.

# هل هناك آخرة ؟ (8)

يُمسِك بالمسدّس يحشوه بالرّصاص ويُلْقِمه فَمَه، متأكدا أنَّ الرصاصة لن تعبر إلّا من دماغه، لِينهيَ حياته بِيده، ويطوي غربةً طالت، وكآبةً استحكمت، وتِيهَ بِضْعٍ وستّين سنةً في صحراء الفكر المبعثر.

كيف وصل به المطاف إلى هذه النهاية، وكيف رَسَا زَوْرَقه على هذا الشاطئ، وهل حقَّ القول أنّ الرياح تجري بما لا تشتهي السفن، أم أن الربان تَنَكَّب الطريق، أم ... وأم ... وألف أم ؟؟ لو عرف الجواب من قبل، لما وجد نفسه هناك في نهاية النفق المظلم، حيث لم يوجدِ الضوء، ولم تغردِ الطيور، هناك حيث تنعدم النهايات، وتُنسى البدايات، إحاطةَ السِّوار بالمِعْصم يلفك اليأس من بين يديك ومن خلفك، تدوس بِقدميك الحافيتين رُفاتَ السابقين إلى حتفهم البائس منذ القِدَم.

هناك حيث لن يمد إليك أحدهم حبل النجاة، وحيث لن ترى الضوء في آخر النفق، إلا ضوء قطار يسير عكس اتجاهك يسحق عظامك ويهدر ما بقي فيك من أمل، هناك يُسدِل المنتحرون أستار ما كان يُسمّى حياتهم، وفقط هناك هو يحشو المسدس ويُلقمه فمه، يتردد في الضغط على الزناد تَرَدّدَه

**عندما خطى خطواته الأولى، من حضن أبٍ مشغول مسافر إلى حضن أمّ متيّمة، متيّمةً ببكرها الذي ملأ حياتها بهجة وضياء.**

**يتساءل يوسف في نفسه :**

**- كيف وصلت الى هذه اللحظة ؟ تختزل فيها الماضي بضغطة زناد، هكذا بكل بساطة تجد نفسك على مفترق طريق معكوس، فوجهة النهاية واحدة، لكن الطرق المؤدية اليها مفترقة، وقد اختار هو أسرعها.**

**لِمَ انا هنا أمسك بالمسدس وليس امامي كثير وقتٍ قبل التنفيذ؟**

**هل فعلا أن المقبل على الموت يمرُّ شريط حياته أمامه بكل تفاصيله ؟**

**إنّي لا أرى شيئا !!**

**ربما لو استمعتُ إلى طاهر يوما ما لَرأيت شيئا، ولما وصلت إلى ما وصلت إليه ...**

**ينتقل به عنفوان نفسه المتعالية من سؤال إلى سؤال، فلا يجد أي إجابة، وقبل أن يقفز إلى سؤاله الأخير، يتذكّر حامد بيك مُناجيا إيَّاه في نفسه "لا تعضنَّ يا والدي للندم أصابعا، ولا تذرفنَّ للحزن مدامعا، قد ضيعتني كما ضَيَّعَ قومُك مِيرَتَهُم ... وكان ما كان".**

**ورغم أن كلمات طاهر بقيت تتردد في رأسه : "عندما يتعرفون عليك ببطاقة معلقة بإصبع جثتك، تكون حينها قد عرفت الحقيقة المطلقة يا يوسف " إلا إنه رغم ذلك أصّر على سؤاله الأخير :**

- **الآن سأعرف إن كان هناك ما يسمونه آخرة ؟**

# العهود

# الارتقاء (1)

كالغريق على شطّ النجاة استيقظ فزعا من نومه، يتنفّس بِعمق كأنّ الهواء إلى نفاد، أو أنّ أولي الأمر وضعوا أيديهم عليه لِيوزّعوه على العباد بما تقتضيه المصالح التي أُرسلت ولم تَعُد منذ زمن على أيدي غِلْمةٍ طالت لحاها ، لقد عادت الكوابيس إلى عمر من جديد فَمنذ زمن بعيد وهي تلاحقه لا تنفك عنه حتى أصبح يكره النوم بِخلاف العامة، يهربون من هموم النهار بالنوم ليلا، وهو يهرب من كوابيس الليل بالعمل نهاراً. معنىً واحدٌ يتكرر في كوابيسه، تأتي بأشكال شتّى تحبس عنه الهواء فيستيقظ وكأنّ يدا تخنقه ، لاحظت أمّه سليمة العرق يتصبّب من جبينه وهي تنحني لِتضع له فنجان القهوة التي اعتادت أن تشربه معه كل صباح ، دمعت عينها وهي ترى ابنها الوحيد وقد قتله الأرق، "ما بك يا ماما ... هل عادت الكوابيس ؟". "نعم يا أمي لقد عادت ... لقد عادت" ، نظر إلى شفتي أمّه وهي ترطن بِكلام مكرّر حفظه عن ظهر قلب وبدا له كالكلمات المتقاطعة لا رابط بينها " نوم و أرق ... أحلام ومنامات ... طب نفسي وعلاج ... دراسات وأبحاث ... فرويد ونظرياته في تفسير الأحلام " سلسلة من النصائح تنهال عليه كالشلال يصغي إليها برّاً بِأمّه رغم عدم قناعته بما تقول ، يهزّ رأسه المثقل بهذه الكوابيس،

**توقّف فجأة ... فهناك جديد هذه المرة**

**- ما الذي قلتيه أمي ؟ موعد مع طبيب نفسي ... أَخَذْتِ لِيَ موعداً مع طبيب نفسيّ ، استشاط غضبا ... أنا لم أُجنّ يا أمي بعد ... أنا لم أجنّ .**

**يُتمتم بِكلمات غير مفهومة في طريقه إلى عمله " طبيب نفسي ما هذا الجنون " فهو لم يقتنع قط بالمعالجين النفسيين، يعتبرهم مجموعة من غريبي الأطوار يقودهم فرويد ،كان يرى في طلاب هذه العلوم في الجامعة أناس لم تسعفهم معدلاتهم في الثانوية العامة لدراسة شيءٍ أفضل، فانتهى بهم المقام بين وسواس قهريَ أو ذهان عقلي، أصاب فرويد من قبل وهو يفسّر للمتعوسين أحلامهم ويحلّل للمحرومين شخصياتهم، يطوف بهم حول الجنس كالدوامة تبلع كل من يقترب منها.**

**ثقته بنفسه وبشهادته العلمية جعلته لأول مرة يعصي أمه ويمتنع عن الدخول للعيادة النفسية بعد أن جلس في قاعة الانتظار وترك سليمة هناك وحدها تشرح للطبيب مشكلة فلذة كبدها الوحيد**

**"إنّه يختنق في نومه يا حكيم، وكأنّه في نفق مظلم فهل إلى مردّ من سبيل !!!".**

**أطفأ هاتفه الجوال بعد أن أنهى عمله وذهب إلى هضبة صغيرة يجلس تحت ظل سنديانة قديمة كانت رفيقة دربه وهو صغير يُيَمّم وجه غربا يتأمل الشمس وهي تغرب ، يطيل الفكر**

**ويمد النظر ، كانت حياته حافلةً بالعمل والعطاء خاصة أيام الدراسة الجامعية، فقد كان ناشطا مع زملائه يعملون بِجدٍّ وإخلاص يحيط به الناس من كل جانب، لا يتركون له فرصةً للفكر أو النظر، يهرب منهم إلى سنديانته يُكلّمها وتكلّمه ، كم دارت بينهما حوارات ونقاشات**

**"لماذا القدس لم تَعُد بعد ؟ الكل يعمل بجد وإخلاص !! لكننا نزداد بعدا، لماذا يا سنديانتي ... لماذا ؟"**

**يحس بها وكأنّها تحتضنه، فقد لَانَ جذعها لكثرة ما أسند ظهره عليها، وتمهدت الأرض تحتها وكأنها أريكة من ريش نعام .**

**أنا شخصٌ بِفضل الله أتمتّع بِقدر مقبول من الذكاء والفهم، ولا يلزمني هذا المُسمّى بِطبيب نفسي ... يمكنني أن أحلّ مشكلتي بنفسي ، ما هذا الضيق الذي يصيبني في منامي ؟ ما هذا النفق الذي ينعدم فيه الهواء ؟ خطوات قليلة وأخرج منه، لكنني أعجز دائما أعجز ، تهبُّ نسمة هواء تحرك أغصان السنديانة تُحدث همسا وكأنها تقول له : "إنّي أسمعك"، يزداد حماسةً فقد بدأ الحوار يُنسج من جديد كالأيام الخوالي.**

**كانت أول من أخبرها بِحبّه الأول الذي لم يستطع أن يبوح به لأحد؛ فَهو مُتديّن وقدوة بين أقرانه وفي جامعته، لكنّه وقع في الحب وكان حبَّه الأول ... وما أدراك ما الحب الأول،**

كانت فتاة من بيئة مختلفة ومستوى آخر لكنه أحبها وكان هذا في عرف إخوانه كبيرة، فالحب عندهم حرام

"لكنني أحببتها ... وما ذنبي ... إنه فعل قلبي ... والله يا سنديانتي إنّني أحببتها بِغير قصد لم أخطط لذلك لكنه شيء تمكّن واستحوذ ... لم أرتكب حراما ... لكنّني عشقت"

يتساءل إخواني ما الذي أصابك أين نشاطك أين حماسك ؟ غرقتُ في حبّها حتى الثمالة، شيء عجيب يحدث في هذا الحب ، لقد كان هذا الحب حقيقة وتحول إلى أحداث وتحولت هذه الأحداث إلى أفكار وتُرجمت إلى معاني و التي تحولت بدورها إلى صور ، أصبحت أراها في كل مكان عندما أفتح الكتاب أرها بين جنبات الصفحات ، وإذا أغمضت عيني أراها ماثلة أمامي، انتهى بي الحب صورا حية أراها منامات وأحلام ، ولكنْ كَكلّ قصص الحب الأول ينتهي بالفشل .

سقطت ورقة من الشجرة على حضنه وكأنَها توقظه فقد سرح به الفكر بعيدا

"أين كنت ... ما هو أصل الموضوع ؟"

رجع إلى الوراء أحس برابط عجيب بين الماضي والحاضر ، إنها حقائق على الأرض، ما تلبث أن تصبح فكراً في الذهن يتحول بدوره إلى صور ثابتة، وإذا ما أخذتك سِنَةٌ من النوم في هذه المرحلة فإن الحياة تَدُبّ بهذه الصور تترجمها إلى منامات ، صاح بِأعلى صوته :

" سنديانتي الحبيبة لقد وجدتها ... لقد وجدتها، لابد لهذه الكوابيس من حقيقة في الواقع ، فليذهب فرويد وتفسيره للأحلام إلى الجحيم سأكتشف سر هذه الكوابيس بنفسي ."

غادر السنديانة فقد غربت الشمس وأظلم الغرب

لابد لهذه الكوابيس أن تكون من حديث النفس، فهو دائم الفكر، أنهكته هموم أمته فلا يذكر أنّه نام صافي الذهن منذ هَوَتْ الأبراج خلف البحار فقد جرَّت هذه الأحداث على الأمة المصائب تلو المصائب كما دأب مُحدّثوه يُرتّلون .

كان يرى نفسه في نفق مظلم، يزحف حيث لا هواء، وهو يختنق، ولو مشى خطوتين لَخرج لكنّه يعجز ، أحيانا يرى نفسه تحت الماء، حيث لا هواء، والسطح فوقهُ لو سبح مترين لخرج، لكنّه يعجز وكوابيس كهذه وتلك .

دخل البيت، توجه إلى مكتبته باحثا بين الكتب علّه يجد الدواء الشافي ، وقعت يده على كتاب أخضر باهت أهداه إيّاه والده طاهر يوم تخرج من الثانوية العامة، له معه ذكريات روحانية جميلة، فتح كتاب : اليوم الآخر في ظلال القران، لمؤلفه أحمد فائز، فَوقعت عيناه على حديثٍ للحبيب - عليه الصلاة والسلام - عن الدَجَال سرت قشعريرة في بدنه فَهو يشعر دائما أن هذا الزمن هو زمن الدَّجَلِ والدّجال

صاح بنفسه : "ما هذا القَدَر !!! ، يا الله وكأنك ربي أردت بي خيرا"

قرأ أن مع الدَّجَّال جنّةً وناراً ، تمعّن وصية حبيبه المصطفى أنْ إذا أدركت هذا الزمن فَألقِ نفسك في نار الدّجّال فهي بردٌ وسلام ، أحسّ وكأنه يقترب ... أحسّ وكأنّه يخرج ... أراد إخبار سنديانته لكنّ الوقت متأخر ، لم يَنَمْ بقي يتأمّل بِما انتهى إليه فكره؛ إنّه زمن الدَّجل والحقائق المقلوبة ، ما الذي يمنعني من خطوة أو خطوتين لأخرج من هذا النفق ؟

في سالف الأيام كانت تلمع بِذهنه بارقةٌ تضيء له آخر النفق، لكنه لم يجرؤ فالكل يقول له :

"إيّاك أن تقترب ... إيّاك أن تقترب"

اتّخذ قراره : لن أسمع لكم بعد الآن، فَجنّة الدّجّال التي وعدتموني أحالت ليليَ إلى جحيم وكوابيس ، من الغد سَأقلب كل الموازين، سوف أذهب إلى سنديانتي صباحا بخلاف ما اعتدت عليه مساءً ، قطع أفكاره صوت أذان الفجر الذي لم يدرك منه إلا

حي على الفلاح .... حي على الفلاح

صلّى الفجر وخرج مسرعا إلى رفيقته ليحدثها، إنها أول مرة يلتقي بها شروقا، فقد اعتاد الجلوس تحتها غروبا ، يَمَّم وجهه نحو الشرق وجلس ، آلمه الشوك والأغصان والأحجار فشرق السنديانة غيرُ مُمَهَّدٍ كَغربها ، جلس ينظر بزوغ الشمس أخذته سنة من النوم

**رأى نفسه واقفا يتنفس ينظر إلى الشمس وهي تشرق .. مشى نحوها .. أصوات تناديه من كل مكان ..**

**لا تقترب .. لا تقترب ..**

**إنها نار تحرق ... إنها نار تحرق ..**

**لم يلتفت هرول نحوها .. لأول مرة منذ زمن .. إنه لا يختنق .. لقد ذهبت الكوابيس .. بزغت الشمس وجاء الضياء .. طار في السماء وألقى بنفسه في قرصها .. أحس بها .. شعر بها .. تنفّس هواءها .. لفحه بردها .. لامست روحه .. إنها جنة الضحوك القتال.**

# أحلام (2)

**مِن مذكّرات أحلام**

**"جلس يحدّثها عن طموحه، لا يلتفت بنظره عنها، وكأن نصفَ الجمالِ وُهِبَ للخلق، ولها النصف الآخر قد وُهِب، حرص أن يظهر بأفضل حال، وتكلم بأحسن كلام، مُرتاعاً أن ينتهي رقما مِمَّن لم يَفُكَ رمزها وأعياه سرُها. فقد هوى من على سِدْرةِ مُنتهاها كلُّ السابقين لِخِطْبتها.**

**كانت نظراتها تمتدّ خارج غرفة بيتهم الفسيح وخارج زمانهم العامر، وكأنّ الأفق بلا أفق، وكأن الزمان بلا وقت، تسيحُ روحها في الملكوت، تغنّي هناك بصوتها المخملي العذب أغاني الخلود، لا أرضٌ تقلّها، ولا سماء تظلّها، ولا فارس على جواد يُلحقُ جسدها المُثقل بالهموم بِروحها السائحة الهاربة.**

**نظر الضيوف في وجوه بعضهم متحيّزين للخروج، فالمكتوب من عنوانه قد قُرِئَ، وبِعيونها اللامعتين قد كُتب، وأضافت أُمُّها رقما جديدا إلى دفتر المتساقطين على أعتاب قدميها.**

اعتاد الكرسي الخشبي القابع في حديقتها أن يأنس بتسبيحها كلّ صباح ، كم هَزَّهُ أنينها، وكم بَلّه دمعها، وكم وُسِمَ الحرف الأول من اسمها على سهم يخترق قلبها، رسمته بأظافرها على ألواحه، تاركة رأس السهم تائها يتدلى بلا نهاية، كانت نظرتها للحبّ شيئاً آخراً غير الحبّ الذي لاكَه الناس بِألسنتهم، وترنّموا به بِأشعارهم، لم يلامس من قلوبهم المنكوتة سويداءها، ولم يعرف من معاني الخلود إلا قشورها.

" أهذا كلّ الذي تفهيمنه من الحياة ؟ وتعقيلنه من المعاني؟" كانت تُجيب أمّها بعد كل جولة من جولات المال والجاه والمناصب المتقدمة لها، ثم تُلقي بِرأسها المثقل على صدر أمّها باكية، "لقد تعبت يا أمي ... لقد تعبت".

جلس غير آبهٍ بِنظرات أمّه التي ترجوه أن يبدي قليلا من الاهتمام، فَقَد أوشكت العروس المأمولة أن تدخل من أجل المعاينة، أمّا هي فقد تسمّرت على باب الغرفة ترجو أمَّها أنْ تُعتقها،" لقد تعبت يا أمي ... لقد تعبت، لا حاجة لي بالرجال ولا حاجة لهم بي"، ولكن قرصة مؤلمة من أمها أجبرتها على الدخول.

"لا حاجة لي بِها، فأنا من أمري على عَجَل،وعن الزواج في شُغُل، وخاصة من هذه المتكبّرة التي رفضت من هم أيسر منّي مالا وأوسع جاها" محدّثاً نفسه ،محدّقاً بالسجادة الفاخرة تحت قدميه يعد الأشكال المتماثلة في تصميمها البديع الخلّاب، فَأيقظته قرصة من أمّه التي أجبرته على الحضور من أجل

**المعاينة، فَرفع رأسه بِتواضع الابن البار ووقار الفارس المقدام، فَرأى ما رأى، وما أدرى المُحبّين ما رأى، فقد رأى عينين ساحرتين أغرقتا في تأمّله على غير عادة منهما، ارتبك الجَمْع وساد الصمت، فَقد أُدم بينهما وحدث الاشتباك ، والتقت الأرواح، والمشهد كأنه قصيدة عُلّقت على أستار الحب مُنذ خُلق، فَكان هو صَدْرَ القصيدة وكانت هي عَجُزها وكان الحب قافيتهما، فَأدركت منه ما فهم منها، سال الدمع من عيني أمّها فرحاً، وأمسكت أمّه بِزمام المبادرة لتثبيت المُنجزات ، فاقترحت أنْ يتبادلا عناوينهما الالكترونية من أجل مزيد من التعارف ، واقترحت موعداً للخطبة شهراً من الآن بعد عودة ابنها من السفر .**

**وقبل قراءة الفاتحة نطقت على غير عادةٍ منها**

**" لكنّ المهر عزيز"**

**انحدرت كلماتها في واديه السحيق فَلم تصل فيه إلى قاع، فزُلزِلَ كيانه وارتدّ صداه**

**"كَما تأمرين"**

**فَأطلقت أمّه زغرودةً طافت أرجاء الحي وسكنت على الكرسي الخشبي القابع في حديقة أحزانها.**

**مرّت الأيّام ثقيلةً على الكرسي الخشبي فَقَد طال جلوسها عليه ، وأخبار الفارس قد انقطعت وكأنّ جواده قد عُقِر ،**

**ونظرات الحزن من عيني أمّها تراقُبها من بعيد، وعَبَقُ الورد الأحمر قد حُبس، وأَيْمان أمّ الفارس أن أخباره تلاشت لم تُصَدَّق، سحبت الأيامُ الأيامَ، وَجَرَّت الأشهرُ الأشهرَ، وَوَدَّ الكرسي لو فيه روح ، وَوَدَّ خشبه لو ينطق، وَوَدَّت ألواحه لو تحضنها، وهي لا تفتأ تردّد**

**"لكنّ المهر عزيز .. لكنّ المهر عزيز"**

**فيرد عليها صدى الصمت " كما تأمرين ... كما تأمرين".**

**استيقظت فرحة على أصوات التغريد في صباح يوم عتيد وتزيّنت على غير عادتها مُنذ انقطعت الأخبار وتلاشت الآمال، لَبِسَت ثوب العزّ والفخار، وتغنّت بِأغاني الحب والجمال، وقبل الموعد المضروب مع الكرسي الخشبي تذكرت أن الفارس ترك لها يوما بريده الإلكتروني، فَسار بها الوجد إلى حاسبها، فَوجدت رسالة بُعثت من قريب،" كما تأمرين ... فالمهر عزيز ... ومع أولى نسمات الفجر الجديد .. أُقدّم مهري" أشرق الصباح وغنّت الورود، ومع الشروق حفرت اسم فارسها على الكرسي الخشبي، وركبت معه على جواده الأبيض وطار بهما نحو الخلود."**

**أحلام**

# التسامي (3)

**هو ....**

**إنّما الإنسان مشاعرٌ وذكريات، وهي في تكوينه أهمّ من شكله والأطراف، فَهو ما يحسّ؛ فرحا وحزنا، وما يتذكر؛ شقاء وسعادة، ألا ترى إلى الفتاة الجميلة لا يُغني عنها جمالها حُزناً غالباً، كَما الشاب الغنيّ لا تُزيل أمواله كآبةً حالَّة، فالبقاء لِلدواخل، والزوال للمظاهر.**

**وإنّه لَمِن السهولة بِمكان أنْ تُؤلف بذلك النظريات وتُسرد بِذلك الحكايات، ولم يكن ذلك على عُمر بِمعجز، فقد اعتاد منذ تجربته المبكّرة التعامل مع كافّة أنواع البشر ، وكان يعرف الكثير عن البواطن كما كان يعرف عن الظواهر، فَلِكثرة اختلاطه بالناس في مقتبل عمره، وتعدّد المشاكل في عمله العام، زعم أنه أدرى بالنفوس من المتخصصين الأكاديميّين، الذين اقتصرت تجربتهم على الكتب الصمّاء والنظريات الخرساء، ولم يصل عدد النفوس التي تعاملوا معها مِعْشار ما تعامل معه عمر.**

**ومع ذلك فقد أدرك أن هناك مرحلة أعلى ومستوى أرفع لِهذا العلم ولِذاك التشخيص، وهي عيش التجربة ذاتها، حيث**

**نفسه التي بين جنبيه ستكون هي محلّ الدرس ومحلّ الاختبار، فَيدرك من المعاني ما لم يرد في الكتب، يوم كان يُطالعها، وما لم يُحْسِسْه في نفوس الآخرين؛ يوم كانوا يبكون أو يضحكون بين يديه، أو حتّى يوم كانوا يستشيرونه في الهروب ومغادرة الدنيا لِشدّة وقع المشاعر عليهم وفتك الذكريات بهم.**

**فَحقيقة خلايا الدماغ - كما تعلّم عمر في الجامعة - هي الذكريات ذاتها، على شكل عضوي مادي ملموس، فكل حدث مؤثّر يمرّ عليك يُترجم داخل دماغك على شكل خلايا حية جديدة تبقى ترافقك إلى آخر يوم، وتلازمك حتّى نهاية الحكاية، ربّما يُحاول جزءٌ فيك لاحقاً منعها من الظهور، لكنّها في المحصّلة موجودة كامنة خاملة، تنتظر المُحفّز لِيظهرها، وأحياناً تنتقل إلى اللّاوعي، وإلى العقل الباطن، تحرّك مادّية الإنسان وتتحكّم بِأطرافه وَرُدود أفعاله .**

**هي ....**

**كانت أحلام قد سبقت عمر في تلك التجربة وفي هاتيك الحالة، فَخرجت من جسدها خروج الروح من المَيّت، وسَمَت في مشاعرها سُمُوَّ الكائنات النُورانية، مِمّا جعلها لا ترى في الرجال أشكالهم، ولا تنظر في البنوك حسباتهم، وكم كانت تردّد "إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ" ولعلّ مَرضاً أصابها عَمَقَّ عندها ذلك الشعور، فَرضيت بما قسم الله لها، وارتقت في فكرها إنسانية، فَكانت كلّ النفوس عندها سواء، لافرق بين الأجساد التي حَلَّت بها، طويلة كانت أم قصيرة، سوداء كانت أم بيضاء، شرقية هي أم غربية، لا فرق بينها إلا بما ارتضت تلك النفوس لِذاتها من رُقِيٍّ أو خِسّة، إيمانٍ أو كفرٍ، كرمٍ أو بخلٍ، فَكتبت إلى عمر قبل أن يكون لها زوجا، ووصفت نفسه كما كانت تتمنّى، قبل أن تعرف له جسداً، أو ترى له هيئة، وبثت أحلامها فقالت :**

**"إليك ...**

**وقد تملكني شعورٌ بِأنّي لن أحب ... ولكنْ**

**يا من أجاب الله دعائي به**

**فَطالما تمنّيت فتىً يسلبني لُبّي، ويأسر قلبي، فَلا أجد فكاكاً منه إلّا إليه، وأنا المَمْلُوءة اعتزازاً بالنفس، وكبرياء يحطّمني أحيانا، وتطلّعاً لِلكمال يجعلني أشعر**

بخيبات الأمل بِشكل مضاعف عمّا عند غيري، ويدفعني لِجلد الذّات بِعنف في أحيان كثيرة، لعلّ طبيعة نشأتي بين أخ أكبر وأخ أصغر، ووجود أمّ تفضّل الذكور وتحابيهم على الإناث، جبلني على التحدي، وإثبات الذات، وعدم المهادنة في كثير من الأحيان بل في معظمها، وتحدّي الكثير من الموروث الاجتماعي فيما يتحتّم على البنات فعله مِن تركه.

وكان ممّا أنعم الله به عليَّ أن أصابني بِمرض مزمن ، أرّقَ والديَّ، فَلم تنفكّ أمي من الذهاب بي إلى الأطباء والدجالين والمشعوذين، في محاولة منها لِتخليصي من هذا المرض، وكنت أشفق عليها من كثرة الهمّ والغمّ والقلق على مستقبلي، وكلّ ما كان يعنيني في هذا كلّه هو بعض الآلام هنا أو هناك، وكنت صغيرة لا أجيد التعبير عن مشاعري، فَأبقى ساكتة، وما زلت أذكر تلك الأعشاب الشديدة المرارة التي كانت أمي تجبرني عليها يوميا، وتلك الحُجُبْ التي كانت تضعها لي تحت الوسادة ... وكل ذلك لم يُجْدِ نفعاً.

وما زلت أذكر بأني وعلى الرغم من صغر سني، ما مَلَلْتُ من تذكير والِدَيّ بِأنّ الشافي هو الله، وأنّه لا داعي للقلق، فَلن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، وأنَّ الناس نفوسٌ وأروحٌ، قبل أن يكونوا طِينا وأجسادا"

**وبعد أن أصبح عمر ذاتها الأولى ونصفها الثاني، في ليلة مقمرة صافية، جلست وحيدة تحت ظل السماء، تستذكر الماضي وتُحدّث نفسها :**

**"إليكَ .. يا من أجاب الله دعائي به، أنْ يرزقني حبيبا حنونا كريما صالحا تقيّا يكرمني ويحنو عليَّ كوالديَّ ويرفع قدري ... فَكنت أنتَ**

**يا من ملأ قلبي فرحا وسرورا، وملك نفسي شهامة ورجولة يومَ الأحد العتيد ... فَكنت أنتَ**

**يا مَن جعلني أَئِنّ من شدة الحب والشعور بالوفاء، وأبكاني شغفه بي وتلطّفه معي يوم زواجنا ... فَكنتَ أنتَ**

**يا من مشيتُ معك ربيع عمري، والرّضا بك يملؤ عليَّ قلبي، وشغفي بك يتغلغل في جوارحي ... فَكنت أنتَ**

**يا من أتعبني صِدق لهجته، وشدة اندفاعه للحق الذي يؤمن به دون حساب ... فَكنت أنتَ**

**أنت أنت ... وأنا أنا ...**

**حاولت وسَأحاول يا حبيبي أن أكون كما أنا ، مؤمنةً بالقضاء والقدر، متوكلة على ربّ البشر، أرنو لعيش**

**الآخرة، فهي الحياة الحقّ ف (لا عيش إلا عيش الآخرة) كما قال سيد البشر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .**

**أصارحك يا حبيبي فَأقول، لم أشعر في أيّ لحظةٍ في حياتي بأن مرضي مُصيبة، فوالله ما شعرت إلا أنّه نعمةٌ من الله، خصّني بها دون غيري من أقراني، ومنحة منحني إيّاها لِيعرف أَأصبر أم أجزع، ولعلّ معاناتي تلك جعلتني أختبر معاني الإيمان بالقدر وحسن التوكل على الله وحسن الظن به، وبأنّ الرزق بِيده جلَّ وعلا، وأنْ لا رادّ لِفضله، وما فَتِئت ادعو ربّي وألحّ عَليه بالدعاء أن أكون من الصابرين الشاكرين، وأرجوه أن أُوفّى أجري دون حساب، ولا أذكر يوما بِأنّي دعوته - عزّ وجلّ - أن يشافيني، فَقد أحببت مرضي وكأنه هديّة ثمينة لا تُرد من خالق البشر الودود الرحيم.**

**وكنتُ آتيك يا عمر يوم غيابك اللّاحق، كنتُ آتيك في المنام كلّ ليلة وحدي، يعتمل في صدري وقلبي الكثير الكثير، ومن شدّة الشوق، كنت أسابق نفسي بِنفسي، وفي الطريق إليك أبكي وأضحك، أتودّد وأصرخ، أعاتب وأشكر، وأبثّ لك كلّ ما في صدري ... ثم ما ألبث أن أفيق."**

**وكان مِنْ رسائل أحلام اللاحقة؛ خواطر ابتدأتها بِكلمات لِسيّد قطب :**

**"(إنّ الكمّ ليس هو الذي يرجح في الميزان ... ولكنه الباعث وما يمثّله من حقيقة الإيمان ... إنّ الذي ينفق ويقاتل والعقيدةُ مطاردةٌ والأنصار قلّة وليس في الأفق ظلّ منفعة ولا سلطان ولا رخاء ... غير الذي ينفق ويقاتل والعقيدة آمنة، والأنصار كثرة، والنصر والغلبة والفوز قريبة المنال.**

**ذلك متعلّق مباشرة بالله متجرّد تجرّدا كاملا لا شبهة فيه، عميق الثقة والطمأنينة بالله وحده، بعيدٌ عن كل سبب ظاهر وكل واقع قريب، لايجد على الخير عونا إلّا ما يجده مباشرة من عقيدته، وهذا له على الخير أنصار حتى حين تصحّ نيّته ويتجرّد تجرّد الأوّلين ) سيد قطب.**

**عمر، لقد كنت وما زلت رَجُلي الكامل، بِكل ما فيك ملأت روحي وسكنت قلبي، كنتُ أرى فيك رجلا لا كالرجال، إذا قلت فعلت، وإذا وعدت أوفيت، وإذا عزمت أمضيت، وقد كنت أعرف من البداية أنّ الكلمة في نفسك لا كما هي في نفوس الرجال، فالكلمة ما تزال في نفسك حتى تصبح حدثا وها قد أصبحت، ولعل قدري أن أكون أنا شريكتك .. لأتحمّل نتائج الأحداث، ولكن عزائي في ذلك أنني عشت معك أجمل وأبهى سنوات حياتي وأيّامي، وإنّي لَأرجو من رحمن السماوات والأرض أن يثّبت أَجْرَكَ وأَجْري، ويقدّر لنا خير الدنيا والآخرة حيث يعلم اللطيف بِحالنا ولا نعلم، ونحن الفقراء إلى لطفه وَوُدّه**

**بقي الكلام يعمل في نفسك عمله، ويدفعك إلى معاينته دفعا، حتّى حدث ما حدث**

**فالكلمة في الذّهن توجد الحادثة في الدنيا"**

**أحلام**

# الأحد العتيد (4)

**هو ...**

**كل شيء خطر ببالي إلّا ذلك البرزخ الذي وقف أمامي في لحظة من أهم لحظات حياتي، ذلكم البرزخ الذي يُخبرك أن عليك الاختيار، والاختيار الفوريّ، فلا مجال هنا للتفكير ولا مجال هناك للتدبّر، إنّما هو نوع من القرارات التي تتّخذها بِما سبق من عمل، وبما ما مضى من إيمان.**

**سؤالٌ تردّد في الأيّام القليلة التي سبقت اليوم العتيد، يوم الأحد، اليوم الذي تقدّمتُ فيه لِخطبة أحلام**

**آلله خلق الكمال في البشر ؟**

**أَيعقل أنّ أحلامي تحقّقت كلّها في أحلام، دينا ونسبا ومالا وجمالا ؟**

**فَكان البرزخ وكانت اللّحظة، اللّحظة التي لها ما بعدها ، اللحظة التي رَدَّدتُ حينها وبعدها كثيرا**

**"لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْراً "**

**وقد أحدث الله - ولا يزال - أمرا بل أمورا، لم يبلغها من البشر الكرماء، ولم يلامس سُموّها من الناس النبلاء، فَعطاء الله على قدر عظمته.**

**أحسست بالمعيّة، والقرب، وذمّة الله، وفضله في كلّ مفصل وفي كل منعطف، وحتّى عندما كنت أنسى تلك اللحظة وهذا الفضل، فإنّ الله لم ينسى وحاشا له أن ينسى، إنّها نوع من العمل الذي يتوسّل به الصالحون في أدعيتهم، فتُزحزح عنهم الصخرة التي سدّت باب غارِهم، وقد ظنّ الناس أنّها لا تُزحزح، فَكم وضع الله على باب غاري صخرات وصخرات؛ حتّى أتوسل إليه، أبكي بين يديه، وأتذكر الفضل المطلق والنعمة السابغة.**

**إن من الماديات ما لا يتغيّر عبر الزمن، إنّما تتغيّر طريقة تعامل المرء معها، فالرضا والتوفيق لا يُحَوِّل الفقير غنيّا، إنّما يرزقه غنىً في نفسه يجعل المشاعر والذكريات سائدة، والماديات والأشكال مَسُودَة، وهذا المعنى الحقيقي للسعادة.**

**السعادة التي تكون بين يديك، يعرضها الله عليك عرضا، وتأتيكَ شارعةً، ما عليك إلّا أن تأخذها في قرار لحظي وإلا ذهبت ، وإنْ هي ذهبت فَلن تعود، إنّها سعادة لا يدركها من فاتته اللّحظة، وضيَّعته الحسابات الدونية؛**

**حسابات الأشكال والأطراف لا حسابات النفوس والمشاعر.**

**كَمنقذ الغريق من الموت أو منقذ الطفل من الدهس، يتّخذ الشخص أحيانا قرارا لحظيا في أجزاء بسيطة من الثانية دون تردّد، تجتمع لديه الدوافع والموانع والقيم والمخاطر والتجارب السابقة لِينجم عنها قرارٌ لحظيٌ حاسمٌ. في مثل هذه المواقف وفي تلك اللحظة يظهر لِلمراقب ما أسلف هذا الشخص من عمل، وما لامس شغاف قلبه من إيمان وتوكّل، لِيكون موقفه ذاك خلاصة ما خفي، وترجمة ما ادّعى سالف أيّامه، فَرُبّ أبي زيد الهلالي ... أرنبا هاربا، وربَّ أشعث أغبر لو أقسم على الله لَأبرّه ف (هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ).**

**أحلام : يا عمر إني مريضة ...**

**سؤال لا بدّ له من جواب، جواب تدرك بعده سرّ الكمال الذي يبدو على بعض البشر، حيث تمضي سُنّة الله ألّا كمال إلّا في الآخرة، فَيظهر لك ما علمه الله وجهله البشر، فالنقص في البشر كامن أو ظاهر، فإمّا أن تنتقل إلى جنة الآخرة في الدنيا، وإما أن تُحجم**

**إنّها اللّحظة الفارقة، في اليوم الفارق**

**يوم الأحد العتيد**

**يتنزّل عليك في اليوم الذي يليه (الحبُّ الخالدُ) من السماء، يقذفه الله في قلبك قذفا، حبٌّ لا كَحُبّ قيسٍ لِلبنى، ولا كَحُبّ البشر بعضهم بعضا، إنّما حبٌ سماويٌ تآلفت الأرواح فيه هناك تحت ظل عرش الرحمن، فاض فيه جمال نفسيهما على جسديهما، فَكساهما رونقا وجمالا، فَلا قيمة للحب إنْ تفّرق المُحِبّان إلى جنة ونار، إنّما حبٌ يمتدّ إلى الخلود في الجنة، حب النفوس والأرواح، لا حبّ الطين والأجساد**

**حب عمر لأحلامه ... أحلام**

**وحب أحلام لفاروقها ... عمر.**

# النظر من الأعالي (5)

كانت حياة عمر في ظل طاهر وسليمة غنية بالقيم والمعاني، متواضعة بِالإمكانات والأشياء، وهي من البساطة بِمكان؛ حيث يكون فيها ركوب الطائرة إنجازا بِحدّ ذاته، وربّما كان لذلك تأثيرٌ بالغٌ، لا يُبطل روعة النظر إلى الأشياء من عَلِيّ، فَأُلفة الطيران عند الغادين والرائحين جعلت منه مجرد همٍّ وتعب، بينما كان ركوب عمر لِلطائرة مع أحلام لِأول مرّة - في رحلتهما لقضاء شهر العسل - تحليقا في الفكر كما هو تحليقٌ في السماء، فَكلّ عظيم على الأرض؛ إنسانا أو جمادا بدا أمام ناظِرَيْ عمر يصغر شيئا فَشيئا، وكأنّ التحليق في الأعالي يجعل من الدنيا لا تساوي في حجمها وأهميتها شيئا لِتظهر على حقيقتها، متاع الغرور، ولم يكتفِ عمر بِارتفاع الثلاثين ألف قدمٍ التي أعلن قائد الطائرة الاستقرار على مستواها، مع سلسلة إعلانات أخرى مُتعلّقة بالحرارة خارج الطائرة والاتجاه والوقت الباقي للوصول إلى مطار أتاتورك في استنبول، بل استمرّ عمر، وقد أغمض عينيه، بعد أنْ استبدل شريط "كاسيت" أناشيد قصائد ابن الفارض الذي كان يسمعه بِشريط قرآن لِسورة الأنعام للقارئ محمّد صدّيق المنشاوي، ووضع سمّاعات الأذن على رأسه، استمرّ في رحلة الصعود والترقّي، أو التنزّل كَما أسماها كارل ساجان في كتابه الذي قرأه عمر

**قبل أشهر معدودة (الأرض نقطة زرقاء باهتة)، فَخرج من نطاق الجاذبية الأرضية والغلاف الجوي، إلى الدوران حول الشمس، منطلقا منها متجاوزا حزام الصخور الكونية التي تحيط بالمجموعة الشمسية، فَرأى الأرض من هناك نقطة زرقاء باهتة، ثمّ انطلق نحو مركز مجرّة درب التبانة، وما لبث أن سار بِفكره وخياله بِسرعة الضوء، متجاوزا مجرّة بعدَ مجرّة، يسير به إخباته نحو النهاية، التي لا يبدو أنّ لها نهاية، تفكّر فيما يكون بعد المجرات والعناقيد والأكوان المتوازية، وكلّما وصل إلى نهاية أدرك أنّها مجرّدُ بدايةٍ لِنهايةٍ أخرى، حاول في عقله استيعاب الأبعاد كلّها في لحظة فكر واحدة، فَأحسّ أنّ دماغه سَينفجر، كَمِرجل بلغ به الضغط حدّه الأعلى، عاد بعد أن اصطدم بِالمالانهاية إلى التّصاغر من جديد، فَعاد إلى الأرض، ومنها إلى وحدة تكوين الخلايا في أصابعه التي أخذ يتأمّلها، وأحلام تنظر إليه بِعجب وتقول في نفسها "يبدو أني تزوجت رجلا مخبولا"، غافلة عن مقولة عمر في نفسه وهو ينظر إليها عند إقلاع الطائرة وبعد أن قرأت دعاء السفر وبدأت تُتمتم بِلهجة غير مألوفة وكلمات غير واضحة وبِوجه مُصفرّ ولسان مُتلعثم "ما لهذه المرأة جُنَّت". عاد وتأمل الخلايا في أصابعه منطلقا منها في رحلة عكسيّة نحو الجُزيء، فالذرّة، ومنها للإلكترون والبروتون، ثم نحو الكوارك، ومُكوّنه، ومُكوّن مُكوّنه، فَنزل سريعا كالذي يهوي في وادٍ سحيق نحو المالانهاية من طرفها الأخر، فَلم يصل هناك إلى قاع، ولم يُخرجه من رحلته البديعة هذه إلا يد أحلام وهي تُمسك بأصابع يده "وكأنك نسيت أننا في شهر العسل يا عمر".**

فَيجيبها إجابة زادت من شكوكها تجاه غرابة أطواره، ولم تُدرك إسقاط معناها على الواقع إلا عندما قبّلها بعد أكثر من عشر سنوات على رأسها وهو واقفٌ على باب البيت مغادرا : "إن الدنيا يا أحلام لا تساوي، على الحقيقة لا المجاز، ولا حتى مثقال ذرّة"

عاد إلى كرسي الطائرة وإلى يد أحلام الحانية وهو يردّد، "سبحان الظاهر ليس فوقه شيء، وسبحان الباطن ليس دونه شيء" وأكمل شطر الدعاء الثاني الذي لم يدرك معناه الحقيقي، إلّا عندما قام ذات مساء، بعد صلاة تهجّد، بِرحلة مشابهةٍ في الزمان لا في المكان، وقد أدرك فيها معنى " سبحان الأوّل ليس قبله شيء وسبحان الآخر ليس بعده شيء".

أدعية وأذكار عاشها في نهاره وفي ليله، ملتزما بِأوامر الله ذاكرا إيّاه ومسبّحا في صحوه، وسارحا في منامه بِنفسه المتحرّرة من جسده النائم في ملكوت الله زمانا ومكانا، ناظرا إلى ذلك الحبل المتدلّي من نفسه الذي يربطه بِجسده المُسجى على الفراش، وقد أبقاه في عالم الأحياء.

أحلام تمازحه : "هجين وقع في سلة تين، أول مرّة بتركب طيّارة"

عمر : وكم مرة ركبتي أنت الطائرة يا أحلامي ؟

أحلام : هذه المرة الثالثة.

**عمر : وهل هي كافية حتى تفقدين الشعور بِروعة التحليق ؟**

**أحلام : أذهلني القرب منك عن الأفلاك والأكوان يا حبيبي.**

**شعر عمر بِفداحة موقفه، فاستدرك شارحا نظريّته في الحب : إنّما السحر ما خفي سببه ولَطُف، والحب الذي أنشده معك يا أحلام عمري، هو ذاك الحب الممتدّ من الدنيا إلى الآخرة، امتداد هذه السماوات من أصغر مكوّن فيها وحتى السماء السابعة، نعيشه في دنيانا صافيا نقيا، ونختمه تحت ظلّ العرش يوم الدينونة الكبرى.**

**أحلام وقد حركت كلمات عمر عندها معنى الحب الخالد، ذاك الحب الذي كانت تُسطّره في مذكراتها، وقد أحسّت فعلا أن عمر هو ذلك الفارس الذي جاء على جواده الأبيض وطار بها نحو الخلود، فَشعرت وكأنّهما يطيران دون واسطة، وأنّ الطائرة أضيق من أُفقهما المَرْجوّ، وأن سرعتها أبطأ بِكثير من تحليقهما نحو الخلود.**

**تنظر أحلام إلى عمر، الذي استأثر بالمقعد القريب من النافذة، وإلى الأفق الممتدّ خلفه، تنحني بِرأسها على كتفه : أتعرف يا عمر أني لم أشكّ للحظة واحدة، أنّ الله سَيرزقني بفارس مثلك، يطير بي حيث أشاء.**

**عمر، وقد سرت قشعريرة بِبدنه من كلام أحلام المعسول، وقد اخترقت سهام عينيها الذابلتين كل معنى للحب فكر به أو**

تخيَّله منذ أدرك، وقد شَدَّ بيده على صدره مخافة أن يطير قلبه، فهو الشابّ المتديّن الذي لم يجرب من قبل التغزّل بالنساء أو تغزلهنَّ به، اللّهم إلا بعض المديح هنا أو الثناء هناك، من كلام الطالبات، تنقله له أخته التي كانت تدرس معه في نفس الجامعة، فكان بِكرا في مشاعره، غضّا في أحاسيسه، وكان قلبه فراشا دافئا لِكلّ كلمة صادقة جميلة، وقد شعر أنّ صبر السنوات الماضيات عن الحرام، جعل لِلحلال عنده قيمة ومغزى، وشعر بالمعنى الحقيقيّ لِلحب، حيث تنسجم فيه ملكاته، لا يُعارض بعضها بعضا، خوفا من نظرة حرام، أو كلمة محظورة، فَكان لكلّ كلمة تحكيها أحلام، أو نظرة تنظرها، أو غَنَجٍ تغنجه، تناغمٌ عجيبٌ وإدراكٌ عميقٌ لا يعرفه من فضَّ بكارةَ حبّهِ بالحرام.

عمر : بل أطير بك حيث تشائين يا حبيبتي.

لَمْ تكن أحلام تعرف رغم ما أثبتته في مُذكّراتها على نفسها، أن نفس عمر التوّاقة، لن يكون لها حدودٌ، وأنّ لِجمال هذه السمة في الرجال وجهٌ آخرٌ، ولو أنّها قرأت الكلمات التي كان يدوّنها عمر على حواشي الكتب التي قرأها، أو أنّها لاحظت بريق عينيه المُتّقد أيّام درسا في الجامعة معا، لعرفت أنّ لهذه السمة ثمنٌ باهظٌ وتبعاتٌ مُكلفة، وهو الذي كانت تردّده على كرسيّها الخشبي كل صباح :

"لكنّ المهر عزيز ... لكنّ المهر عزيز"

# التاريخ (6)

رغم لَوْم عمه عزّ الدين اللّاحق له، عندما زاره مع والده، وحدّثه عن زيارته لِتركيّا، وقصَّ عليه ما رأى من تاريخ وجغرافيا، ومن حضارة وتراث، ومن أصالة وحداثة، أو للدّقّة - حسب عمر - أصالة وتَغَرُّب وتقليد أعمى للآخر المنتصر، إلّا أنه لو استقدم من أمره ما تأخَّر، لما تغيّرت روعة تلك الزيارة ولا ندم على ما عاشه فيها من حاضر قائم، أو أمل فسيح ما زال يراوده عن عودة تاريخ أمّته المجيد، أو ماضٍ قريب استحضر فيه طفولته وشبابه، عندما كان طفلا صغيرا في المدرسة الإسلامية الوحيدة في مدينته، يتذكّر يوم كان الأطفال في ساحة المدرسة يتباهى كلٌ بما يتقن، من إلقاء نكتة هنا أو حركة بهلوانية هناك، فأراد الصغير عمر مشاركتهم، وقد حدّثه والده من قبل تشجيعا له "إن قبضة يدك قوّية يا عمر"، فَما كان منه وبِكلّ براءة إلّا وأن ضرب بها أحد الأطفال على ظهره كمشاركة له في هذا المهرجان، غير مدرك لِتبعات تلك الضربة وهذه الجرأة، وهو لم يعد يذكر من تلك الحادثة سوى أنه متمسكٌ بحديد "درابزين" الدرج يُقاوم، والأطفال يجرّونه نحو غرفة مدير المدرسة، هو لم يعلم ما حدث بعدها، ولا قبلها، فالدماغ لم يُخزّن إلّا أشدّ المواقف إيلاما أو فرحا في طفولته، وقد كان من تأثير تلك الحادثة عليه، أن جعلته دائما يُفكّر قبل

أنْ يتصرّف، إلّا أنّ هذه القاعدة كانت تُكسر عندما يصل الأمر إلى الاعتداء على الدين أو التطاول على الله، ربّما ورث هذه الصفة عن طاهر، وربّما ربّاه عليها، أو أنّ سلوك طاهر الظاهر ترك أثرا في نفس الصغير، فالتربية بالممارسة خير من ألف موعظة وموعظة، وما الطفل إلا مُحاكاة أبيه، وهذا الذي سَيظهر في حديث عمر اللّاحق عن والده، يوم صلّى عليه صلاة لا صلاة مثلها، لا مكانا ولا زمانا ولا حالا.

لم يشعر بِضربة الخشبة الثقيلة على خاصرته، يوم ضربه إيّاها أحد زعران المدرسة، يوم كان عمر هو الوحيد الذي وقف بوجهه بعد أن شتم الذات الإلهية، وصرخ عليه وهدّده غضبا لله ولدينه، شعر وكأنّ يدا تلقّت عنه ثقل الضربة، فما حسَّ بها بتاتا، كانت وكأنّها هبة إلهية تقول له : "أن يا عمر لا تحزن إن الله معك" معيّة من الله كانت تنمو معه يوما بعد يوم كلّما زاد في إنكار المنكر، ليس في حدود الأباعد بل وصل الأمر إلى حدود الأقارب، ورغم أنّه كان محبوبا في كلّ مراحل حياته، فهو يذكر عندما اكتشف ذلك أول مرة عندما طلب الاستاذ من طلاب الصف كتابة اسم أكثر واحد يحبونه، فَتفاجأ أنّه كان الأوّل، لَقد علّمته تجربته في الحياة، على تواضعها، أن السّكوت عن الخطأ أملا بصلاحه، يعود عليك لاحقا وقد اشتدّ عوده واستفحل خَطَرُه، فرغم حب الأصحاب له، ورغم تصدّره في كافّة مراحل طفولته وشبابه، إلّا أنّ الأصدقاء مع تقادم الوقت بدأوا ينفرون عنه، فهم لا يحبون الصديق الصدِّيق، إنما يحبون من يتغافل عنهم ويبرر لهم أخطاءهم

**حتّى لو مسّت حقوق الآخرين، هم في ذلك كَحال الهيئات والجماعات، وعامّة الناس، حبّهم لِلكذب اللذيذ أكبر من حبّهم لِلصدق المؤلم.**

**يمرّ مع أحلام على معالم الخلافة العثمانية، يستذكر مجدا أقيم على التوحيد وعلى الإسلام والإيمان، ذلك الإيمان الذي رفض عمر أنْ يرثه وراثة عن طاهر وسليمة، ورغم أنّه شكر الله كثيرا على أنّه وُلد مسلما، إلّا إنه عاش تجربة إبراهيم عليه السلام مع قومه في سورة الأنعام، لم يقتنع كثيرا في تفسير العلماء، أنّ الآيات تتكلم عن مجرّد حوار، بل كان يقتنع أن الآيات تكلمت عن رحلة إبراهيم في البحث عن الحق والبحث عن الخالق، وهو يعلم في قَرارة نفسه أنّ إبراهيم لم يعبد أحدا غير الله، إلّا أنّه سأل الأسئلة الكبرى، ووصل إلى إجابتها، مستعينا بالله الذي كان يسأل عنه أصلا وابتداءً، فسار عمر على ذات النهج، وحصل على إجابات شافية ووافية، فانتقل بِإيمانه من الإيمان الموروث إلى الإيمان اليقيني الذي لا يأتيه الشك ولا تأتيه الريبة.**

**ذلك الإيمان الذي صنع إسلاما قامت عليه الدولة العثمانية، فَسادت به الدنيا، تظهر آثارها بادية أمام عينيه وعيني أحلام، يتنقلون من معلم إلى آخر، يشهد لهم على ذلك المجد التليد، أنّه كان هنا يوما من الأيام سؤددا وحضارة.**

**شَاهدَا قلعة محمّد الفاتح (روملي حصار) وسَمِعا من الدليل السياحي كيف قام الجيش، المؤمن بِهدفه، المتوكّل على ربّه،**

بِنقل السفن برّا وأنزلها في مياه خليج القرن الذهبي، معلنين بذلك هزيمة الدولة البيزنطية بعد حصارها برا وبحرا، ورأى عمر رسومات ذلك الفتح العظيم وتلك السفن الضخمة في لوحات ورسومات قصر "دلمة بهجة" التي كانت بمثابة التوثيق الصوَريّ لتلك الفترة، كما التوثيق الصوَريّ لرحلتهما الذي تقوم به أحلام اللّحظة حبا وتاريخا، بآلة تصوير فاخرة من نوع (كودك) وقد وضعت فيها فلم "36" صورة يُحَمَضُ في مختبرات خاصة .

كم شعر بالحب المتدفّق والحنان الغالب يوم عبر مع أحلام الطريق المحاط بشجر الزيزفون نحو قصر "تب كابي"، فإرسال الحب على طبيعته دون تكلّف أرقّ وأحلى، والحب في حقيقته هو وحدة الوجهة ووحدة الهدف، وهناك حيث خالط الحب العز، وخالط الوجد السؤدد، لم يكن عمر يُمَيّز، هل هو وَجْدُهُ وهيامه بأحلام، الذي جعله يشعر بِذاك التسامي، أم أنّها غبطته برؤية باب السعادة في القصر والذي يفضي إلى "الحرملك" سكن الخليفة والأميرات، أم هو مروره بِقاعة مجلس الشورى الذي كان يُحدّد مصير العالم، أم أنّ السعادة والسموّ كان بِسبب قربه لأقل من متر واحد عن شعرات وعباءة الرسول صلى الله عليه وسلم، في متحف القصر، والتي ورثتها الخلافة العثمانية عَمّن سبقها كابرا عن كابر.

لم تكن الطبيعة التي رآها عمر في جزر الأميرات، وبورصة، وتل العرايس تقلّ في شاعريّتها، عن أحلامه التي كان يعيشها وهو شابّ، كانت عاطفته دائما تغلب عقله، ولم

يستطع أن يوازن تلك المعادلة إلّا بالمرور من عنق الزجاجة، زجاجة حبّه الأوّل الذي ذَكَرَهُ في الارتقاء، أصبح بعدها متّزنا، وربّما أحيانا أصبح عقلانيا أكثر من اللازم، إلّا أن سياحة كهذه السياحة ورفقة مع أحلام عمره أحلام، جعلت منه ذلك الشخص الذي سعى طاهر طويلا في صياغته، مُتوازنا رزينا، شأن التوازنات الكبرى في حياة الإنسان، كما هي في قوانين الأفلاك والذرّات، لا تتوازن إلا بعد فوضى ولا تسكن إلا بعد هياج.

سرح الفكر به بعيدا وهو يستمع لِموسيقى الحرب التي تعزفها فرقة "المهتر" والتي تحاكي فيها الموسيقى العسكرية وطبول الحرب وصيحات التكبير، التي كانت ترافق الجيوش العثمانية في جميع حروبها لِبثّ الحماسة في الجند، كانت طبول حرب وانتصارات، وأصبحت الآن فرقة استعراضية لا يسع السائح الزائر لإستنبول إلّا مشاهدة عرضها كلّ يوم ثلاثاء أو خميس في الساحة الأمامية لِقصر "توب كابي"، يلبس أفرادها عباءات حمراء قانية بِلون الدم، تنساب عن رؤوسهم عمامات لها أَذْيُل طويلة تصل إلى منتصف ظهورهم، مرصّعة بِقطع من الحُلي المُذَّهب، يرافقهم جنود بِلباس الحرب، ودروع مصنوعة من زرد الحديد، سابغات مقدرات في السرد، وآخرون ينفخون في الأبواق ويدقّون الطبول، مظاهر حرب بلا حرب، ورسوم دولة بلا دولة، وتاريخ بلا حاضر.

رَكِبا القارب في مضيق البسفور، تاركين إستنبول خلفهم متوجهين نحو البحر الأسود، ذاك البحر الذي سيكون لابنه صعب معه في قادم الأيام والسنوات أحداث جليلة أرعدت

**السماء لها وأبرقت، فليس بعد التسامي والارتباك إلا إرهاصات الموعد الأكبر وأفراح الروح والطوفان، لِيكون بعدَ القربانِ الرجمُ الأخير، ثم سكون التداعي، استعدادا للبداية.**

# همام وصعب (7)

**"تبان القلوب الراضية مُنذ نعومة أظفارها يا أحلام". كان همام بِكْرها، وكَباقي الأمّهات فإنّ لِلبكر كلّ شيء، فَهو أوّل الأمومة، وأوّل تجربة، وأوّل الحبّ، بِوُدِّ أحلام لو كان همام بؤبؤا تبقيه بِعينيها، فلا يرى إلّا ما ترى، ولا يخطو خطوة إلّا على مرادها، ولا يتكلّم كلمة إلّا على منطقها، أرادته الأوّل ، وربّته لِيكون الأميز، واستأثرت به ليكون لها وحدها، ونذرته لله يوم كان في بطنها، فلمّا غاب ... كتبت له :**

**"إلى الحبيب ابن الحبيب**

**إلى أقرب قريب**

**إلى من حَمَلْتُه وهنا على وهن وكرها على كره**

**إلى من رَجَوْت أن يحيا وأموت**

**وأن يشفى وأمرض، وأن يسعد وأشقى**

**إلى من علّمته سورة الكهف وهو ابن سبعة، وكنت كلّما قرأت عليه**

**( إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى)**

**رجوت الله أن يكون منهم، وكلما تلوت قوله تعالى**

**(إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا)**

**دمعت عيناي، متمنّية على الله أن تكون شجاعا مقدما**

**متأثّرة بِهؤلاء الفتية، أن تكون مثلهم لِشدّة إعجابي بِشجاعتهم وإقدامهم ودفاعهم عن عقيدتهم وتخلّيهم عن بَهارج وزينة الحياة الدنيا"**

**كان همام لِفرط شغبه، زعيما في الحارة زعيما في المدرسة، يتبعه صعبٌ كَظلّه في الشغب والصعلكة، تتقاطر الوفود على بيت عمر تشكي شغب الحارة التي يترأسها، شغبٌ لم يزد عن لعب كرة قدم في ساحة المسجد، أو جدال المصلين الناشدين الهدوء، وأحيانا السباحة في خزّانات مياه الجيران، وإشعال بعض الحرائق في الخِرَب والحشائش، أمّا المدرسة فقد حفظت جدرانُها عمر لِكثرة ما تردّد عليها لِحلّ مشاكل همام مع أستاذ الجغرافيا تحديدا، دون غيره من الأساتذة.**

**عمر : ما مشكلتك مع الأستاذ يا همام، كلّ يوم شكوى وكلّ يوم قصّة ؟**

**همام : لا أحب الجغرافيا يا بابا ولا أحب استاذ الجغرافيا، ولا أحب الخرائط ولا حتى الحدود.**

**عمر : وهل هذا عذر !؟ إن جاءت شكوى جديدة عليك فَسَأحرمك من مصروفك لأسبوع كامل.**

**يُغادر الصغير الغرفة مطأطئ الرأس، يظنّه عمر قد تاب وارتدع، وهو يخطط في نفسه للإنتقام من الأستاذ، وربّما من التاريخ والجغرافيا معا، باحثا عن صعب لِيحيك معه المؤامرة القادمة.**

**تذكر أحلام، وبعد وقت الإفطار بِقليل أثناء جلوسها بالمطبخ وهي تفرط الملوخية وتُجهّزها للغداء، أنّ صعب جاءها مُتسائلا : "ماما كم بقي لك حتي تصبحي عجوزة ؟" تعجّبت أحلام من السؤال ! "لماذا تسأل يا ماما ؟"."لأنّي لا أحب أن تصبحي عجوزة". فَردّت عليه : "ولماذا يا ماما ؟"." لأنّي لا أحب أن تصبحي بشعة". ضحكت أحلام ملئ فيها، وضمّته إلى صدرها.**

**كان صعب أصغر من همام بعدة سنوات، نصبيه من الأمومة والأبوة، نصيب كل طفل ترتيبه الوسط، فلا هو حظي بِخصائص الولد البكر وامتيازاته، ولا تنعم بِدلع الطفل الصغير، مما جعل منه عنيدا شرسا، ورافقه شعور المظلومية أينما حلَّ وأينما ارتحل، ورغم كل ما كانت تبذله أحلام من أجله، لِتخلّصه من هذا الشعور ومن هذه الحالة التي كانت تظهر على سلوكه في البيت والمدرسة والحارة، إلّا أنها باءت بالفشل فحدّثها عمر بذلك : "حظه ونصيبه يا أحلام، حظه ونصيبه" ولم تُجدي محاولاته بإقناعها أن تتكيف مع طبعه لا أن تعانده، ولم تقتنع أيضا بِقناعة عمر "أن الأخلاق توزع بين**

**العباد كما الأرزاق، كلٌ ونصيبه". فترد "بل هي التربية والتنشئة يا عمر". " لا تحملي أولادك على طريقتك يا أحلام، واتركي التباين يُظهر جمالهم، ولا تجعلي قوانينك الناظمة تُبدّد أحلام صِغارك الصغيرة".**

**لم يستوعب صعب كثيرا نصائح أمه بهذا الشأن، ربّما لِمستواها العالي على طفل صغير، وربّما لطريقة التلقين التي كانت أحلام تمارسها على صغارها، أو ربّما عن عمد منه وإصرار، حدّثته ذات يوم قائلة : "اعلم يا بُني، أن الذي تكتنفه رحمة الله يملك بها دنيا نفسه، فما عليه بعد ذلك أن تفوته دنيا غيره، وإن الذي يجد طهارة قلبه يجد سرور قلبه، وتكون نفسه دائما جديدة على الدنيا، وإن الذي يحيا بِثقة تُحيِيْه الثقة، والذي لا يبالي الهمّ، لا يبالي الهمُّ به، وإنّ زينة الدنيا ومتاعها وغرورها وما تجلب من الهم، كلّ ذلك من صِغَر العقل وضعف الإيمان، ولا يكون جمال الحقيقة إلا بِنفاذ البصيرة، وبالرضا يا صعب تُتوج نفسك ملكا، فالتحليق بسعادة لا يحتاج إلى أجنحة "...**

**زارت أحلام ذات مرة دار أهلها، وكانت جدة أحلام العجوز في ضيافتهم، فسلمت أحلام وهمام على الجدة، وعندما دخل صعب سلَّم وقال للجدة :**

**- كيف حالك أيّتها الساحرة الشريرة ؟**

لم تنتبه الجدّة لِما قاله صعب كَحال كبار السن يوم يأخذ الزمن حظّه من أسماعهم، وأحيانا بعضا من أفهامهم .. كتمت أحلام ضحكتها، وأمسكت صعب من يده وأدخلته إلى غرفة أخرى ووبّخته، فقال :

- آسف يا ماما، ولكن أين عصا الساحرة لم أراها مع تيتا !!

أفرجت أحلام عن ضحكتها المكبوتة، مستسلمة لِصعب كالعادة، والذي كسب جولة جديدة، أضافها إلى سلسلة انتصاراته على أمه وأبيه.

كان الشأن العام يُقلق همام رغم صغر سنه بِنفس القدر الذي كان هو يُقلق هذا الشأن في المدرسة والحارة، نزل هو وصعب مع أحلام إلى الحديقة، بعد حبس طويل بسبب البرد والامتحانات، كانوا يلعبون كرة القدم، وقد كان صعب فرحا جدا بسبب قدرته على التسديد وإحراز الأهداف رغم صغره وقصر قامته، كانت أحلام تجلس مع حماتها سليمة يتحدّثان في شؤون السياسة والحرب القائمة، فجاء همام مسرعا : "ماما أنا أقترح أن نبعث بقنبلة ذكية، ونقول لها اذهبي إلى فلسطين واقتلي اليهود حتى نُخلّص العالم من شرورهم " فَتبسّمت أحلام ابتسامة المفتخر بابنها الصغير عمرا، الكبير همّاً وتفكيرا، تُناظر بِنوع من الحسرة، صعباً المزهوَّ بِتسجيله النقاط تلو النقاط.

**ضربت أحلام همام ذات صباح ... فلم يغمض لها عين تلك الليلة**

**حدّثت نفسها وهي تتقلّب في الفراش، تقلّبَ الأرق القلق :**

**"ابني الحبيب همام، أحبك حبا لا أستطيع وصفه، لم أنم الليلة ولازمت الاستغفار بسبب ضربي لك ..**

**لكن يا قرّة عيني لم تمتد يديَّ عليك بغضا أو كرها؛ بل من فرط حبي لك واهتمامي لأمرك .. ولعلّك عندما تكبر ويصير لك أبناء - إن شاء الرازق عز وجل - تفهم ما أعني، وتشعر بِصدق كلماتي ...**

**أحبّك يا همام أحبّك**

**أدام الله ابتسامتك الجميلة وجمال وجهك الوضيء وجعلك من المبدعين المجاهدين في سبيل الله"**

**وبعد أن غاب، خَاطَرَتْهُ قائلة :**

**عذرا ... يا ولدي**

**فلم أكن أعلم حينها، أن باب السماء كان مفتوحا، وأنَّ أمنيات اليوم ستكون حقائق الغد ..... "**

# لماذا خلق الله الشرّ ؟ (8)

نزلت أحلام من الطابق الثاني إلى حديقة منزلهم الذي بُني على الطريقة الغربية الحديثة، فكان مغلقا من الداخل، مفتوحا من الخارج، تتصارع فيه الحريّة والخصوصيّة صراع الدِيَكة، فإمّا حريّة اللباس والتعرض للشمس والهواء العليل على حساب الخصوصية، أو الخصوصية وعدم التكشّف للجيران على حساب حريّة الحياة، فَنوافذ البيوت الحديثة أصبحت كّلها للخارج، في علب كرتونية لا ساحة لها ولا أرض ديار كالأيام الخالية تأخذ فيها النساء راحتها؛ لباسا وشَدْوَاً وحبا، وليس من متنفس لأحلام من هذا الكبت إلّا النزول إلى حديقة بيت حماها التي سقاها طاهر بِعرقِ جبينه وزرعها بِكَدّ يديه، حاكى فيها كَرْم والده حامد بيك، فزرع فيها العنب بِكافّة فصائله، والزيتون بِكافّة ألوانه، والصبر بِكافّة أشواكه، يظنُّ الناظر إليها أنّها نموذجٌ مُصغرٌ لِما تزرعه بلاده من شجر مثمر، فقد حَوَت - رغم صغر مساحتها - كلّ الأنواع واشتملت كلّ الأصناف، يستذكر فيها طاهر ذكرى والده، مستغفرا له ومترحّما عليه.

نَزَلَتْ أحلام؛ وقد احتدم النقاش بين عمر وطاهر، عمر مُتحمّس ثائر، وطاهر هادئ ساكن، متسلّقا شجرة التين

**الضاربة جذورها في حديقة المنزل يُناقش عمر بكلّ هدوء وتَوُّدة .**

**طاهر : أَرأيتِ يا أحلام إلى أسئلة زوجك ؟ يظن نفسه أوّل السائلين ورائد المكتشفين.**

**عمر : نعم يا أبتِ، فما رأيت أحدا يُجيب عن هذه الأسئلة من قبل، وها هي وغيرها تجتاح جيل الشباب، وقد تتالت علينا الهزائم والنكسات، فَشكّ الناسُ في دينهم وظنّوا بالله الظنون، ولو اعترف أصحاب المبادئ بِفشلهم وتنحَّوْا، لما شكَّ الناس بما يحمله هؤلاء من مبادئ سامية ورسالة خاتمة.**

**طاهر : أتظن يا عمر أنّنا ما مَرَرْنا بهذه الظروف من قبل ؟ ولم نسأل أنفسنا هذه الأسئلة ؟ ألم تعلم يا بُنيّ أنّ سؤالك هذا خضت فيه نقاشا طويلا مع عمّك يوسف - رحمه الله - قبل أن تولد بسنوات عديدة.**

**عمر : وكيف تترحّم عليه يا بابا !! رغم كل ما حدّثتنا به عن إلحاده وكفره.**

**طاهر : ألم يقل الله ( اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ )**

**عمر مستنكرا وقد بدأ صوته يتصاعد حِدّة : نزلت في المنافقين يا بابا، وأنت تستغفر للملحدين !!**

**كان يوسف وأصحابه الملحدين في نظر عمر، مجرّد ظِلال معتمة على صفحة من صفحات تاريخ المسلمين الغابر، لا وجود لهم في وقته الحاضر، وهو يرفض أن يذكرهم بِخير أو أنْ يترحّم على أيّ ميّت منهم، وكان هذا مصدرا وسببا من أسباب خلافاته المتعدّدة مع طاهر، خلافات الأبناء مع الآباء منذ القِدَمْ، لم يكن الفارق الفكريّ بينهما شاسعا، بقدر الفارق في الشخصيّات والطباع، عمر مُندفع صاخب، وطاهر هادئ لَيّن، فكان لِهذه الفوارق السيادة في التعامل مع الواقع والحكم على الأشخاص والأحداث، وأسبابا للنقاشات المحتدمة وتبعاتها.**

**تتدخّل أحلام في محاولة لتهدئة الأوضاع ونزع فتيل مشكلة آذنت بالظهور :**

**وما هي أسئلة يوسف يا عمّي التي كنت تناقشه بها ؟**

**يناولها طاهر حبة تين ناضجة مجيبا إيّاها بعد أن نزل عن شجرة التين : كانت أسئلته يا عمي**

**"لو كان ربك موجودا يا طاهر، فلماذا سمح للذين كفروا به النصر على الذين آمنوا به ؟ ولماذا ترك النساء والأطفال يُذبحون ولم يتدّخل ؟ ولماذا أعطى القدس لليهود ؟"**

**أحلام تغمز عمر لِكي يُهدّئ من أعصابه، وتستأنف النقاش مع حَمِيها طاهر : وبماذا أجبته يا عمّي ؟**

**طاهر : إنّ من أسباب فقدان الثقة بالله - عز وجل - يا عمّي، وانتشار الإلحاد مؤخّرا بين جيل الشباب ؛ هو الحال المتردي الذي وصلنا إليه، والهزائم المتتالية، والمجازر المروّعة، وفشل التجارب القومية واليسارية، والإسلامية على إثرها، "والحبل على الجرار"، والقادم أدهى وأمر، فَبرز سؤال الشباب :**

**لو كان الله موجودا لماذا سمح بكل هذا ؟؟ وبمعنى آخر لماذا خلق الله الشرّ ؟**

**فأجبتهُ ملخصا نقاشا طويلا بيني وبينه آنذاك :**

**إن وجود قوّة عظمى مطلقة وراء خلق الكون والقيام على شؤونه، شُرِطَ لها أن تكون كاملة لا يعتريها النقص، وبغير ذلك فإنّها تهبط إلى قوّة محدودة لا تستحقّ وصف الخالق، وتُعرف هذه القوة بصفات الجلال والكمال، وليس كمثلها شيءٌ مُدْرَك، ومن أوجه هذا الكمال، أنّ هذه القوّة تحكم ولا مُعقّب لِحكمها (وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ) والله - عز وجل - وضع لهذا الكون القوانين والسنن التي يسير عليها، ولا رادّ لهذه القوانين الكونية والاجتماعية ولا مُعقّب عليها، ولو لم تكن هذه السنن نافذة، لَبطلت قدرة وحكمة واضع هذه القوانين.**

**فانظر إلى الحُكَّام أيّهما أقوى ؟ النافذة قوانينه لا يحابي بها أحدا، أم واضع القوانين التي ليس لها على الواقع أي تطبيق أو أثر نافذ ؟**

**أحلام : بالتأكيد النافذة قوانينه.**

**طاهر : إنّ الله - عز وجل - لم يُحابي رسوله محمّد - صلى الله عليه وسلم - يوم خالف الصحابة سنن النصر في معركة أحد، وسَرَت قوانينه على محمّد قبل أن تسري علينا هذه الأيام، وما سبب ما نحن فيه إلّا مخالفة هذا القانون، فالله - عزّ وجلّ - جعل أسباب التمكين متاحة لكلّ البشر، إنْ أخذ بها الأعداء تَمَكَّنوا وإن تركناها هُزمنا، فهي سواءٌ لنا ولعدونا.**

**عمر : صحيح، فسنن الله غلَّابة.**

**طاهر : إن البعض منا عندما هُزمت الأمّة وحلّت بها المجازر، فقد ثقته بالله بدل أنْ ينظر إلى مخالفته للقانون الرباني.**

**أحلام : والله يا عم أنّنا لا نرضى بهذا العجز لأنفسنا، فكيف نرضاه لله.**

**طاهر : صدقتي يا أحلام، ولم ولن ننتصر ما دُمنا نخالف القانون، ولو كان معنا كل صحابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وحتى لو تكلّمنا بِاسم الإسلام وزعمنا أننا نمثّل**

**المسلمين، ومن ذلك طلب الشفاء دون علاج، أو طلب الطعام دون سعي .**

**أحلام : إذاً يا عمّي، الانتصار مع مخالفة السنة الربانية والقانون الإلهي؛ أدعى للإلحاد من سريان قانون الخالق علينا بالهزيمة.**

**طاهر : أحسنت يا عمي.**

**عمر : حِكَم والله يا بابا، يسلم فمك.**

**طاهر : فَسبب هزيمتنا حبنا للدنيا وكراهيتنا للموت، وليس عدم وجود الخالق أو عجزه ...**

**توقّف طاهر قليلا وهو يتذكر تلك الأيّام، أيّام عزّ الدين ويوسف، وسطوة والده الطاغية على البيت، عادت به مخيّلته لِأرض الديار ونقاشاتها، ولِخزانة والدته التي تسلّقها كثيرا، وشجرة التوت التي سَكِرت وتَمِلَتْ بِخمر أخيه مِرارا، وترحّم في نفسه على الشيخ علي ...**

**عمر : أين سرحت يا بابا ؟**

**طاهر مُتداركا : وختمت نقاشي مع عمك يوسف يا عمر بقولي :**

**"فَمنكم من هرب للسُكر والعربدة كعز الدين، ومنكم من هرب للكفر والإلحاد، فلا تلوموا الله على هزيمتكم يا يوسف، ولوموا أنفسكم"**

# الأغلال

# الارتباك (1)

**عمر : "إذا ما عكرت ما بتصفى"**

**طاهر : والله شايفها ما رح تصفى بعد هذه الأحداث.**

**أحلام : الله يسترنا.**

**همام : الله يسترنا من ماذا يا ماما ؟**

**أحلام : "ما ظل الخم غير ممعوط الذنب"، وماذا يهمك يا ماما، خلّيك بألعابك.**

**طاهر : انظر من المستفيد تعرف من الفاعل.**

**أحلام : ومن المستفيد يا عمي ؟**

**طاهر : ربما الصِّرْب، انتقاما لحرب أمريكا عليهم.**

**أحلام : سمعت عن جماعات يابانية، ربما تكون هي، انتقاما لهورشيما ونكازاكي.**

**عمر : لكل فعل ردّ فعل مساوٍ له بالقوة معاكس له بالاتجاه.**

**طاهر : صحيح.**

**عمر : وأعداء أمريكا كُثُر، ومظالمها كثيرة عند الشعوب والأمم.**

**أحلام : ولماذا لا تكون أمريكا هي من فعلت ذلك بنفسها، لتجد مبرّرا لشنّ حروب جديدة تُحقّق فيها مصالحها.**

**عمر : نظرية المؤامرة، أسهل تفسير.**

**طاهر : أمريكا يا عمي، لا تحتاج إلى مبرّر بهذا الحجم حتّى تشنّ حروبها، ألم تعرفي أنّ الحروب تبدأ بأشياء أبسط من هذا بكثير.**

**عمر : صدقت يا بابا، وهي لا تحتاج أن تمسح بكرامتها الأرض حتّى تجد مبرّرا لحربها القادمة، وبإمكانها أن تكتفي باغتيال سفير هنا، أو تفجير صغير هناك، دون أن تمسّ هيبتها في رموز سيادتها من وزارة دفاع وكونغرس وأبراج مباني التجارة.**

**أحلام : سَيلصقونها بالمسلمين الآن.**

**طاهر : ولماذا تفترضي براءتهم.**

**عمر : كلّه وارد.**

همام يرفع يديه جانبا ويصدر صوتا كَهدير الطائرة ويركض مُتمايلا ذات اليمين وذات الشمال، مقّلدا لمنظر الطائرات التي رسخت بِذهنه وهي تصطدم بالأبراج، ويَقذف بِنفسه على بيت صغير شَكّله أخوه الصغير صعب من قطع "الليجو"، فَيصرخ صعب صراخا صمَّ آذان الحاضرين، لا ألماً من قوة الإصطدام، ولكن حسرة على تعب يديه الذي دمّره همام، باصطدام واحد.

تصرخ أحلام بهمام، وتحمل صعب بين يديها، قائلة بالإنجليزي للحاضرين وهي تُشير إلى همام : "هي إز فيلنج جلس"، وتخرج به خارج الغرفة.

سليمة : الله لا يردهم، شربوا من نفس الكأس.

عمر : وماذا تتوقع يا بابا بعد هذه الأحداث ؟

طاهر : هي من الحجم بمكان بحيث تؤدّي إلى ما هو أعظم وأخطر.

أحلام وقد عادت بعد أن أسكتت صعب بقطعة شوكلاته : وما هو الأخطر والأعظم يا عمي ؟

طاهر : إن التاريخ يا عمي، يسير على نسق مُتّزن ضمن القوانين التي وضعها الله له، وسنن التاريخ غلّابة، تكرّر نفسها إذا وجدت الظروف الموضوعية نفسها، وأمثلة ذلك كثيرة.

**عمر : حادثة "بيرل هاربر" التي دمّر فيها اليابانيون الطائرات في الميناء الأمريكي مثلا، وما نجم عنها من دخول أمريكا في الحرب العالمية الثانية، والتي انتهت بإلقاء القنبلة الذريّة على هيروشيما وناجازاكي.**

**طاهر : وحادثة قتل فرانز فرديناند - وريث عرش الأمبراطورية النمساوية المجرية - الذي أدّى اغتياله على يد الصربي غافريلو برينست في يوغسلافيا إلى إشعال فتيل الحرب العالمية الأولى.**

**أحلام : يعني نحن الآن أمام حرب عالمية ثالثة.**

**عمر : بلا شك.**

**طاهر : نسأل الله العفو والعافية.**

**عمر : الله يستر ؟**

**أحلام : وما العمل يا عمي ؟**

**طاهر : ننتظر ونرى.**

**عمر : كما قلت لكم، "إذا ما عكرت ما بتصفى"**

**طاهر موجّها كلامه لأحلام : وهل تعرفين معنى المَثَل يا عمّي وأصله ؟**

**أحلام تَهُزُّ رأسها بالنفي : أخبرنا يا عمي .**

**طاهر : طبعا يا عمي أنتِ مَدَنيّة، وما أدراك بشغل الفلاحين، إن الراعي إذا أراد أن يسقي الغنم من حوض الماء، وكان الماء مليئاً بالقشّ والأوساخ، قام بتحريك أرضية الحوض بأرجله وتعكير الماء بالتراب المترسب، ثم ينتظر عليه قليلا، فيبدأ التراب لِثقله بالنزول إلى أسفل الحوض وقد علقت به كل الشوائب، فَيصبح الماء بعد ذلك صافيا، لذلك قيل "إذا ما عكرت ما بتصفى"**

**عمر : وهذه الطريقة تستخدم بأجهزة تنقية الماء الحديثة، حيث يمررون الماء على فلاتر من تراب وأحجار صغيرة، فيخرج الماء بعد ذلك صافيا.**

**أحلام وهي تنظر بشفقة إلى همام وصعب : الله يحفظنا ويحفظ أولادنا.**

**سليمة : هذا إذا بقينا عايشين لهذه الفترة.**

**طاهر وهو لا يعلم أن ذلك سيكون : يا ريت يومي قبل يومك، الله يطول عمرك يا سليمة.**

**سليمة : الله يطول عمرك يا طاهر.**

**عمر : كلّه مكتوب ... كلّه مكتوب.**

# الإرهاصات (2)

## الأول من أيار

**من أحلام إلى عمر الذي خرج باحثا عن درب القدس قبل أكثر من مئة يوم :**

**مئة يوم من الفراق وكأنّها مئة عامٍ، وأنا أعاني فقدا شديدا ولوعة لا أجد كلمات تصفها، وفراغا باردا يَلُفُّ قلبي وكأنّه الجليد.**

**عمر، أفتقد احتفالك بي - كما يسميه همام - على مائدة العشاء، وأفتقد لسانك العذب ... وبسمات الصباح، أفتقد صوتك وأنفاسك تملأ البيت، أفتقد أصابعك تضغط على يديّ، أفتقد وجودك وتَرْبيتَك على كتفي، أفتقد من أبثّه أحزاني وأوجاعي وهمومي، وأفتقد ... قهوة الصباح.**

**تُرى هل تفتقدني ؟**

**لمن تشكو حزنك وتعبك ... يا حبيبي ؟ لمن تبثّ حزنك وألمك ؟**

**لكنّه قدر الله جارٍ، فَمن رضي فَلَهُ الرضى، ومن سخط فَلَهُ السخط، ووالله إني أشهدك يا رب ثم أشهد حملة عرشك بأني رضيت، فَلَكَ الحمد كلّه حتّى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت،**

**ولك الحمد كلّه بعد الرضى، وحسبي الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم، الذي يعلم ما في نفسي وقلبي من براكين، فهو خير أنيس وهو السميع البصير.**

**فَيا ربّ إنّك تعلم ما أجد من الوجد، وتعلم ما حلّ بي من فاقة لِمفارقة الحبيب عمر، وتعلم أنه قد ضاقت بي الأرض بما رحبت لِفقدي الأنيس، ولكنّي يا لطيفاً بحالي، أشهدك بأنّي وجّهت وجهي إليك وألجأت ظهري إليك، وأسلمت نفسي إليك، فأنت يا رب ركني الشديد الذي آوي إليه وأنت حسبي ووكيلي، فَأعنّي وأكرمني وارعني بعينك التي لا تنام، واصنعني على عينيك يارب، رغم ضعفي وتقصيري.**

# كرامات (3)

## الأول من أيار

### من عمر إلى أحلام

جلسنا مع ذاك الشيخ الصوفيّ في مجموعتنا في المهجع المُقَسَّم إلى أربع مجموعات، يرأس كل مجموعة شاويش، يحدّثنا عن رجال الله ؟؟ وهم على حسب ادّعائه أولياء الله الصالحين !! أصحاب الكرامات والقدرات الخارقة !! الذين إن استغثتَ بِهم وأنت في الصحراء بلا طعام ولا شراب، أغاثوك من فورهم، فَما كان من أحد البسطاء من أفراد مجموعتنا إلّا أن قال مستبشرا " يا شيخ ... ادعو لنا رجال الله حتى يُخرِجونا من جحيم هذا السجن " فَبُهتَ الشيخ وانتهى الدرس.

يتابع عمر رسالته إلى أحلام مُحدّثا نفسه، قابعا في السجن، وقد مضى على خروجه من أرض الوطن ما يقارب المئة يوم : لم يبق لي من ذكرى زوجتي الحبيبة أحلام إلّا خاتم أهدتني إياه قبل الخروج بيوم واحد، اشترته لي خصيصا لهذه المناسبة، لِأتذكّرها وأنا في طريقي الجديد سائر، فَكان صلة وصلنا في هذه الأيام العصيبة، أفركه فرك علاء الدين لِمصباحه السحري، فَتحضر في مخيّلتي ماثلة، أتذكّر كلماتها الأخيرة قبل الانعتاق : "امض يا عمر إلى نصر مجيد، ابحث عن القدس ولا تلتفت للوراء أبدا، والله معك في طريقك، وهو معي في مصيبتي" وقد تمكنّتُ من تهريبه إلى داخل السجن بصعوبة، أمّا صورتها

**وصور همام وصعب، فَقد بقيت في المحفظة مع الأمانات عند إدارة السجن.**

**دائما أمسك بالخاتم وأتأمّله، وأتذكّر أيّاما جميلة خَلَت معكِ ، كنّا نعيش فيها حياتنا كَباقي الناس زوجين سعيدين لا ينقصنا من مُتَع الحياة شيء؛ أولاد، بيت، عمل، أهل وعشيرة، ومكانة بين الناس، حتّى رأيت بِعيني الأهوال وسمعت بِأُذني الصرخات.**

**ما الذي دهاني ؟ لماذا أنا هنا بعيدٌ عن الأهل والأحباب ؟ ماذا يفعل همام وصعب من بعدي ؟ من يوفّر لهم الأمن والأمان ؟ من يطعمهم اذا جاعوا ومن يداويهم إذا مرضوا ؟ أين أبوهم الحنون ؟ وأين هو عن أحلام التي كانت تملأ عليه حياته ؟ ماذا دهاك يا عمر !! ماذا دهاك يا عمر !!.**

**وساوس تدور برأسي أدفعها بالذكر والصبر والرضا "أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ" هذا هو الابتلاء الذي كنّا نعرفه نظريّا، ولم نمارسه عمليا، فالأمر جدّ وليس بِهزل، إنّها القدس يا عمر، إنّها القدس، فالأمر ليس أمر كرامات ولا أماني، بل هي سنن الله الغلابة، فطريق القدس أوّله عِلم وأوسطه أهوال وآخره نصر وتمكين.**

# الموعد الأكبر (4)

## عودا للوراء مئة يوم

## التاسع عشر من كانون الثاني

**عمر**

**إنه يوم الموعد الأكبر، أتخرج ؟؟؟ أترحل ؟؟؟**

**يشهد الله أنّه لا طاقة لي على هذا الأمر، ولكن الله المستعان، نار تحرق جوانحي، وقلبي ينوح نواحا لا يعلم به إلّا خالقه، استيقظت منتصف الليل، وصلّيت ركعتين، وشرعت في كتابة الرسائل الأخيرة للوالد والوالدة والأهل، لم أدرك قبل هذه اللحظة ما معنى الإيمان الذي يلامس شِغاف القلب، ولم أدرك معنى الهجرة، أدركت وأنا أكتب رسائلي الصغيرة معنى "ما صدَّقه العمل"، وكم أنّنا بعيدون عن القدس حين نتمنّى على الله الأماني.**

**أحلام تعكف على كتابة رسالتها الأخيرة، أراها وهي تحبس دمعتها وتتماسك؛ خشية أن تُثنيَني عن موعدي الأكبر مع مغيب الشمس، فَهي الوحيدة التي تعلم نيّتي، كنت أتجنّب النظر في عيونها خوفا من انهيار مفاجئ يعرقل استعداد أشهر طويلة مُتعبة، كنت أستعدّ فيها لهذه اللحظة، وقد حضرت.**

**بكيت دما وأنا أستعدّ للخروج، همام وصعب لا يعرفون شيئا، الوالد طاهر ووالدتي سليمة غافلون عن فعلتي، قبّلتهم القبلة الأخيرة، وقبّلت أحلام على رأسها، قائلا لها " إنّ الدنيا لا تساوي عند الله جناح بعوضة يا حبيبتي" ونظرت النظرة الأخيرة، وكان ماكان، وما أصعب ما كان.**

**خرجت، أقفلت الباب خلفي، يا الله، يا لطيف، يا رحيم، يا ربّ ما أشدّ هذه اللحظات، وكأنّ الزمن توقّف، لحظة تدرك بعدها الحقيقة، ويتبادر إلى ذهنك السؤال الكبير، سؤال صلاح الدين، وسؤال قطز، وكل من سار في طريقهما نحو القدس : من تحبّ اكثر يا عمر ؟ الله أم سليمة وطاهر وأحلام وهمام وصعب ؟؟؟**

**إنّ أصعب المراحل هي الخروج والانعتاق، فلا نهوض بِغير انعتاق، ولا أمّة بِغير تضحيات، إنّها مخاض الولادة، ولادة الروح الجديدة، والأمّة الجديدة، إنّها الحريّة، حريّة الاختيار التي ابتلانا الله بها، إنّها قدس الأقداس، وقد غلى مهرها.**

# هل عندك أولاد ؟ (5)

**الثالث من شباط**

**من عمر إلى أحلام**

**انتهى بنا التطواف يا حبيبتي إلى بيت متواضع على الحدود مع اليهود، تُطلّ شرفته على تُخوم الأرض المقدسة، تستضيفنا فيه أمّ أحمد وأولادها الكرام، كأنّنا نزلنا عليهم من السماء، بيت كرم وعزّ، ترحيبٌ وحسن ضيافة، كانت الخالة أمّ أحمد تغافلنا، وتأخذ ملابسنا، حتى الداخلية منها وتغسلها، وقد دُقّنا عندها طعاما لم نذق مثله في بيوتنا، نذرت نفسها وأولادها وبيتها لله.**

**وفي اليوم الموعود، استأذنتنا أمّ أحمد لتجلس معنا قبل العبور، فَهي لم ترانا بعد، امرأة فاضلة كبيرة في السن، أرادت أن ترى المجاهدين - ولسنا كذلك بعد - بِأمّ عينها، جلست معنا، تفحصت وجوهنا، بشر عاديّون بل أقل، سألتني بعد حوار بسيط :**

**- هل عندك أولاد ؟**

**أخرجتُ لها صور فَلَذات كبدي؛ همام وصعب، من محفظتي، دمعت عينها وهي تنظر إلى صور أطفال صغار، وقالت باستغراب : "كيف تركتهم ؟!" حبست دمعتي وتحشرج**

**صوتي وأنا لا أجد كلاما أجيبها به إلّا : ( فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ )**

**حنانيك يا خالة لا تُثيري مواجعي، حنانيك يا خالة ...**

**يا من لا يعرفك أحد، يا من خاطرت بِنفسك وبَنيكِ لله - عز وجل -، إنّ الإعلام و الفضائيات، التي لا يصلك بثّها، لا تعرفك، إنما تعرف العلّامة الفلاني والمفكّر العلّاني والحَبْر السمين.**

**حنانيك أمّ أحمد ... لقد كذبوا عليك وقالوا عن الذين آويتهم في بيتك أنّهم مجرمون، كذبوا يا أمّ أحمد ... إنّ الذين في بيتك من العابرين إلى الأرض المقدسة ... هم أرحم الناس ... وأرقّهم شعورا**

**حنانيك يا أمّي ... حنانيك أمّ أحمد، إنّه الطريق إلى القدس يا أمّي، فأنا منذ زمن أبحث عن الإجابة : لماذا لم تعد القدس بعد ؟؟ لا بُدَّ من جواب رئيسي واحد، لم أعرفه بعد، لكنّي عرفت أنَّكِ من لَبِنَاتِ بناءها، وأنتِ هنا في غياهب النسيان لا يعرفكِ أحد، وما ضرّك إنْ جهلك كل الناس، وشهد عملك ربّ الناس.**

# يا أغلى من روحي (6)

**الثالث من شباط**

**من أحلام إلى عمر**

**لا أجد كلمة أصف فيها منزلتك في نفسي**

**حبيبي ... لا فأنت أغلى من ذلك**

**روحي ... لا فَأنت أعزّ من ذلك**

**قرّة عيني ... لا فأنت أعلى من ذلك بكثير**

**لو تعرف ما حلَّ بي بعد رحيلك، فوالله إنّي لأشعر بشعور غريب لم أشعر به في حياتي، حتّى بعد وفاة والدي على معزّته ومكانته في قلبي، أشعر بفؤادي خاليا، وكأنّي بأمّ موسى أمامي، أشعر بأنّ فؤادي أصبح هواءً، قدماي لا تستطيع حملي بعض الأحيان من شدّة ما أجد، ولولا لطف الله وكرمه، وربطه على قلبي، وتثبيتهُ إيّاي لَتردَّيت بِنفسي من على شواهق الجبال.**

**ولكنّي لا أقول إلّا ما يُرضى ربّي، فَرضاه أرجو وعفوه**

**ولقاءٌ معك في الجنة**

# الوهم (7)

**العاشر من شباط**

**من عمر إلى أحلام**

**شدّة الارتطام بِصخرة الواقع أيقظتنا من حلمنا الجميل عن القدس، فَقوَّات الأعداء تحيط بنا من كلّ جانب، لَقد وقعنا في الأسر يا حبيبتي، لم تخطر بِبالي على هذا الشكل، كنت أُحلّق في برج عاجيّ، وظننت أن الأمر بسيط، نُودّع الأهل، نُهاجر في سبيل الله، نقاتل اليهود، ننتصر عليهم، ونعيد القدس والسلام !!!!!**

**لكن الأمر أكبر من ذلك بكثير، فَأمام القدس في قادم الأيّام من الأهوال ما يشيب له الولدان، كرّ وفرّ، تقدّم وانحياز، غدر وخيانة، ومخالفة وخذلان، كفر ونفاق، ورِدّة وعمالة وبغي، وتوقّف في منتصف الطريق.**

**إنّ عودة القدس لِحضن التوحيد والإسلام عنوان لِعودة البشرية جمعاء إلى حقيقة وجودها، إنّها إعادة حمل الأمانة التي نأت عن حملها الجبال يا أحلام، إنّها التي سَيخبو تاريخ صلاح الدين الأيوبي وقُطُز أمام أحداثها، إنّها حديث الملأ الأعلى وطريق الأنبياء، ولكنّنا نستعجل، والأمّة الآن في مرحلة الأهوال على الطريق إلى القدس.**

**وكان قَدَرنا في هذه الملحمة الأسر، ليأخذ الله فيها من عباده ما يشاء، قبل أن تسير الظَّعينة من أين ما شاءت إلى القدس، لا تخشى إلا الله والذئب على غنمها**

**أوّاه قُدسي ... على مرمى حجر يا حبيبتي، أوّاه قُدسي ... أصبحت مثلك أسيرا، أوّاه ... فَذنب كذا في يوم كذا منعني عنك، أوّاه قُدسي الحبيبة ... جِئتك طوعا ومُنعتُ عنكِ قسرا**

**رُمتُ ماءك وهواءك، رُمتُ أرضك وترابك، رُمت القبّة الذهبية والمسجد العتيق، فانتهى بي المطاف مكبّلا بالأغلال، الإخوة على الضفة الأخرى خلف الحدود في القدس ينتظرون القادم، الذي لن يأتي، فقد رُمي كما تُرمى البهائم بعد رحلة طويلة من سجن إلى سجن، لِيستفيق من حلمه الوردي الجميل عن القدس**

**على وقع سَجَّان ... عتلّ زنيم**

# أفراح الروح (8)

**السابع من أيلول**

**من أحلام إلى عمر**

**تستهلّها بكلمات لسيّد قطب :**

**"إن الكمّ ليس هو الذي يرجح في الميزان ... ولكنّه الباعث وما يمثله من حقيقة الإيمان ... إن الذي ينفق ويقاتل والعقيدة مطاردة والأنصار قلّة وليس في الأفق ظلّ منفعة ولا سلطان ولا رخاء ... غير الذي ينفق ويقاتل والعقيدة آمنة، والأنصار كثرة، والنصر والغلبة والفوز قريبة المنال ذلك .... متعلّق مباشرة بالله، متجرّد تجرّدا كاملا لا شبهة فيه، عميق الثقة والطمأنينة بالله وحده، بعيد عن كلّ سبب ظاهر وكل واقع قريب، لايجد على الخير عونا إلّا ما يجده مباشرة من عقيدته، وهذا .... له على الخير أنصار حتّى حين تصحّ نيّته ويتجرّد تجرّد الأولين " سيد قطب**

**أبا همام**

**لقد كنت وما زلت رَجُلي الكامل، بِكلّ ما فيك، ملأت روحي وسكنت قلبي، كنت أرى فيك رجلا لا كالرجال، إذا قُلت فعلت، وإذا وعدت أوفيت، وإذا عزمت أمضيت، وقد كنت أعرف من البداية أنّ الكلمة في نفسك لا كما هي في نفوس الرجال،**

**فالكلمة ما تزال في نفسك حتّى تصبح حدثا وها قد أصبحت، ولعلّ قدري أن أكون أنا شريكتك .. لأتحمّل نتائج الأحداث، ولكنْ عزائي في ذلك أنّني عشت معك أجمل وأبهى سنوات حياتي وأيّامي، وإنّي لأرجو من رحمن السماوات والأرض أن يُثبّت أجرك وأجري، ويقدّر لنا خير الدنيا والآخرة حيث يعلم اللطيف بحالنا ولا نعلم، ونحن الفقراء إلى لطفه وَوُدّه**

**بقي الكلام يعمل في نفسك عمله ويدفعك إلى معاينته دفعا حتى حدث ما حدث**

**فالكلمة في الذهن، لتوجد الحادثة في الدنيا.**

# طلائع الأحرار (9)

## السابع من أيلول

**من عمر إلى أحلام**

**إنّهم لا يُروَّضون، رضعوا العزّة من أُمّهاتهم، ورثوا الكرامة كابرا عن كابر، كيف لا ؟ وهم خير الأعراق، اختارهم الله لِحمل الرسالة، أحفاد الصحابة، وأبناء إسماعيل عليه السلام، إنّهم العرب الأقحاح من جزيرة محمد - صلّى الله عليه وسلم - أنعم بِهم وأكرم.**

**هم في سجون الأعداء يعاينون الأهوال يا أحلام، خمسون شخصا مكدّسون في غرفة أبعادها أربعة أمتار بأربعة أمتار فقط، يأكلون وينامون ويتغوّطون، ثلاثة أرباعهم ينام كَما تُعلّب الأسماك في علب السردين، بما اصطلح على تسميته ب "التسييف"، رأسك ملتصق بِأرجل جارِك، ولا يفصل عورتك عن عورته إلّا قماش ملابسك المنتنة ، والربعُ الباقي يسهر إمّا في الحمّامِ أو فوق الرؤوس النائمة أو عند بوّابة المهجع السوداء، فَلا مكان هناك للنوم ولا للآدمية، فالحيوانات في زرائبها أعزّ وأكرم من البشر في هذه السجون، وفي النهار تختلط أعضاؤك وأطرافك مع الأخرين، فَلا خصوصية هنا ولا ما يحزنون، حتّى الفراغ بين أعلى فخذيك وأسفل عورتك مشاع، تجد فيه رأسا أو يدا أو قدما لا تعرف لِمن تعود، ولا**

**تملك فعل شيء، فَأنت تنعم بإنسانيّتهم الكاذبة، التي لا تراها إلّا في الإعلام وفي المحافل الدولية.**

**صمت قبور رهيب يا حبيبتي، لا تسمع إلّا همسا، الكل يُنصت، فَصوت تعذيب أحدهم يصل إلى مسامعنا، يُمزّق سكون الرعب، فَشعريرة تسري في الأبدان كأنّها الموت الزؤام، جُنَّ أحدهم بعد التعذيب عندما علم أنّ ابنته في مهجع النساء طُلبت للتحقيق، فَظنّ أنّها سُتعذب مثله، وخرجنا من سجننا القصير قبل أن يعود إليه عقله الذي ذهب أدراج الرياح مع بُنيّته الصغيرة.**

**شَخَصَت الأبصار، فقد فُتحت بوّابة المهجع السوداء، أزيز حديد صدئ، وخراف تنتظر الذبح، كَخراف الأضحى تساق إلى حتفها، لِمن العيد اليوم، لِمن العيد اليوم، قرابين على مذبح السلام، ووسطية الانهزام، قادتنا، ساستنا، أحبارنا، شيوخنا، رهباننا، أحفاد بلعام بن باعوراء، بل آباءه وأجداده، أعدّوا أجوبتكم ليوم النبأ (لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ) وسوف تعلمون.**

**متى نصرك ياربّ ؟ متى نصرك ياربّ ؟ لقد عتى الطغاة عُتوّا كبيرا، مُلئت السجون بالأبرار ياربّ، ألم تغضب لعبادك يا ربّ ؟ ألم تغضب ؟ إنَّا نجأر إليك، نتوسل إليك، ارحم إخواننا وأخواتنا، نرجوك نرجوك، ارحم ضعفنا، وارحم ذلنا، وارحم قدسنا، يا أرحم الراحمين، يا منتقم يا جبار، الأمر إليك من قبل ومن بعد، نصرك الذي وعدت، نصرك الذي وعدت.**

**صوت أذان الفجر، الله اكبر ... الله اكبر ... لا إله إلّا الله ...**

**يُرفع في أقبية السجون، رغم أنف السجانين، فَبَعد إضرابات السجون، التي سالت فيها دماء طاهرة، وزأرت فيها أُسود ضارية، تغيّرت الأحوال، فالأذان يُرفع بِصوت عالٍ يسمعه الخنزير الزنيم مدير السجن، والصلاة تقام جماعة داخلَ كلّ مهجع، ومصحف بِيَد كلّ سجين، وعمر مُؤرَّقٌ جَفنه، يرنو إلى الأفق البعيد، فَرغم قيده، هو حرّ بِروحه، يسيح في ملكوت الله، يرتّل آيات الأنفال، وينتظر اليوم الذي تسجد فيه جبهته، عند نهاية الطريق**

**في القدس الشريف.**

# ردغة الأغلال (10)

**الرابع من تشرين الثاني**

**تراءى لي جواب السؤال الذي أرّقني منذ زمن عن القدس مع أوّل إطلالة لِبيتنا بعد رحلة الإفراج الطويلة، نبضات قلبي تتسارع، ومشاعر مختلطة تجتاحني، هل أنا في حلم أم في علم ؟**

**نسمات الوطن، أرضه ... ترابه ... وهواؤه العليل، أمتار قليلة تفصلني عن ماضٍ إليه أحنّ، طفولة بريئة ... لعب ... ولهو.**

**كلّ خطوة أخطوها نحو منزلي على رأس الجبل .. تبعدني أميالا وسنوات عن جحيم السجن ... وأبتعد معها عن الأراضي المحتلّة ... وعن قُدسي الحبيب ... وعن المجهولة صاحبة النَقب أم أحمد، وأقترب إلى أفراح الجسد والطين مع موعدي الأصغر.**

**غريبا أمشي بين البيوت وبين الناس، غربة لا يعلمها إلّا واحد أحد، أبترأ عن أحلامي وآمالي.**

**والدي طاهر، الجبل الأشمّ، يحبس دمعته و يكتم مشاعره التي تكاد تهوي به كظيما، الأخوات تجمّعوا للقاء حبيبهم الحنون الذي غاب منذ زمن، والدتي الحبيبة سليمة لا تصدّق**

**ما ترى، لقد عاد إليها ابنها بعد طول سهر وسهاد، وليالٍ قضتها وهي تدعو أن تضمّني إلى صدرها من جديد، لقد استجاب الله لها، وتحقّقت رؤية خالتي ليلى التي رأتني "أركض بعيدا وأمّي تمسك بطرف ثوبي لم تفلته" حسبي الله ... لم تفلته، لقد عدت يا أمّي لقد عدت، لقد عدت وعادت أحزاني من جديد.**

**ويح قومي**

**ويح قومي لايشعرون بي، ويحهم يجرّوني إلى الطين، وروحي تأبى عَلَيّ، يقتلني شوقي، وتذبحني أشجاني، ويتردد في أذني قولهم القديم "هَوّن الأمر لا تُجن" وأنا "المُوَرّق جفنه يرنو إلى الأفق البعيد، طال اشتياقي للضياء ويقظة البطل الشهيد" و"حامل بين أضلعي لوعة من لظى الشجن" .**

**لم يكن من السهل عليَّ أن أطير وأُحلّق بعيدا، لكنّ الطائر الذي سما و ارتفع وقع من جديد**

**أوّاه، أوّاه**

**أوّاه .. يا أحلام**

**تقف خلف همام وصعب اللذان ركضوا يتسلقونني، شاحبة حزينة وقد عاد إليها مرضها القديم وقد أجّجته المحنة، تنظر إلى عينَي شِبْه رجل هزيل تعاهدا معا، أحبّها وأحبّته، ونسجا معا قصّة وفاء نما كَغصن وردة بيضاء، رَوَته مودّة ورحمة،**

**حتّى اشتد عوده وأزهر، فَضُرب به المثل، تنظر مذهولة، لا تعلم ما يعتصرني من آلام، وماأرنو إليه من أحلام.**

**وقعت في الأسر من جديد يا أحلام، جسد طليق، وروح أسيرة، ويحها يا أحلام، ويحها من أغلال، ويحها من أغلال، كبَّلتني من جديد، لِتعود القصّة حيث بدأت، ولِأكتبها بالحبر لا بالدم.**

**فَمتى نكسر القيد من جديد يا أحلام ... وننعتق**

# النـهوض

# بُشرى الرحمن (1)

احتار الراوي كيف يصل إلى اللحظة التي وُلِدت فيها بشرى، فَبشرى لها مكانة خاصّة عند عمر، ولم تكن ولادتها حدثا عاديّا كَباقي الأحداث، لقد كانت منتهى أمله من الدنيا، إذا نظر إليها أسرته، وإذا تحدّث إليها أبهجته.

كان التقاء شقَّيها محتوماً، فَكانت بُشرى حياته، نُسِجَ بعثها مُنذ قال الودود الرحيم : "أَلست بربكم"، غَنَّت الورودُ لِقدومها، وعَطَّرت الأجواءَ أنفاسُها، كانت منه بِمثابة الروح من الجسد، وكان منها بِمثابة الشجر إلى الظل، وهل لِلروح مستقرٌّ إلّم تطف بِجسدها ؟ وهل للأنام مُستظلٌ من كَدِّ الحياة إنْ فارق ظل الشمس شجرها ؟

خبَّأ الخريف حَتَّ أوراقه وتساقطها عن ربيعها لِموسم الكآبة الطاغي، فَداهم ظلّ أبيها الوارف، وكَورق الخريف تساقطت عبراتها، وكَقِرَبِ السماء المُمْسَكة عبر الأيّام كَظَمَ هو عبراته، باعدت الهموم الأنفسَ، فَأمست هائمة الروح سارحة النفس، لا تستقرّ إلى مستودعها إلّا في دقائق معدودة وأيّام محدودة، حيث لا ضوء هناك آخر النفق، فَما بُنِيَ على الظن

فَهو إلى الشك أقرب، فَلا زهر في آخر خريفه يُنتظر، ولا يقين بِموعد أُفوله يُرتجى.

بدأ عمر بها الرواية وأنهاها، حتى أنّه كتب عنها قبل أن تولدً .. فرسم لها لوحة على أوراقه المبعثرة، وبِخياله الخَصْب كتب :

"أشعل سيجارته وأمسكها بيده اليسرى وأخرجها من نافذة السيارة، داعبت رائحتها أشواقه العتيقة، فَهو مدمن قديم ترك التدخين منذ زمن، همَّ بها وهَمَّت به، لكنّه تذكّر العهود والوعود التي قطعها لزوجته، فأخرج يُسراه ثانية من النافذة، يظنّه المارّة مدخّنا ماهرا يتلاعب بالسّيجارة بين أصابعه كما كان يتلاعب بلوحة الكمبيوتر في صِباه، يغازل هذه ويغوي تلك، يتأنّق بِملابسه الفاخرة، يرتاد النوادي والفنادق، يَلمعُ حذاءه الفاخر كما يبرق عِقد الذهب في رقبته.

نظر إلى مرآة سيّارته الأمامية فَرأى العِقد الذي يلبسه الآن وعاد إلى لحظته الحالية، فَقد تبدّلت الأيّام وتغيّرت النوايا والرغبات، يقود السيارة بِهدوء وتَؤُدة ينظر إلى الناس في الأسواق، كلّ مُنهمك بِمشاغله وهمومه، هذا يبيع الخضار على عربة مهترئة، وذاك يرجو السائق أن يمسح له زجاج سيّارته، وتلك تقف على قارعة الطريق تنتظر شهوة زبون عابر لِتطعم أيتامها الصغار، فما عاد المثل القائل "تموتُ الحرة ولا تأكل بِثدييها" يُجدي نفعا هذه الأيام، فَمنذ أوسعنا الأعداء سبّا

وشتما ننظر إليهم - وفَكّنا الأسفل يتدلّى بِبلاهة - وقد أودوا بالإبل أصبحنا نرى في شوارعنا مثل هذه المناظر وتلك.

شَغَّلَ المذياع على أغنية لِفيروز ليشارك بها السيّارات القريبة منه في زحمة الصباح : "أعطني النّاي وغنّي فالغنا سرّ الوجود .. وأنين النّاي يبقى بعد أن يفنى الوجود" وهل بعد فيروز من صوت ؟ وهل بعد ألحان نجيب حنكش من لحن ؟ يا له من طرب تسيح فيه الروح وكأنّها ثَمِلة سكرى، أطفأ المذياع فور انتهاء الزحمة، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم فالطرب ينسيك حتى الشطط في أبيات الشاعر جبران خليل جبران، هكذا الباطلُ دائما مغلفٌ بالجمال والمتعة.

ينظر إلى الحياة بِعَين مختلفة، كأنّها معزوفة موسيقية تتناغم أحداثها تناغما بديعا بين الأسباب والنتائج وبين المقدّمات والنهايات، لم يسبق له أن نظر إليها بهذا الشكل، فكل شيء فيها موضوعٌ بِحكمة، وسالت أوديتها كلٌّ بِقدره، ما بال الناس وقد نسوا ! ما بالهم لا يتذكّرون ! أَينتظرون صاعقةً من فوقهم ؟ أم زلزالاً من تحتهم ؟ ما بالهم وقد نسوا يوم أشهدهم الله على أنفسهم (أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى) ! تدارك نفسه قبل أن يبدأ بِلوم النّاس، وتذكّر حاله القديم الذي مازالت صوره تعود إليه تترى مُذ ركب سيارته صباحا.

اقتربت به سيارته من مبتغاه وكأنها بساط السندباد يحطّ رحاله في بغداد بعد طول سفر وترحال، تَطيبَ بالعطر الذي أهدته إيّاه زوجته قبل أن يغادر دياره، ونظر إلى المرآة نظرة

أخرى ليتأكّد من هِندامه، فَوقعت عيناه على عيني نفسه فَحدّق بهما، تأمّل بريقهما، ورمق فيهما شريط حياته بِحُلوها ومرّها، سرح الفكر به بعيدا نحو المجد التليد ونحو الخلود، قطعَ خلوتَهُ رنينُ_هاتفه، ارتبك ارتباكا شديدا فالمكالمة دولية !! وهذا الهاتف للحالات الطارئة فقط ! ولم يتصل عليه أحد منذ أشهر، ولما يرنُ الآن ؟ وبهذا التوقيت الحاسم ؟ تردّد في الردّ لكنّه لم يستطع، أمسك بالهاتف :

- من هناك ما الخطب ؟

تجيبه بنيته الصغيرة بشرى :

- أبتِ إنه أنا بشرى.

ينزل عليه الصوت وقع الصاعقة، يتزلزل كيانه، يحبس دمعته ويتحشرج صوته :

- أي بُنيَّة، ما بك ما بال صوتك مرتجف ؟

تُجيبه :

- أبتِ اشتقت إليك، أين أنت غبت عنّا منذ زمن ؟

تنزل دمعة حارّة على خده.

- بُنيَّتي أنا هنا .. أنا هنا.

تردُّ عليه باكية :

**- بابا .. أنا خائفة، أَلَن تعود ؟ فَزوّار الليل تكاثروا علينا، غلاظٌ شدادٌ من بني جلدتنا، مسودّةٌ وجوههم، قاسيةٌ قلوبهم.**

**عواصف تخبط به ويكتم نواحه .**

**تستغيث :**

**- بابا .. أنا خائفة، لقد أخذوا ماما وشدّوا شعرها ومزقوا ثيابها، بعد أن سألوها عنك فَلَم تُجِبهم، بابا .. ألن تعود ؟ أنا وحدي وخائفة.**

**ألق السيجارة من يسراه وأمسك بمقود السيارة ليلتف يسارا، صوت الأذان عن يمنيه يترنّمُ من بعيد : الله أكبر ... الله أكبر، يلتفت نحوه فَيرى بوابة المجمّع وقد فُتحت، لقد وصل في الوقت المحدّد، إنّه موعد تبديل الدوريات.**

**يداه على المقود، صوت بُنَيّتِهِ على الهاتف : بابا ... بابا ... يشدُ يده نحو اليسار.**

**وتراتيلُ الرحمنِ عن يمنيه: حيّ على الفلاح ... حيّ على الفلاح ...تشدّ يده نحو اليمين.**

**يمسك بالهاتف :**

**- أي بُنَيّة ... أي حبيبتي ... أي فؤادي ... فلذة كبدي ... لبّيكِ لبّيكِ ... إنّي عائد ... إني عائد... فَمِلّةُ الظلم واحدة.**

**يرمي الهاتف من يُسراه ويمسك المقود بِكلتا يديه ويلتفّ يمينا نحو النور، نحو الخلود، ويطير مسرعا وسط المعسكر وبين اليهود، يفتح غطاء الأمان.**

**صوت روحه على الهاتف :**

**- بابا ... بابا .**

**يجيبُهُ من بعيد :**

**- أنا قادم ... أنا قادم**

**أشهد أنّ لا إله إلّا الله وأشهد أنّ محمّدا رسول الله**

**يضغط على الزر**

**تُفتحُ أبوابُ السماءِ... نورٌ يُشرقُ ... وجموعٌ تستبشر".**

**بلّل دمعُ عينه أوراقَ خاطرته، وتذكّر حزن بشرى عليه بعد موته أو استشهاده المفترض، مع أنّ بشرى لم تولد بعد، وعمر لم يجاهد، ولن يُجاهد، فمزّق خاطرته، ومزّق معها بقايا همّة كانت يوما من الأيّام تناطح ما يسمّيه الحالمون الثريّا، لعلّه يورث هذه الهمة لِصعب أو لِهمام .. لم يكن يعلم.**

**تودّد إلى أحلام سائلا إيّاها :**

**هل ترغبين بِبنت صغيرة تملأ علينا الدار إذا ما كبرنا في الدنيا، وتنفعنا إذا ما متنا في الآخرة ؟**

**وقبل أن يجيب صمتها على استحياء .. ، سألت :**

**- وما شأن الآخرة ؟**

**- تمسك بِيدي وتُدخلني الجنّة إن شاء الله .. هي بشرى الرحمن يا أحلام .. هي بشرى الرحمن.**

**تعجّبتْ منهُ كالعادة، ثم تسلّلا معا إلى مهجعهما ... وبعد أشهر معدودات كانت بشرى .. وأيُّ بُشرى**

# الطوفان (2)

**أحلام : تروي الحكاية العربية القديمة يا همام، قصّة صيّاد وقع في شباكه قمقم من نحاس ...**

**يأتي صعب مسرعا : انتظري يا ماما ... انتظريني.**

**تتمهّل أحلام حتّى يأخذ صعب مضجعه على بطنه، وقد جعل من كَفَيَّهِ مسندا لرأسه مُستمعا**

**أحلام : ... مختوم عليه بالرصاص المصهور، ومحروس بِاسم الله الأعظم، قصّة من قصص ألف ليلة وليلة، ألهمت القرّاء والأدباء عبر العصور، تتكلّم عن صياد كاد فضوله يودي به إلى الهلاك عندما فك الختم الذي يُغلق القمقم بِإحكام، فَخرج منه عفريت مارد محبوس منذ ألف وثمانمائة عام، حبسه نبي من الأنبياء؛ عقوبة له على إفساده في الأرض.**

**صعب : كان خيالهم واسع يا ماما.**

**همام : "فاضين أشغال".**

**أحلام : بل على العكس يا ماما، ففي قصصهم عبر وحكم.**

**صعب : "هسّه ماما رح تحولها مُحاضرة مثل محاضرات بابا".**

**أحلام ضاحكة : "احترم حالك يا أزعر، هذا أبوك الذي تتكلّم عنه".**

**صعب : يَهُزُّ رأسه مُستسلما.**

**همام : أكملي يا ماما.**

**أحلام : وأما قصص الخلق الحقيقية، فَتحكي أنّ الله تعالى أوجد في الكون قوىً ساكنة تؤدّي دورها في انتظام الكون وانتظام الحياة، وأيّ عبث في إطلاق هذه القوى وتحريرها، سيؤدي إلى دمار وهلاك، كما هو حال القنابل الذرية؛ التي إن تحررت طاقتها الكامنة التي تُبقي مكونات الذرّة متماسكة؛ ...**

**صعب مُستعرضا : أخذنا عنها في حصة العلوم يا ماما.**

**أحلام : صحيح يا صعب، الطاقة الكامنة التي تُبقي مكونات الذرّة متماسكة، إن تحررت يحدث الانفجار الهائل.**

**همام مزاحما صعبا في النقاش : فَكميّة صغيرة بحجم كف اليد يمكن أن تسبب دمارا لمدينة كاملة.**

**أحلام : أحسنتما، وأمرُ الله عز وجل يا ماما، عظيم وبديع في تسيير أمر الكون وأمر الحياة الدنيا، فقد أوجد قوانينا وسُننا غلّابة تحكم هذه القوى الكامنة والساكنة، وسواء كانت**

**في مجال العلوم الطبيعية أو الاجتماع البشري، فَمن سار على هذه القوانين أفلح، ومن سخّرها ووظّفها لِخير البشر نجا، أمّا من خرقها فقد شقيَ في الدنيا وهلك في الآخرة.**

**صعب : مش فاهم يا ماما .**

**أحلام : في حكاية آخر الرسالات يا صعب، فقد اصطفى الله مِن خَلْقه العرب؛ لِيكونوا حملتها، رسالة محمّد بن عبد الله صلّى الله عليه وسلم، النبيّ العربيّ، المصطفى من خير الأعراق منذ آدم عليه السلام ...**

**همام : ومن قال أنّ العرب هم خير الأجناس ؟**

**أحلام : في الحديث عن نبينا محمّد ...**

**جميعا : اللهم صلّ وسلّم على نبيّنا محمّد**

**أحلام : (عَنِ الْمُطَّلِبِ بْنِ أَبِي وَدَاعَةَ ، قَالَ : قَالَ الْعَبَّاسُ : بَلَغَهُ بَعْضُ مَا يَقُولُ النَّاسُ ، قَالَ : فَصَعِدَ الْمِنْبَرَ ، فَقَالَ : مَنْ أَنَا ؟ قَالُوا : أَنْتَ رَسُولُ اللهِ ، فَقَالَ : أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخَلْقَ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِ خَلْقِهِ ، وَجَعَلَهُمْ فِرْقَتَيْنِ ، فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِ فِرْقَةٍ ، وَخَلَقَ الْقَبَائِلَ ، فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِ قَبِيلَةٍ ، وَجَعَلَهُمْ بُيُوتًا ، فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِهِمْ بَيْتًا ، فَأَنَا خَيْرُكُمْ بَيْتًا وَخَيْرُكُمْ نَفْسًا. ).**

**صعب وقد كشف عن عضلاته محرّكا يده إلى الأعلى وإلى الأسفل مُتباهيا : "يعني نحن العرب أفضل الناس يا ماما".**

**أحلام : التقوى هي الأساس يا صعب، لكنّ المقصود بِكلامي عن أفضليّة العرق هنا ليست التقوى، فكل إنسان وعمله لا خلاف، إنّما المقصود هو الصفات والطبائع والملكات والموروثات التي يكتسبها قوم دون قوم، أو عرق دون عرق ...**

**همام : هذا كلام بابا الذي كان يقرأه لنا من كتاب المقدّمة لابن خلدون.**

**صعب : "رجعنا لِمحاضرات بابا ".**

**أحلام معاتبة صعب بعينيها ومؤيّدة همام بِهزّ رأسها تستتبع : إنّ المتتبّع لِحركة التاريخ يجد شعوبا ورَّثت طبائع وسمات من جيل إلى جيل، فالهنود مثلا، ورثوا العبوديّة من آبائهم، والصينيون ورثوا الخنوع، فَخضعوا عبر التاريخ لأمم أصغر منهم ...**

**صعب مستعجبا وقد فغر فاه، فَكلّ ما حوله هذه الأيّام صناعة صينية : الصين ... !!!**

**أحلام : نعم الصين، أمّا العرب فَقد ورثوا العزّة والإباء أبا عن جد، فَتراهم أصعب الأمم انقيادا، ولم يقدر عليهم الفرس والروم في جزيرة العرب رغم اتّساع حكمهما، بل إنّ العرب لم يخضعوا لِبعضهم البعض إلّا بالقوة الساحقة، فَنقرأ في تاريخهم عن داحس والغبراء وحرب البسوس، حروب اشتعلت لِأتفه الأسباب ...**

**همام : جاهلية.**

**أحلام : ليس هكذا تُفهم الأمور يا همام، فهذا يشير إلى طبيعة هذا العرق الذي يتميّز بالقوّة والشكيمة، والعزّة والأَنَفَة، ولا يستسلم للخضوع والخنوع، ويعتبر الموت على الفُرش مثلبة يُعَيَّر بها.**

**تنظر أحلام إلى صعب مُبتسمة وتخرج ورقة قد أعدتها سلفا وتكمل، يقول ابن خلدون :**

**" في الفصل السابع و العشرون من مقدّمته، فصل في أنّ العرب لا يحصل لهم الملك إلا بِصبغة دينيّة من نبوّة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة، والسبب في ذلك أنّهم لِخُلُق التوحش الذي فيهم، أصعب الأمم انقياداً بعضهم لِبعض للغلظة والأنفة وبُعد الهمّة والمنافسة في الرئاسة، فَقَلّما تجتمع أهواؤهم، فإذا كان الدين بالنّبوّة أو الولاية كان الوازع لهم من أنفسهم، وذهب خُلُق الكبر والمنافسة منهم، فَسهل انقيادهم واجتماعهم، وذلك بما يشملهم من الدين المُذهب للغلظة والألفة الوازع عن التحاسد والتنافس، فإذا كان فيهم النبّي أو الوليّ الذي يبعثهم على القيام بِأمر الله يذهب عنهم مذمومات الأخلاق و يأخذهم بِمحمودها ويؤلّف كلمتهم لإظهار الحق، تمّ اجتماعهم وحصل لهم التغلب والملك، وهم مع ذلك أسرع الناس قبولاً للحقّ والهدى، لِسلامة طباعهم من عوج الملكات، وبراءتها من ذميم الأخلاق إلا ما كان من خلق التوحش القريب المعاناة المتهيء لِقبول الخير ببقائه على الفطرة الأولى وبعده عما ينطبع في النفوس من قبيح العوائد وسوء الملكات، فإنَ كل مولود يولد على الفطرة كما ورد في الحديث وقد تقدم".**

**همام يجلس مُتربّعا وقد شعر أن الأمر يحتاج إلى تركيز أكثر.**

**أحلام : واعلم يا همام أن الإسلام عمد إلى ترويض قوة العرب في التنافس والتفاخر والتناحر وحب الشرف والموت لأجله، ووظف هذه الملكات والموروثات من أجل حمل الرسالة الخاتمة للبشر كافّة، بِقوّة السلطان القاهر الذي يحكمهم بالإسلام أوّلا، وبِقوّة الوازع الديني الداخلي الذي يُخضع الفِطَرَ السليمة ثانيا، فَامتدت دولتهم في أقلّ من نصف قرن لِتشمل نصف العالم تقريبا، وروَّض الإسلام قوّة الجاهلية عند العرب وحوَّلها إلى قوّة كامنة ساكنة، ووضعها في القمقم، وختم عليها بالرصاص.**

**صعب : وما هو الهدف من هذا الكلام يا ماما ؟**

**أحلام : إن الأفكار الغربية المخالفة للإسلام يا صعب والتي انتشرت بيننا انتشار النار في الهشيم، ابتداء من الشيوعية والاشتراكية، وانتهاء بالرأسمالية وليبرالية الديمقراطية، هي إعادة إطلاق لِهذه القوة الجاهلية.**

**صعب يقف ويُلوّح بِيديه كما كان يفعل عندما يشارك مع عمر في المسيرات ويهتف بِصوت عالٍ : لا شرقية ولا غربية ... إسلامية إسلامية.**

**تضحك أحلام وهي تجد صعوبة في كَبت قوة وشغب أولادها، فَصعب لم يبلغ الحلم بعد، وهمام في أوج مراهقته، وتكمل البرنامج الذي آلت على نفسها تربية أولادها عليه.**

**ثم تُكمل : لقد كُبتت قوّة العرب في المائة سنة الماضية بقوّة الحديد والنار وبالظلم والقهر، وقد منَّ الله علينا بالثورات العربية التوّاقة للحريّة والعدالة، فَعَمَدَ الإعلام الغربي والعربي العلماني المهزوم إلى ربط مطلب الحريّة الشرعي بِمطلب الليبرالية والعلمانية، والحريّة الغربية المُنفلتة عفريت مارد نائم لعن الله من أيقظه، يُوقظ عند العرب قُواهم الجاهلية في حبّ الرئاسة، وفي التنافس والتناحر على الملك، وفي التفاخر بالأنساب، وفي الولاء المبنيّ على أساس القوم والوطن والجهة، وتطلق الشهوات الحيوانية دون قيد أو ربط، وقد ارتضت لنا هذه الإيديولوجية المستوردة أربابا متفرّقين في الميادين العامة وفي الشوارع وفي الفضائيات، فالشعب هو الحاكم وهو السيّد وهو المشرّع، أمّا الإسلام فقد ارتضى لنا ربّا واحدا حاكما وسيّدا ومُشرّعا (أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) ، فأيّهما أفضل؟ وأيهما أسلم؟**

**همام مستغربا وصعب مستنكرا : هل أنت يا ماما ضد الثورة ؟!**

**أحلام : إننا مع الثورة على الظلم، ومع الحرية، ومع العدالة، ومع التنمية، ومع البناء، ومع محاسبة الظالم، ومع الشورى ومع الرقابة على السلطة الحاكمة، ومع فصل السلطات.**

**تنظر إلى صعب وهي تمازحه : فلا تزاود عليَّ في هذا الشأن يا "سرسري".**

**همام وقد بدا عليه حرص شديد للفهم : وهل مطلب الحريّة غير مطلب الديمقراطية والليبرالية والعلمانية يا ماما ؟**

**أحلام : نحن ضد إخراج المارد من القمقم يا همام، المارد الذي يفجّر القوى الساكنة المدمرة التي هذَّبها الإسلام قبل ألف وأربعمائة عام، ولنا ربٌّ واحد يخضع له الحاكم والمحكوم، وشَرْعٌ من لدن ربّ العالمين، هو السيّد المدبّر فوق الشعب والدستور وفوق التشريعات والقوانين، وتِلكُم هي الحرية الشرعية، والحرية المسؤولة.**

**همام : مم مم مم ... فهمت.**

**أحلام : أمّا إسلام الأهواء الآن، فهو الخادم الملبي للعلمانية وللّيبرالية وليس العكس، وهذه هي الكارثة بِعينها، لقد خرج مارد الحرية المنفلتة والأفكار الغربية تحت مسمّيات شتّى من القمقم وسيعيث في الأرض فسادا، وهذا ما يراه كلّ عاقل في بلادنا العربية والإسلامية، فإمّا العودة إلى القمع والظلم، وإمّا الفوضى العارمة المعطّلة ذات الأرباب المتفرّقين في الميادين العامّة ومقرّات الأحزاب وشاشات الفضائيات.**

**همام وقد شعر بأهمّية كلام أمّه وبِثقل المطلوب منه : وماذا نفعل يا ماما ؟**

**أحلام : إن الفرصة لا زالت سانحة أمام الأمّة في إعادة المارد إلى القمقم، ويجب على العقلاء فيها أن يختموا عليه بالرصاص المصهور ويقرؤوا عليه اسم الله الأعظم.**

**صعب : وهل هذا ممكن يا ماما ؟**

**أحلام : عار علينا يا صعب أن يكون صياد ألف ليلة وليلة - في الحكاية القديمة - أذكى منا؛ إذ أعاده إلى القمقم مرّة أخرى، وإلّا فإنّ حروب داحس والغبراء وحرب البسوس - في حكايتنا الجديدة - على الأبواب، وحال الأمة غدا يا همام هو ما ترسمها لنفسها اليوم، أليس كذلك يا صعب ؟**

**صعب : "واحنا مالنا يا ماما" ؟**

**أحلام : من سعى للخلاص الفردي يا صعب، دون الخلاص الجماعي للأمة، هلك مع الأمة إن هلكت، وخير وسيلة لِتجنّب المخاطر، هي امتطاؤها يا ماما.**

**صوت بشرى تبكي وقد استفاقت لتوها، فُتسرع أحلام في إنهاء فقرتها الإسبوعية الفكرية مع همام وصعب فتختم : ويجب علينا التفطّن لِذلك قبل فوات الأوان، ويجب عليكم يا أولادي الدعوة والسعي للعودة للإسلام بعد نجاح الثورات كما جاء من عند ربّ العالمين دون خلط أو بلط .**

# التَّجلي (3)

أراد عمر بِهذه الكلمات أن يعوّض ما فاته، كانت آماله عريضة وقد كبر في السن، همام يستعدّ ويتململ، وصعب يعربد ويتفلّت، أحلام في سعيها للكمال ترى الأمور كلها في حالة انهيار، وبشرى تغرق في أحلامها، ومبتغاه دونه قمم الجبال، في كلّ محطّة كان يتوقّف، وأحيانا كان يقف، وفي مرّات يعجز.

هل الطموح خيال أم هو حقيقة ؟

وكيف يتنزّل من برج الأمانيّ إلى وقائع الأحداث ؟

لَطالما سأل نفسه ذاك السؤال، منذ صغره وهو يحلم، يحلم أحيانا أنّه المنقذ وأخرى أنّه المُخلّص، وعندما يستفيق يجد نفسه هو هو، عمر طاهر حامد بيك، صحيح أنّه متعلّم، وصحيح أنّه ابن عائلة ذات حسب ونسب، وصحيح أن الفرص فتحت أمامه، وفُرش له السجّاد الأحمر عند كل منعطف، لكنّه لم ينعطف، بقي يسير بِخطّ مستقيم،

أ جِبلَةٌ هي أم شيء مكتسب ؟

**لم يكن يعلم.**

**كان لا يرى من الألوان إلّا الأسود والأبيض، حدّثه أستاذه في المدرسة الابتدائية عن اللون الرمادي، لكنّه لم يراه**

**أهي هِبة أم لعنة ؟**

**لا يعلم**

**كم تركه من أصحاب ، وكم فاته من نعيم، كم دخل في شجار مع أحلام، كم كسر من فناجين القهوة في حضرتها غاضبا، يُنفّس بها عن كبت يعتمله، فَرغم حبّه الشديد لها، إلّا أنّها تخالفه في كثير من فكره، كان يجدّف في زورق صغير لا يتّسع إلا لاثنين، وموج الأيام وريح الأحداث كانت تعصف، وعصفها القادم أشدّ وأعتى، كم تَاهَ زورقه في اللجج، لم يكن معه أحد، ولم تكن هناك أحلام إلّا في الأحلام ، كان يخدع نفسه ويُوهمها أنّهما في زورق الفكر الواحد، لكنّ ذلك كذب .. وأيُّ كذب.**

**ليس أبلغُ الكُتَّابِ من أتقن قواعد اللغة وفنون الأدب، بل هو من أنطقته عاطفته وساقه قلبه، فينفجر قلمه ألما وحبا، تجربة وحياة.**

**فهل تلك الكلمات هي التي ستخرجه من ردغة الأغلال، وهل يريد بها نفسه أم يريد بها همّه الذي طالما أرّقه ؟**

بدأ ببضع كلمات يلملمها من ما بقي من حصيلته العربية المهترئة، يرتّبها تِباعا، لا يعتمد في ذلك على قانون لغويّ ولا أسلوب تعبيريّ، إنما يترك السيل ينحدر، فإذا ما تدفّق، غاب عن وعيه وعاش في عالم يراه قريب التنزّل لِيصبح حدثا، وأيّ حدث، حدث يغيّر مسار المكوّنات، فَتُشكّل بالقدر المرسوم ما هو كائن، كان يعتقد أنّه يراه كما سيحدث ، لم يدّعِ قطُّ علم الغيب، وأنَّى له ذلك ، لكنّه استقرأه بِالسنن والعواقب فرآه .. وما ذنبه أنه رآه.

"حالم أنت يا عمر .. عِش واقعك"

كم آذته تلكم الكلمات ، سمعها من القريب ، وسمعها من البعيد، لم يلتفت بل سار ومضى، لقد ذهبت كوابيسه عندما أنزلها على الورق، كتب عن تجربته الأولى وكتب عن ما اعتمل قلبه وهو في الطريق باحث عن الأرض المقدسة ، كتب عن بشرى قبل أن تولد، كتب عن همام وصعب، كتب عن الحبّ والكره، كتب عن أحلام والأمل، أفرغ حقده ببعض القصص، ورفع صدقه في أخرى، لم يكذب فيما كتب ، فالقلم عندما يسيل يكون العقل على الحياد

هل سترضي هذه الكلمات القراء أم ستغضبهم؟

لا يهم، ولو كان يهمّ لما كتب أصلا، كتب عن نفسه سموّها وخسّتها، كتب عن جسده خيره وشره، ظهرت له ملامح الطريق، حدّثه أحد العارفين يوما : "أنّ لكلّ إنسان

**تجلّيا يحين وقته"، وقد تجلّى عمر أخيرا، لقد وضع أولى خطواته على الطريق، فإن كان التجلي هو ذا (بضع كلمات)، فهي بطاقته التي سيعدّها ليوم قادم، فَحرص أن يزيّنها ويزوّقها، لِتصل إلى من لم تصل له بأبهى صورة وأجمل حلّة، تنفسّ الصعداء، فَكتب نصف ساعة من ربيع، وكتب بعثرة في ماء البحر، وكتب عن الملاحم ..**

**بينما كان آخرها يكتبُ عنه.**

# القربان (4)

**يُحدّث عمر نفسه :**

**"أَ لحظات الموت أصعب أم هذه ؟ إنّها النزع بِعَينه، وهي السكرات ذاتها ... يعلم ذلك كلُّ مُجرّب خبير"**

**يُقَبّلُ همام أحلام على رأسها قُبْلِةً لا قُبَلَ بعدها، يسألها وقد استدعى كلّ قوى الكون لِيكبت حشرجة صوته،**

**- أَ راضية عنّي ماما ؟**

**بِوُدِّهِ لو أعاد عليها السؤال ألف مرة، فَكلّ كلمة (الله يرضى عليك يا همام) تَزِنُ الكون عندهُ ذهبا**

**بِوُدِّهِ لو أنّ الله لم يخلق من مسارات النظر إلا مسارا واحدا بين عينيهما، ويتمنّى لو أنَّ الزمن تداعى في هذه اللحظة ثم توقّف**

**وعمر يلهو أو يتلهّى بجهاز الكمبيوتر، وكأنّ أثقال الأرض عُلِّقت بِجفونه، فلا يرفع رأسا ولا يُبصر شيئا**

**لقد حانت لحظة الحقيقة، اللحظة التي أعادت كلَّ همام، بِشحمه ولحمه، بِطفولته وشبابه، بِتقواه وضلاله، بِكلّ شيء من أيّامه ولحظاته، ليت يديّ عمر كانت شِباك البحار يصيد بها فلذة كبده، ليت ذراعيه سواعد كل الرجال يضمُّ بها ابنه، وليت بيته كلّ سجون الطغاة يحبس فيه أحب ولده.**

**دون جدوى؛ وعمر يرمي بهذه اللحظة بعيدا، إلّا أنَّ كل يوم في السنة الماضية كان يقرّبه إليها، وكلّ دقيقة مَرَّتْ كانت نارا تدنو وتكوي، كان يمكنه إطفاؤها بكلمة تخذيل هنا أو دعوة تَعَقِّلٍ هناك، لكنّه كعادته لا يستطيع، يُغالب عاطفته وعقله وروحه وجسده وكل شيء بما وقر في قلبه ... ويا لما وقر في قلبه.**

**أَيعقل أن يكون من الذين يقولون ما لا يفعلون ؟ أمنافق هو ؟**

**زعم حبّ الله ... فجاء وقت البرهان.**

**قدرته على قلب الأسود أبيضا والأبيض أسودا تجلَّت له بِحلة ذهبية مزركشة، تعرض نفسها عليه عرض إمرأة العزيز على يوسف، سيجد المخرج لا محالة، وينمق الحجج دون ريب، لكنه يعلم أنّه بذلك يكون كاذبا ... وألف كاذب.**

**وأيُّ حيلة لي يا رب، إنّه فلذة كبدي وإنّي أُقدّمه للمجهول، ولا طاقة لي على ذلك ...**

**برهانك ربي برهانك ... فلا قبل لي بامرأة العزيز وقد غلّقت الأبواب وقالت هيت لك**

**كان أحبّ أولاده إليه يوم وُلِدَ على غير تخطيط، ودخلت أحلام على إثرها باكتئاب حملٍ، وضع على عاتقه التقرب من صغيره لِموازنة الأمور وإعادتها إلى نصابها، فكان له الأم والأب، فَنما حبَه في قلبه نُموَّ الأشجار المعمرة، تجذّرت فيه كلّ لحظات طفولته، يأخذه بِيده إلى الحدائق والألعاب، ويُحدّثه بالقصص والحكايات، شَبَّ بين يديه رجلا، ودخل الروضة أسدا، وترفّع إلى المدرسة قائدا، ولم تمض عليه سنة طالبا في جامعته، حتّى ظهر عليه ما يظهر على الأسياد من علامات الرياسة والعز، فَجاء بين يدي عمر يُخبره ؛ "إنّي أرى في المنام أنّك تذبحني"، لم تسمح له نفسه الأبيّة أن يرى القدس في الأسر، فكان يترك قرى السوء التي اعتادها يوما ما، إلى قرى العلم والتقوى، وكان لا يطيق ظنّ الناس بالله، إلها في السماء فقط، لا إلها في الأرض، فَثارت نفسه الأبيّة غضبا لله ورحمة للبشر، وزادته الظروف التي أخّرته عن مُراده؛ عزما وإصرارا وغربة، وهو في برزخه الذي عاشاه بين حالين، لا يدري بِحاله إلّا عمر.**

**وفي حلكة الظُّلَم لملم حوائجه وفتات طفولته ثمّ مضى، ولِقَلْبه المكلوم كتب طريق دربه "أَيْ أمّي أَيْ أخيّتي إنّه الوعد وإنّها الجنة".**

**بَرَّ أحلام برًّا ما بَرَّه في زمانه من والد ولا ولد، فأطال النظر في عينيها ثم أطال ، وتوقّف بعد النزع قليلا في الطريق إلى المطار، وعلى قارعة الطريق بكى، ثم بكى، بكى بكاء النائحات، ومات في نفسه ألف ميتة وميتة، ماضيهِ من خلفه ومستقبل أُمَّته والقدس من أمامه ...**

**نظر عمر إليه بعد صلاة العشاء الأخيرة، وقد رفع يديه إلى السماء باكيا، وقد بكت معه أحجار المسجد ومواضع سجوده، واهتزّت جدران المسجد بِاهتزاز أكتافه، خُيِّلَ إلى عمر لِشدّة وقعها على نفسه أنّ القيامة قد قامت، وهل بعد هذه من قيامة يا عمر؟ إنها وربّي القيامة ؟ وقد قامت على عمر وهمام، لا يعلم بحالهما إلّا الله، كلٌّ يُخفي عن الآخر رمقه الأخير، وكلٌ يُمَثِّلُ على الآخر صمودا وثباتا يعلم الله أنّه خادع.**

**يضمّه بين يديه ضمَّ المجنون لِلَيلاه ، يعصره عصرا ، أضحيا جسدا واحدا، إنْ خلعتهما، فقد خلعت قلبا وروحا لا جسد لهما، رحمتك يا رب، رحمتك يا رب، إنّه أصعب من نزعي الأوّل قبل عقدين من الزمان، ليتني يا رب كنت في هذه إسماعيل ولم أكن إبراهيم ، بل ليتني كنت ترابا ... وكنت نسيا منسيّا.**

**لا قِبَلَ لي بهذا ... لا قِبَلَ لي، أدفعه عن نفسي دفع السليم للمجذوم، ويشدّني إليه حبّ الوالد للولد.**

**فَلحظة أخرى وأموت ... أموت يا رب**

كان عمر يعرف أن مقاومة التغيير هي من السنن التي فطر الله العباد عليها، فَإذا ما أَلِفَتْ المجتمعات والأشخاص نمطاً معيّناً من طرق العيش والعبادة، وخُلقاً محدّدا في العادات والتقاليد، ونظاماً مرسوماً في السياسة والتدبير، فإنّ الانتقال إلى حال آخر يواجه مقاومة عنيفة ترفض فيه الأغلبية هذا التحوّل، ولابدّ فيه للرائد السائر إلى القدس من المجاهدة والمغالبة حتى يصل إلى غايته ومراده، وكلّما تقادم الزمان على الحال الجديد قلّ الرفض وزاد القبول، وهو عين الذي يواجهه عمر في هذه اللحظات التي تمرّ عليه وكأنها سنوات.

- كفكف دمعك يا همام، إذهب ودِّع أمك، وأشعرها أنها نزهة ليومين أو ثلاثة ثم تعود، تماسك يا بُني، فإنّ أيّ التفاتة منك ستفضحني وتفضحك

أمّا أنا فَلن أطيق النظر إليك على مَذْبَحِها، فلا تلقي علي أيّ نظرة في حضرتها، فإنّي على الحافّة، وقد قدّمت قرباني، وودّعتك وداع الحياة إن بقي لأيّ منّا فيها أجل، ووداع الموت إن كان هو كما كُتبَ عليَّ في رحم سليمة أو الذي كُتبَ عليك في رحم أحلام.

... وسأبقى على الحافّة، إلى اليوم المشهود

يوم أخرج من البيت غضبان أَسِفًا

# القافلة (5)

وبعد يومين كان يتهرّب فيهما عمر من مواجهتها ، يختلق الزيارات، ويفتعل الأحداث، وفي خزانة همام، وجدت أحلام ما يؤكّد مخاوفها وحاسّتها السادسة، حاسَّة الأم التي تخفيها عن أطفالها تحت غطاء "أخبرتني العصفورة"، فَيعترفوا أمامها بِذنوبهم الصغيرة، كانت حاسّتها هذه المرّة قويّة وطاغية، ولكنّ عقلها الباطن حجبها، فشيءٌ ما بِداخلها كان لا يريد هذا الذي كان، ولكنّه كان، وأصبح حقيقة، وجدت مبلغا متواضعا من المال، كان همام يجمعه من مصروفه التي تُعطيه إيّاه أمّه لِيعيده إليها هديّة وعيديَّة، فَكانت أحلام منبع هذه الهدية ومُستودعها، بعد أن كان رَحِمُها، منشأ همام ومنبعه ابتداء وأصلا، والله وحده يعلم إن كان حضنها الدافئ سيكون مستقرّه ومنتهى مشواره في نهاية الطريق وختام الدرب، وفي غرفته وبين أوراقه، وجدت أحلام ما كُتب بالدمع لا ما كُتب بالحبر، وتخيَّلت همام يقرأ الرسالة بِصوته المُتحشرج، تخرج روحه مع كل حرف يخرج من فمه :

**من همام إلى أحلام**

**" أمّي الحبيبة ... إذا وصلتك رسالتي هذه، فاعلمي أن الله قد أجاب دعاءك العتيق، يوم كنت أنام في حضنك وأرضع من حليبك، فاسجدي لله واشكري له، فقد أصبحتْ قطعة منك لله منذورة، وإلى المجد التليد ناظرة، يُسابق بعضها بعضا نحو الخلود، وهي الآن في القدس حاضرة، فما أسهل يا أمي أن تُخطَّ الكُتبَ بالكلمات، وما أهون أن تُصَمَّ الآذانُ بالخطب، فالكلام في زمن الهزيمة ليس عليه من رقيب ولا ضريبة، إلّا إن كان كلاما عن سُبل الغلبة وأسبابها، منات المُنَظِّرين يا حبيبتي ينسابون أمام أنظارنا كل يوم، يتقيَّؤون علينا معاركهم مع طواحين الهواء، يسرحون بنا مع أفلاطون في مُدنهم الفاضلة، يحسبهم السامعُ فتحوا المدائنَ ومَصَّروا الأمصار، وإذا ما هاعت هيعة : "واقدساه" فلا تحسّ منهم من أحد ولا تسمع لهم ركزا.**

**وفي غمرة يوميّاتنا السادرة الرتيبة يا روحي، يأتينا النور الكاشف، من حيثُ لا نحتسب، ومن أوهن المنافذ يتسلّل، ربّما يكرّر الله فيه معنا ابتلاءات الأولين، ابتلاء آدم وإبليس، وقد هدانا النجدين ووضع أمامنا الخيارين، هو حَظُّنا من الأمانة يا أمّي ... حظّي وحظّك من الأمانة.**

**تمنّيت يا أمّي أن أكون ترابا، ولا أن أرى دمعة واحدة من مُقلتيك يا حبيبتي، فيا ليتني مِتُّ قبل هذا وكنت نسيا منسيّا، وأنَّى لي ذاك، وقد سالت الأقدار بِحظّي من الامتحان، وتدفّقت المكوّناتُ المتناهية الصغرِ من لدن اللطيفِ الباطنِ الذي ليس**

دونه شيء، القائمُ على كلّ نفسٍ بِما كسبت، تدفّقَ الأسباب الغلّابة، لا تترك أَمَةً إلّا وابتلتها، ولا عبدا إلا ومسَّتهُ؛ بِشوكة يُشاكها، أو إسماعيل من دمه ولحمه يذبحُهُ، قرابين تُقَدَمُ أو تُؤَخَرُ يا قلبي، منها السمين ومنها الهزيل، فتُقُبّلَ من أحدهما ولم يُتَقَبَّل من الآخر يا أمي، وكثيرٌ منهم يولُّون الدبر، وحظّك منها السمين يا أمّي، ثقيلٌ يا أمّي، عزيزٌ يا أمّي، فَكوني فيه هاجر يا أمّي وارجمي إبليس ووساوسه، فمن ارتفع بِمستواه عاليا لا يخشى من هم دونه يا أمي.

النّاس يأنسون بالقطيع ولو ساقهم الراعي إلى مصارعهم، إلى حدّ التخمة أشبعونا كلاما يا أمي، ربّما غُفِرَ لهم لو أنهم عَضُّوا على أصل شجرة، أو اعترفوا بِضعفهم، وربّما تجاوز عنهم الرحمن لو أقرُّوا أنهم كانوا يكذبون على الناس وعلى أنفسهم، أمّا أن يخرجوا من المعمعة مُستكبرين مُبدِّلين مُحرِّفين، تراهم يُزحزِحون الحقّ عن مساره، محرّفين الكلم عن مواضعه، مُزكِّين أنفسهم مُبرّرين سقوطهم؛ بِتبديل ما ثبت من الوحي لِيوائم حالهم، لابسين ثوب الراعي وهم الذئاب، متوشّحين النصر وهم المهزومون.

ذاك كثير يا أمي، لا أحتمله ولن أحتمله، ولن يدرك حال هؤلاء إلا من اجتاز القنطرة - أسأل الله أن تكوني منهم - وحدَّ سكين إبراهيم يقتطع به لحمَهُ ودمَهُ، وبين يدي النور الكاشف يُجاري الكائنات تسبيحا وتسليما، فاعلا ما يُؤمر، راجما الوسواس الخنَّاس، صاغرا بين يدي الجبار الظاهر الذي ليس

**فوقه شيء، معترفا ألّا قِبَلَ له بِحمل الأمانة إلا بِمَدَدٍ منه ومعونة، ثم يُقدّم قربانه يا أمي، وقد صَدَّق الرؤيا."**

**وانتبهت أحلام إلى ملاحظة صغيرة تركها همام في نهاية الرسالة**

**"وقد تركت لك عيديَّة بسيطة يا أمي، مبلغا متواضعا من المال "**

**جمدت أحلام في مكانها ووجمت**

**هي كانت تتمنى أن يكون ولدها مجاهدا**

**هي رَبَّتْ ولدها على قصة فتية أهل الكهف**

**هي تمنّت تحرير القدس والصلاة في مسجدها**

**هي دَرَسَتْ ودَرَّسَتْ الإيمان والصبر والابتلاء**

**هي عابت على الرجال نشيدهم على أطلال الأقصى وبكاءهم**

**هي ... وهي ... وهي ...**

**لكنّها تفاجأت تفاجؤ المؤمن بين يدي ملك الموت يقرأ عليه " أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ" فألم المعاينة المُرّ غير سكون الظلام الخادع .**

لم تُوظّب فراشه بل نامت عليه، لم تُغلق كُتبه بل قرأتها، لم تغسل ثيابه بل تَدَثَّرت بها، فَلم يبقَ لها من ذكرى ابنها، إلّا عبق رجولة مبكّرة، إيمان راسخ ومروءة عزيزة.

ارتبك الجمع وساد الصمت، فَما زالت أحلام تنادي عليه عندما يتداعى الأبناء للغداء، هل تنسى أم تتناسى ؟ الله وحده يعلم، لكنّ الجميع يعلم أن الشوق قتلها وقتلهم.

تحشرج صوت بُشرى وهي تتسلل بعيدا عن رفيقاتها الصغيرات، باغتتها أحلام في غرفتها وهي تحضن صورة همام، ومن بين النّحيب المتبادل سألت : متى يا أمّي ... يعود ؟ لم تملك أحلام أي جواب.

بكت الصغيرة في حضن أمّها بكاء صاخبا ، وبلّلت بشوقها صدر عمر "يا بابا .. أُريدهُ أن يعود" كَفْكَفَ دمعها البادي بِدمع مكبوت، أحرق الجوى وفتَّ الكبد "السلعة غالية يا بُنيَّتي فَربّما بعد القدس ... لا يعود"

بكت أحلام في حضن عمر بكاء حارا، وبكى عمر في حضن نفسه بكاء صامتا، ناولته أحلام رسالة همام الأخيرة، وكان كل الذي يشغلها، ويقلق كل موطن للإحساس أو الشعور في جسدها وروحها ونفسها، وداعها البارد له.

ردّد في نفسه وهو يقرأها " لا حكاية تُروى بِغير بِضعك، فالأحرف المجرّدة لا تُغني عن القارئ فهما ولا إدراكا، حتى

**تَحتُّ من قلبك ما ترصف به الطريق إلى القدس شَدْواً وألما "**
**.**

**من همام إلى عمر**

**" أيّها الأسد الهصور ... أبي الغالي، لا تجزع، فالله لم ولن يُضيّع لك تعبا، فها هي القافلة تسير، يُسلّم الراية فيها بعضنا لبعض ...**

**والولد عمل أبيه ...**

# اعبر حدودك (6)

**اختار همام مقعدا بجانب الشبّاك في مؤخّرة الطائرة حتّى لا يراه أحد، لِيعالج ما لا يعالج إلّا بالدموع، وقد انعتق أخيرا من العوالق والأثقال، كان يشعر أنّه كالجنين أوشك على الخروج من رحم أمّه، لا يصلح بقاؤه في الرحم وقد اكتمل نموّه وحان بعثه، مُقبلا على مخاض الولادة في أخطر مرحلة تمرّ به منذ كان نطفة، فإن طال مخاضه وعلق؛ انقطع نفسه، وتلف دماغه، فخرج مشوها معاقا، فكان يراقب نفسه مراقبة الطبيب الحكيم، لِيخرج سليما صحيحا، وقد خرج وهو يعلم أنّ معركة القدس معركة وجود وليست معركة حدود.**

**سألته المضيفة وقد رأته يبكي بحرقة وهو يقرأ رسالة عمر الأخيرة والتي لا رسالة ولا لقاء بعدها :**

- **هل يمكنني أن أخدمك بشيء ؟**

**ردَّ بصوت متهدّج تَهَدُّج الطائرة التي يطير بها فوق بلده طيرانه الأخير :**

- **لا شكرا، مجرّد أشواق وحنين.**

**تابع قراءة أوراقه المُبللة :**

**من عمر إلى همام**

**"استودعك الله الذي لا تضيع ودائعه وأسأله لك القبول والإخلاص، أي بُنَي، أسأل الله أن يحفظك ويُعيذك من الأسر والكسر،أي فلذة كبدي، كنت أتوقّع هذا اليوم وقد جاء مبكرا، فالحمد لله على فضله، أي حبيبي كنت أعلم أنّ رجولتك ستكون مُبكّرة، وكتبت ذلك منذ مدّة في رواية لم تكتمل فصولها بعد، ولا زالت تُكتب بالدمع والدم.**

**هي نفس واحدة يا همام فَلْتكن نيَّتك في إزهاقها جامعة، لِيكون لك أجر سجود البشر مع الكائنات ودخول الناس في دين الله أفواجا، واعلم أنّه لا عمل مقبول بغير نيّة سليمة، ولا نيّة مقبولة بعمل باطل، فاعلم موضع خطوتك قبل أن ترفع قدمك، وبِجلاء هدفك يكون ثباتك، واحرص يا بُنيّ على المتابعة، فما ينفعك عودة القدس وذهابك بعد ذلك إلى النار، فاجمع بينهما بتعلم دينك ليكون جهادك على بصيرة، واعلم أن أكثر الطرق التزاما بالشرع هي أقصرها لتحرير القدس وهي عند ضعاف الإيمان أكثرها استنكارا وغرابة، وليست المشكلة بضياع مفتاح القدس يا بُنيّ، إنّما المشكلة بمن يأخذه بحقه، ولا تحسبن جهادك يكفيك شرَّ وسوسة الشيطان، فقد عزم منذ تمرّد أن يقعد لك صراطك المستقيم، وبِتلبيسه عليك يكون ابتلاؤك، وإن كان حجم ابتلاء الناس مكيال فابتلاء المجاهد مكاييل.**

واعلم يا بُني أن النفس إن بُثَّ منها أخرى، لازمتها وجدا وحبا، فلا تقطع إحداهما واديا ولا تواجه موتا، إلّا والأخرى معها وإن تباعدتا.

أي همام ... إن التقيت بعد موتك بنبينا محمد - صلّى الله عليه وسلم - فمُدَّ يدكَ إليه مرّتين، مرّة عن نفسك، ومرّة عن من سار في الطريق يوما ثم كَبَّلَتهُ الأغلال التي، كسرتها بِعزمك وحزمك فمضيت، واعلم أن البذخ يُوَرِّث الدَعَة ويبدّد الروح، والحاجة تصنع الإنجاز وتُغيِّر التاريخ، ولا تنبهر بالكثرة، فَربّما تكون مجرّد زبد وخواء، والحشود كما الطغاة تعيق المسير وتحجب الأفق، واعلم أن الحقّ حتّى لو كان قليلا، كالوردة في بهائها وجلالها، إنْ قُطفت عن ساقها ذبلت، وساق الحق قرآن وسنة.

أي كُلَّي وبِضعي، اعلم أنّ لك أمّا لا كالأُمّهات، فلا تنساها من دعائك وأنت تضرب رقاب أعداء العزيز الجبار.

"أي همام

اعبر حدودكَ لَمْ يَعُدْ لي بكَ حاجة فالعبور بندقيةٌ ومدفع، والأمّةُ أُمَّتكَ وأنتَ حاديها المُتَرنِّم، أنتَ الحدود خلف الحدود وأنتَ المَعْبَر.

اعبر حدودكَ لم يعد لِحُلمِكَ في نومِكَ مُتَّسع، اذهب لا دنيا لك هنا ولا مغنم، امض، فأنت الأمل والمجد المُنتظر.

**اعبر حدودكَ ما عادت لِحدودك نهاية ومقصد، أنت أشواق الحق وصداه المتردد، أَحْيِ فينا الأمّة، وما يحيها إلا المُقَدَّم.**

**اعبر حدودكَ ولا تُعِر سمعاً فأنت الأعز الأكرم، واترك في قلوبهم ما خطَّ المستعمر، امضِ لا تنظر فقد خذلك الرهط المُتآمر.**

**اعبر حدودكَ فالأمّة أضاعها جمعٌ مُتَخبط، شياطينَهم ارجم نِعْمَ أنت الراجم، فقد قَصُرت غايتهم إنك أنت الرائد.**

**اعبر حدودكَ واثبت، فلست مِمَّن خرجوا وغَيَّروا، تحت أقدامك ذُلَّ اليهود وبُعثروا، اعبر فأنت غنيٌ عن أختامهم وأكبر، وللقدس أَوْصِل نداءَك أنّي قادم"**

**التفت همام إلى مساعد الكابتن - الذي كان يتجول بين الركاب يداعب صغيرا هنا ويُطمئن خائفا هناك ويعرض استعداده للإجابة عن أي استفسار - وسأله بعد أن جفف عينيه بمناديل شركة الطيران المُرفقة مع وجبة العشاء : "ما أصعب شيء في التحليق يا كابتن ؟"**

**فأجابه ببداهة مُتناهية : "الإقلاع"**

# بلاد العرب أوطاني (7)

**مسكينة القدس، ما عَزَفتْ على الأغراب لحنها، وفي خِدرها هي لم تَمَلَّ ، صوتها المُخْمَلِيُّ لؤلؤة مكنونة، ونسجُ عُرْسها حريرٌ لم يُمسّ، ثمانون عاما كلٌّ يزعم الوصل وما وَصَلْ، ومن روحها السامقة نحتوا هُبَل، وعلى أعتابه هتكوا شرفا ونحروا أمل، وعبد الحسين، والزهراء، والمهديّ، بُوصلتهم القدس ... وهي تلعنهم ولن تَكِلَّ، وفارسها المُدجّج بالعز طيفٌ لم يَصِل.**

تحت ظل السقف الضخم الذي ترتدّ فيه الأصوات، فلا يُميز بين موعد إقلاع أو هبوط، سوى النظر إلى اللوحة الإلكترونية التي رُكّبت حديثا على عجل لمواكبة التقدّم الذي تزحف إليه بلده زحف السلحفاة، في محاولة بائسة للّحاق بآخر ما توصّل إليه العلم الحديث من تقنيات، وفي اجتماع عائلي ناقص ، كَعادة الناس يجتمعون لِساعة أو أكثر مع المسافر قبل سفره، بِودّهم جميعا لو أنّ الساعة الكبيرة التي تعلو برجا من الخشب وُضِعَ في وسط قاعة المغادرين، بِودّهم لو أنّها توقّفت أو سارت بأبطئ سرعة ممكنة.

أكثر المتوتّرين أحلام، وزاد توتّرها تأخير عمر لهم في الخروج إلى المطار بسبب غِيباته المُتكررة التي لم يكن أحد يعلم أين يقضيها وفِيمَ يقضيها، فهذا الثاني والأخير من أولاد أحلام الذي ستفارقه في أقلّ من عام واحد.

كانت حريصة أن تضم صعباً ضمّة عميقة طويلة، فمنذ وداعها لِهمام وداعا باردا، على اعتبار أنّه سيعود بعد يومين، وهي تعيش أشدّ الندم أنّها لم تقف له يوم عانقها، وكانت كلّما تذكّرت الموقف أخذتها غشيةُ تُغيّبها عَمّن حولها، رغم أنّها بينهم يسمعونها ولا تسمعهم، يرونها ولا تراهم.

"لو أخبرني على الأقل لَودّعته بحرارة"

" لو خطر بِبالي أنّي لن أسمع صوته لِعام كامل، لَفعلت وفعلت ... "

**الوداع يستحضر الوداع ... والأحزان تجرّ الأحزان، أصوات الصخب في المطار تطغى على المشاعر والدموع، فلا يعلم بدموع أحد إلّا ذاته، ولا يسمع أنين الفراق إلّا المفارق عَينُه، طائرات تهبط وأخرى تقلع، وأناس يذهبون وآخرون يجيؤون، كلٌّ ومشاغله، كلٌّ ومطامحه، كثير منهم يريد الدنيا وقليل منهم يريد الآخرة، ولكلّ وجهة هو مُوَلّيها.**

**بُشرى التي اعتادت على كبت مشاعرها تتلهّى بِمجلّات يعرضها كشك صغير، كثرت فيه المعروضات والموجودات سخيفة القيمة باهظة الثمن ، تتظاهر أنّها لا تأبه لسفر صعب المزمع إلى بلغراد لإتمام الدراسة.**

**عمر، أحلام، بشرى، كلهم يُمَثِّلُون ويَتَصَنَّعون أنّ أشواقهم لِصعب المسافر، وفي ذهن كلّ واحد منهم همام المنقطعة أخباره، لو قُدّر لِمشاعرهم أن يكون لها صوت، لما سُمع للطائرات من صوت ولما كان للزجاج الطويل من مرأى ولا منظر، فَهدير مشاعرهم صاخب، وترقرق الدمع في أعينهم حاجب.**

**يفتعل عمر حوارا مع صعب للخروج من حالة الموت هذه، لا يتقن فيه فنّاً، ولا يقدر فيه إقناعا، إنّما واجب الأب يؤدّيه، نحو الإناث لإنقاذ الموقف من الانفجار، ونحو صعب علَّ كلمة تنفع أو نصيحة تجدي أو وصيّة تصل، ولذات نفسه يُنسيه كلماته الأخيرة التي كتبها لهمام يوم قال له "اعبر حدودك" فَينقذ نفسه بِصعوبة من ابنه همام بابنه صعب :**

**أي صعب**

**إنّي لَمن الأرق بمكان؛ لن أستطيع معه أن أبثَّ لك الأحاسيس والعواطف، إنّما هي كلمات ونصائح، تذكّرها وأنت مغترب في بلغراد، تدرس وتتسلح بسلاح العلم والمعرفة، وإليك يا بُني أن تكون من الأوائل في دُنياك وآخرتك، فاستمع :**

**أي بُني**

**تكون الأسباب أقرب إلى أغلب الناس من المُسبِّب، يؤمنون بالأثر الذي تراه العين أكثر من إيمانهم بما وراء الأثر ومسبّبه، وكما الأُلفة تُبطِلُ الروعة، فَمعايشة الأسباب تحجب بهجة الإحاطةِ بِسُننها، وبين إفراط وتفريط أُهمِلَت الأسباب أو قُدِّسَتْ ،يُمنَعُ عنك هدفك ومُبتغاك حتى تَرضخَ لِقوانين الحياة وسنن الله الغَلَّابَة ،وتُغلَق بِوجهك أبواب السماء حتى تَتفَكَّ عن الأسباب وتَجأر لربّ الأسباب ،فابذل وسعك، ثم بين يديه اسجد وتَبَتَّل ،على بابه اعترف وتمرّغ ،تحت ظلّ عرشه تَضرّع واسأل ،وارض بما قسم، فربّما تُباهي الخلائق يوم القيامة بما ادّخر لك.**

**الكمال ليس شرطا لتحقيق أهدافك يا بُني، ولا تكن كالقطيع يبحث عن الراحة في المأكل والمشرب فقط، ولا تنسى بلادك يا صعب، وتذكر القدس، وتسلّح بالعلم لتكون من فرسانها .....**

**تتدخل أحلام محاولة إسكات عمر، فيردّها ردّا جَلِفا، وكأنّها سبب كوارث المسلمين التي يتكلّم عنها.**

**تذهب بعيدا فَتلحقها بشرى، فَتنفجران بالبكاء، لا بكاء جلافة عمر ولا بكاء صعب ولا حتى بكاء ضياع القدس بل بكاء همام المكبوت.**

**يحاول صعب اللّحاق بأمّه فَيُمسك عمر بِيده مسك السجَّان للسجين : "اسمع فالكلام مهم ."**

**أي بُني**

**إيّاك والنساء فقد فَتَنَّ قبلك من هُم أشدّ مِنك دينا وأقلّ مِنك جاذبيّة، وأنت في أرض الروم، وقد غدت نسائها من بعد عفّة ألعوبة بِيَد الرجال، أغروها بالخروج وكشفوا من جسدها ما لم يكشفوا هم منه، سعيا لِمتعة رخيصة، أسْمَوْها حريّة وتحرّر.**

**يا صعب اعلم أن ما بينك وبين الغرق هو أن ترفع رأسك لا غير، أي بُني إنّما هو ربّك، عليك رقيب، وهو على كل شيء شهيد، ولن أُغني عنك ولا أمُّك من الله شيئا، أستودعك الله يا صعب، اذهب وودّع أمّك، أستودعك الله.**

**تُعانق أحلام وبشرى صعبا عناقا ثلاثيّا وكأنّهم في جسد واحد سكنت فيه روح همام ونفسه، يبكون جميعا.**

**النداء الأخير : طائرة بلغراد .**

**تنحني أحلام نحو صعب وتسرّ إليه بكلامات، بقي عمر يحوم حولها أشهرا ليعرفها، فلم يعرفها.**

**أحلام : استودعك الله يا صعب، دينك وإرث آبائك يا حبيبي، وتذكَّر أنَّك إنْ تجرَّدت من المبادئ، فلن يكفيك ورق الدنيا تخصف به سوءتك.**

**يلوح لهم بيده**

**مع السلامة ماما مع السلامة بشرى والجميع.**

**فارق صعبٌ وطنه بين وجدٍ كان يشدّه وبين مُستقبل أصبح يرجوه، ركب الطائرة واختار أقرب الكراسي للمقدمة حيث الخدمة السريعة، بِبشاشة أقرب إلى الضحك منها إلى الابتسامة، يتناول القهوة من المضيفة التي بشّت بِوجهه وهلَّت :**

**المضيفة : أراك فرحا مسروا !**

**صعب : وهل أجمل من مغادرة هذا الجحيم الذي يسمّونه ... بلاد العرب أوطاني .**

# الجدران

# التدلِّي في البئر (1)

**تتدلّى وحدك في البئر، يهوي بصرك في قعره السحيق، لا ترى نهاية لليأس ولا حدّا للقنوط، تُدرك أنّك الضعف عينه، تُبصر حقيقة نفسك الأمَّارة، كم غفلتَ عنهُ أيّام الرخاء، كم ناداك فولَّيتَ مُستَوِفا، تكاد يديك تُفلت الحافَّة، فَيسبق فضلُ الكريم كَعهده، يمُدُّ إليك حبلهُ المتين، بين يديك يضعه منَّةَ وفضلا، يحيل يأسك صبرا، وقعر بئرك أملا فسيحا.**

**ربّما كانوا مخترقين بعميل لليهود، وربّما اعترف عليهم أحد السجناء تحت التعذيب، أو أنّ أحدهم باع القدس بثمن بخس، أو لعلّها الصدفة التي دَلَّت اليهود على مأمن همام وصحبه، فأحاط بهم الجند بغتةً من كلّ مكان.**

**يخاطب همام نفسه : " وكأنّك غارق في تفاصيل فلم رعب بأحداثه غير المتوقعة، كلّ محطّة منه تهوي بك إلى هُوّة سحيقة من مراتب اليأس، وتصبح معلّقا بين الحقيقة والخيال، كلّ جزء فيك يدعوك للإنكار، هل هي النهاية ؟؟ هل هي المخاوف العتيقة وقد أصبحت حقيقة ؟ بقيّة عقل واعٍ فيك يخبرك أنّه واقع، لكنّك ترفض، كَرفضِ المُنْكِر؛ أحبيبه مات وفارق الحياة أم هو حيّ يرزق ؟؟ بينه وبين الهلوسة شعرة، إمّا أن يتقبّل حقيقة فراق فلذة كبده وقرّة عينه، وأنْ لا مجال هناك للقاء بعد اليوم، وأنَّ استغاثته بالأوهام واستعانته بالخيال لن تجدي معه نفعا، أو أنْ يواجه الحقيقة !**

**فهناك في الوهم ستقضي بقيّة حياتك على اتّصال مباشر مع من فقدت، تراه في صَحْوك وفي نومك، كلُّ من حولك يتساءلون، إلّا أنت : "هل جُنَّ الرجل ؟؟؟" وأنت في غيّ الإنكار سادر.**

**وهنا ستواجه الحقيقة المؤلمة ، الحقيقة التي تبتلي كلّ جزء فيك وكلّ ذرّة ، الحقيقة التي تختبر فيها كلّ ما تعلمت وكلّ ما قرأت، الحقيقة التي لن تعدو كونها عنق زجاجة لا بُدّ لك من الخروج منه، حتّى وإن ضاقت أنفاسك فيه واختنقت، حتّى وإنْ**

**توقَّفتْ نبضات قلبك، وما عاد عقلك قادرا على تحمّل هذا الحمل الثقيل، حظّك من الأسباب وقد اجتمعت عليك"**

**يتساءل أحد رفقاء همام : أَكان بالإمكان تجنُّب ما نواجه عيانا ؟ بماذا أخطأنا ؟ وأين كان المنفذ الذي من خلاله سقطنا وأُسرنا ؟**

**يردّد همام الجواب في نفسه : "ربّما تُبَرِّئُ نفسك وتلقي باللوم، كأنّه دنس جسدك بعد إغتسال من الخطايا، على فلان وعلّان ، لو لم يتكلّم فلان لما كنت هنا الآن، ولو أن علّان كان عنده الحدّ الأدنى من الوفاء لما قال ما قال، ولو أن الرجولة بقي لها عند الرجال حظٌّ لما دفع كلٌّ اللوم عن نفسه بِإلقائه على الآخرين."**

**يتجدّد عند المعتقل في بداية استفاقته من صدمة الاعتقال، صراعُ "الطيِّبَة نفوسهم" مع ضدها وعكسها، تلك الطيبة التي ورثها همام عن عمر وطاهر وسليمة، فَيُظهر أسوء ما فيهم، إنّه نيوتن وقد تجلت نظريته بأبهى ما يمكن، فَكما أنّ لكل فعل ردّ فعل ، وكما أن لكلّ الأشياء أضداد توازيها، وقوّة تعاكس اتّجاهها، فلن يكون ضِدّ الطِيبَة السارحة الناثرة شدوها إلّا الغضب الموجّه المركّز، إنّها المعركة التي يخوضها الطيبون مذ شعروا بالتغرير أول مرة، يوم خاب ظنّهم في التجربة الأولى، فهم لِطيبتهم لم يتوقّعوا يوما أنّ هناك في الحياة شيئا ضدّ البراءة ، وأنّ في النّاس من يتنفّس غيرها، لكنّ الطيبة الغضّة تغلب الشقاء الغضّ منذ بواكير التشكّل والقولبة، وكلما**

مرّ على هؤلاء الزمن، وكلّما ردحت بهم الأحداث ردحا ، كلّما اشتدّت الطيبة وقوي عُودها، وعلى الضدّ من ذلك كبر فيهم اللؤم الكامن، وبقي صراع "المَسْك أو الإرسال" مُعَلَّقَا مع الأيّام، هم أعرف الناس بالمثل القائل "احذر غضبة الحليم"، فإنّ الحليم بِغضبه يُخرج أضداد الطيبة والتسامح المكبوت منذ سنوات العمر الغابرة، ومنذ ضحكات النصابين عليه يوم غُرر به ذات ربيع ، ومنذ اكتشافه للمصالح التي كانوا يتقربون بها إليه، لا لِصداقة تُرجى، ولا لِروح تآلفت، إنّما لِحاجة مُرجاة وبضاعة مُزجاة، وكان همام في كلّ مرّة ينتصر، ولكنّ أصعب ما في هذا الانتصار هو شعور خصومه وقناعتهم المتعاظمة أنّه أهبل، كان يمتلك الرد، وعنده الحُجَّة، ولم تنقصه الوسيلة، لكنّ نفسه السامية كانت تغلب، وهم في وهمهم يعتقدون أنّهم هم الغالبون ، كم غاظه هذا الشعور وكم ساءه هذا التعالي، لكن لذّة المنتصر على الضدّ بداخله كانت تطغى ، لا يوازيها في ذلك إلّا لذّة الفاتح المنتصر يوم هزم العدو، وصنع المجد، وحفظ البيضة، وأقام العدل، يتردّد صدى الرضا في نفسه تردّد هتاف المصفقين له يوم نصره ، ويلمع بريق الألعاب النارية في عينيه وقد أُعْلِنَ القائدَ الملهمَ وصانعَ التاريخ والمجد التليد.

صراع يقف بِهمام على الحافة، وقد واجه أكبر مخاوفه، وملحمة ذهبت به أبعد بكثير ممّا كان يظنّ نفسه قادرا عليه، يغالب إقراره بالحقيقة والاعتراف بأنّه قد وقع، وأُسْقِطَ بخلاف حذر السنوات السابقات، ودهاء التجارب الماضيات، وعلى

غير اجتهاد ذكاءه في الحالكات، يغالب ذلك الاعتراف بإلقاء اللوم على الآخر وشتم جدّهِ السابع.

فإمّا أن يعيش الوهم، فَيصبح ليله ونومه في نهاره، حياته الهانئة، وصحوه فقط للحاجات البيولوجية لا غير، ولا حاجة هناك لمن يلوم، ولا مكمن هناك للندم، فهو في سُكْر النوم ثَمِلٌ سكران. وإمّا أن يجعل نهاره نهارا وليله ليلا، يواجه في كليهما الضد بداخله، يغالبه بالطيبة التي وإن كانت متجذّرة كالليث الذي ما مَلَكَ إلا بندوب معاركه وجراح أيامه ، وقد وَسَمَتْهُ شاهدة على هزيمة نوازعه وأضداده وَتَأَسُّدِه متفرّدا منتصرا على نفسه الشقيّة، إلّا أنَّ غريزة الافتراس ملازمة له، لا يدري متى تخرج الحَيَوانيّة منْ داخله عن السيطرة، ويؤذن لها بالسيادة.

أخرجوه من الحافلة يشتمون ويسبّون ويكفرون، أخرجوه وفي صندوق مصمت يُسمى زنزانة إنفرادية، لا يتسلل إليه أيُّ بصيص من أمل، ولا يخرج منه أيّ قَبَسٍ من نور، لِتِسْع سنوات وضعوه، بعد أن عرَّوْه كَيَوْم ولدته أحلام، إنها الكرامة - التي أملى عليهم إدراكهم لِخطورة ما يحمل - أنْ يُدمّروها، إنّها لعبة الإخضاع منذ إبليس، يوم أراد إخضاع آدم بكشف سَوْءته، إنّها مربط الفرس في لعبة الصراع اللحظي المتجدّد المُقبل، فَكلّ ما سيحدث لاحقا إنّما هو لِكسر الهامة وقتل النفس التوّاقة، إنّها اللحظة الأولى، وصبر الصدمة الأولى، وقد شاءت حكمة القدير ألّا يَبْتَلِيَ عباده بشيء، إلا وقد أراهم أنّ غيرهم من البشر قد عبر هذه القنطرة، وتجاوز هذا الابتلاء،

**فالمريض لن يبلغ ابتلاء أيّوب، والفاقد لن يبلغ إبتلاء يعقوب، والغريب لن يبلغ ابتلاء محمّد، فسبحان ربّهم هل كانوا إلّا بشرا رُسُلا ؟**

**فَتَتَنَزّل السلوى على همام وأصحابه، بإبراهيم وقد عَرَّاهُ قومه على الملأ لِيلقوه في النار، فإمّا فناء يواجه به همام كلّ مخلوق، فلا يرى أمامه إلا الخالق مردّدا أنّي مغلوب فانتصر، وإمّا عُريّ يتبعه الإخضاع القادم بكلّ سكنة وبكلّ لحظة، هي لحظة فارقة، تلي صراع الرضا وصراع الطيبة الأوّلَيْن، إنّه صراع الشموخ؛ الذي يجعل الصندوق المُصْمَت روضة من رياض الجنة، ويجعل النار الآتية بردا وسلاما من لدن رحيم ودود.**

**فأوّل الغيث قطرة يا همام، هي تَغْشَاكَ بِجدرانها، أُريدَ لها أن تُحاصِرك، حديدُ أبوابها لِيَقّلَ حَدَّك، عتمة إضاءتها لِتُطفئ نُورك، يُقَدِّرُ الله لكَ أسباب وُلُوجها، يُهرولُ إليكَ إن أنتَ إليه مشيت، يصنعك على عينه، لِيكسر بكَ قيداً أو يُظهر بك أمراً، فاسجد فيها سجودك ... ثمّ تبتّل.**

# الفرصة (2)

**ليس الإنسان ذاك المخلوق المُكَوَّن من الدم واللحم فحسب، إنّما هو الوعاء وما حوى، فإنْ أكرم المحتوى بِجِدّه واجتهاده فقد سما بنفسه عن ارتكاس الكائنات الأرضية إلى ذلك المخلوق الذي أكرمه الله تعالى وحمله في البر والبحر ليقوم بالأمانة ويُبلِّغَ رسالة السماء، يُنازع الإنسان داعي الجسد والطين كما ينازعه مطلب الروح والدين، وفي غمرة الكدّ والكدح يَتَفَضَّلُ الله على عبادٍ يصنعهم على عينه، يخرجهم من ضيق الدنيا إلى سعة العزلة والخلوة القسرية مع الله، لو عرف الواحد منهم حاله بعد حين، لما سمعت له في آنه أيّ أنين.**

**فالمنحة تولد من رحم المحنة، والخلوة إن كانت تحبس الجسد فإنها تحرّر الروح لتنطلق في الملكوت مُسبّحة مُتفكّرة ،مُستدبرة ضيق الدنيا وكدّها، مُستشرفة سعة الأمانة وتبعاتها، تُحطّم القيد، تبتغي الوسيلة ... أيّها أقرب**

**يتساءل همام في نفسه**

**هل هي فرصة أم أنّها محنة ؟**

**ليس من السهل مقابلتهُ، فَمُحَيَّاهُ مُرهب، وَطَلَّتهُ لم تكن يوما من الأيّام بهيَّة، هو من ذاك النوع الذي يَسُدّ النفسَ مَرْآهُ، إن وقفتَ أمامه يتبادر لذهنك السؤال الأبدي "هل ما فعلتُهُ يستحق عناء مرافقة هذا الحائط ؟".**

رفيق يلازمك لا فكاك عنه، يحيطُ بكَ من جهاتك الأربع، يُرتِّل على مسامعك سؤال الجغرافيا الكريه : ماذا يَحُدّك ؟ يُجيبُكَ قبل أن تنبس بِبنت شفة : يَحدُّ حضرتكَ من الشمال حائط، ومن الجنوب حائط، ومن الشرق حائط، ومن الغرب حائط، ومن أسفل منك حائط، ومن فوقك حائط.

كانت دروس الجغرافيا ومعها التاريخ أيام المدرسة من أمقت المقرّرات إلى همام، وأستاذها من أمقت الأساتذة إلى نفسه، خاصة إن لازمها درسٌ وامتحان، ثم ما لَبِثتْ أن أصبحت ممتعته عندما اقترفها رغبة ومطالعة، أما بين الحيطان الأربعة فإنّ التاريخ والجغرافيا ومعهما الدين، يُصبحون تحدّياً ومعركة، وهو بينهما على المحكّ.

في السجون المفتوحة والمهاجع الجماعية بين أربعة حيطان، يكون الجمع غفيرا والمساحة شاسعة يحتاج فيها الطَّرْفُ السارحُ إلى فترة قبل أن يصطدم بحضرته حائط قابع في آخرها، أمّا في الصناديق المصمتة فتختلف الأمور، فقد نَقَصَ بعضُ الجمع وتقلّصت معه المساحة واقتَرَبتْ فيه الحيطان، علاقة طرديّة عجيبة بين عدد السائرين ومساحة الزنزانة، خاصة إن أصبحت إنفرادية، كما هي عكسية بشدّة أيضا مع الوقت، فمروره السريع وعدم توقفه، ترك كثيرا من الجمع إمّا على رصيف التراجعات والسلام مع العدو أو على أعتاب الدَّرَكات، آخذا معه بقيّة الأوّلين إلى مساحات أصغر فأصغر.

**يُقال أن الزواج من الثانية صعبٌ جدّا، لكنّه إن تم ... ينفرط العقد، وكذلك الحوار مع الحيطان فبعد اللقاء الثاني معه "تفرط المسبحة"، فينتهي بك المطاف تكرارا وجه لوجه أمام أربعة حيطان مجتمعين، تعدّدت أسباب جلب الثائرين والمواجهة واحدة، كل حائط يريدك لنفسه، مستحوذا عليك يحطّمك، يقترب منك في كل مرّة أكثر فأكثر، مغلقا أمامك أيّ أفق منظور، ماسحا فيك كلّ أمل فسيح.**

**لكنّ الله يأبى ... لأنّها لو كانت تساوي عنده جناح بعوضة ما سقى منها كافر شربة ماء، ولَجعلها لعباده الصالحين ، ولأنّه ربّ النّفس وربّ الجسد، ولأنّه الرحمن الرحيم، فإنه لا يجمع على المؤمن ضِيقين، فإن حُبس الجسد ساحت النفس في الملكوت، وإن اجتمع الملأ عليه يحرقونه فإنّ البرد والسلام يَتَنزَّلان، وإن ضاق الكهف بِأهله رُتِّلَتْ الأنفال ... فَفُتحت المدائن.**

**تساءل أحد المساجين من وراء حجاب ... أين هي تلك الجدران ؟ هل أغنت عن أحد ؟ وهل يا ترى منعت ضياء ؟ أم تراها حجبت شموس ؟ وكتب آخر على الجدار... لعلّ حُلما جميلا يساورك في ليلة من ليالي شهرزاد، فإن حَدَّثتَ فيه نفسكَ بالتعدد كالرجال، فهي كلمة سواء، وطعنة نجلاء، اضرب بها عرض الحائط وقل له "إني لا أراك" ... يحدّني من جهاتي الأربع سماء ولا غير السماء، وفوق السماء ربّها لا ربّ سواه، ودَعْكَ من الأعتاب والأرصفة وإن تداعى عليها جمع،**

**وتزاحمت عندها أقدام، وارْنُ إلى السماء ولو كنت وحدك وضاقت عليك جدران.**

**فَليس الزَبَدُ وإن كثر بمُنْتَهَى ... بل هو الماء العذب الزُلال ... وحوض نبينا صلى الله عليه وسلم**

# الصقل (3)

تعلّم همام في سجنه ما لم يتعلّمه في المدرسة، وما لم تُحط به دروس أحلام وتجربة عمر، فالسجن جامعة تجمع الأجساد والنفوس والتجارب والمحن والإحن، وهناك أعاد النظر في كثير من النظريّات التي ما تلبث تسقط إذا ما عركها الواقع عرك الأديم.

حال بعض المساجين في السجن كحال الكثير من الناس الذين يعتبرون النصيحة - وإن لطفت - اتّهاما لشخصهم الكريم وانتقاصا لمكانهم الرفيع ، يُمضي الواحد منهم عمره رافضا الاستماع لمن هو قرينه، أو حتّى من هو أعلم منه، فيكون حاله حتما مع من هم دونه، مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ، وعندما تلمّ به الملمات وينفرد في صندوقه المُصْمَتْ وزنزانته الانفرادية، ويكون أحوج ما يكون إلى النصيحة، لا يجد ناصحا من الذين أوصلهم هو بيديه إلى نتيجة حتمية، أنّه من الذين لا يحبون الناصحين، فيتركونه وحده يتخبط بما زرعت يداه، يحصده شوكا حين لا ينفع الندم، وقد أصبح عرّاب التراجعات، ومنظّر الانتكاسات، وداعي السلام مع العدوّ المحتلّ الغاصب. هو في ذلك، كالذي يختار لنفسه مسارا مخالفا لشرع الله وسننه، اقتضت السنن أن نتيجته خسارا

**ووبالا، فإذا ما وصل إلى مفترق طريق : تَخْطِئَةِ نفسه أو تَخْطِئَةِ الشرع والسنن، اختار تبرئة نفسه واتّهام الشرع، تأويلا فاسدا وتسلّلا مواربا، فيدخل في مسار جديد من الفشل، وعند نهاية الطريق يكرّر مصيبته ... وهكذا دواليك. حتّى ينتهي به المطاف مُنسلخا عن كل مُحْكَم طيب، مرتكسا بِكلّ خبيث متشابه؛ لأنّه كان ولا يزال لا يحب الناصحين.**

**كان همام يستسهل التنظير وإصدار الأحكام، فما أيسر أن تنعت فلان بصفة هنا أو لقب هناك، حماس الشباب الذي يُغرقه بأوهام القُدرة على فعل أيّ شيء، وبأيّ وقت شاء، وبالكيفيّة التي تخطر على باله، يخلق لنفسه عالما من الخيالات عن بطولات أبي زيد الهلالي وانتصارات سيف بن ذي يزن، فعادة الشباب ألّا يقتنع بخبرة الشيوخ ولا يعتبرها ذا مغزىً كبير، فتراه وإن رُبِّيَ على أنْ يُظهرَ لهم احتراما وتقديرا، إلّا أنه يَسْتَخِفُّ آراءهم التي تخالف قناعاته، خاصّة في فَوْرة النهوض وبدايات التشكل والقولبة، ويغفل أن الكبار مرُّوا بها من قبل، ولدغتهم بِسمِّها، وذاقوا مرارة طعمها من قبل أن يتمتّعوا بنعيمها الزائف أو لذّتها المؤقّتة، حالهم كَحال الطفل في بدايات مراهقته واكتشافه للجنس الآخر وأسراره، يوم ظنَّ نفسه المكتشف الأول، والرائد الأوحد، يغوص بِـ"ولدناته" مُغَيَّبا أن والديه على علم كامل بِكلّ حركاته وشرّة شقوته.**

**ربما تواضع همام لذلك، فالسجن يستنطق في الشباب أحسن ما فيهم، بخلاف دَعة الرخاء، التي لا يتواضع فيها هذا الصاعد نجمه، إلا في نهاية شبابه، وبدايات كهولته، يوم يرى**

طباع أولاده تغلبهم، وكيف بدأت معهم منذ نعومة أظفارهم، يستوعب حينها ما تداوله البشر منذ فجرهم الضارب في القدم أنّ : "الطبع غلاّب" وأن "الطبع غلب التَّطبع" وأنّ الله خلق الناس من معادن متباينة وطينة مختلفٌ ألوانها، ويَسّرَ كلا لما خلقه له، فهذا الكريم وذاك البخيل، ومنهم الشجاع وفيهم الجبان، ومنهم صاحب الخلق الرفيع، وقليل منهم يتميّز بالحلم والأناة، ومنهم النرجسي اللئيم، أو الحقير السافل.

كان همام يظنّ لِقلّة تجربته أن هذه الصفات كلها مُكتسبة، وأنّ الشخص يملك نفسه كما يملك جسده، لكنّ الأيام أثبتت له أن من الطباع والأخلاق ما هو مكتسب، ومنها ما هو خُلُقٌ وَصِفة، نزلت مع الجنين من بطن أمّه، ويدرك مع ذلك، أنّ ميزان الحكم على الأخلاق والقيم ميزان ثابت، فلا عذر لأحد بالجينات والموروث، حتّى لو ورث صفاته أبا عن جَدّ، إنّما هي معركة همام اليومية، معركة يخوضها البخيل ليكون كريما، ويخوضها الجبان ليكون شجاعا، كما يخوضها اللئيم ليكون طيّبا، على الضد من الطيّب الذي يخوضها لكي لا يكون "أهبلا"، كما الشجاع يخوضها لكي لا يكون متهوّرها ... وهكذا دواليك، ليجتمع الناس على الميزان العدل الوسط الذي جعله الله دينا قيما للعالمين، كلٌ يقترب ويبتعد بقدر مجاهدته لنفسه وتقواه لربّه، وعلى ذلك يحاسبهم الله ربهم.

وقد أدرك همام كونه عبدا لربّ أنزل أحسن الأديان خاتما لميزان الشرائع والأخلاق أن "موضة" ردّ صفات البشر السيئة والشاذّة إلى الجينات، والانتقال بعد ذلك من تصنيف

الشذوذ الجنسي إلى أنه مثليّة طبيعية مردّها جينات موروثة، وأنّ لمشتهي الأطفال والحيوانات دوافع أوجدتها الطبيعة فيهم، هو يدرك أن هذه وغيرها إنّما هي مجرّد حلقة من حلقات مسلسل الانسحاق في أسفل السافلين، يوم تمرّد البشر على شريعة ربهم، فأباحوا المحرمات لتلبية شهواتهم تحت ستار الطبيعة والحريّة والتقدّم، فَعَرُّوا المرأة للتلذّذ بالنظر إليها ، وارتكبوا الربا ليملؤوا أفواههم بالذهب، وما تركوا من شهوة من شهوات فروجهم وعقولهم وأنفسهم إلّا ووجدوا لها المخرج لتكون حلالا زلالا عليهم، يُقنّنونها بما يرفع عنها العقوبة الدنيوية ولينفذوا من لوم الناس والمجتمعات، وتأنيب الضمير.

وقد رأى همام بأمّ عينه ذاك الذي تَطبَّع بغير صفاته، أو أنّه أظهر للناس ما لا يبطن، أنّ الزمن كفيلٌ بأنْ يكشف كذبه ويعرّي حقيقته، وما لم يُكشف في الدنيا، فإن فتنة عَرَصَات يوم القيامة كفيلة بكشفه وعلى الملأ، والسجن كَشَفَ له أنّ سنة الله اقتضت أنّ كثيرا ما يظهر الناس على حقيقتهم في الدنيا ترتيبا أوّليا، حتّى لو كان ذلك في آخر يوم من حياتهم يوم لا يكون بينهم وبين الجنة إلّا ذراع فيسبق عليهم الكتاب ويُفتَضحوا.

وللسجن والحبس في هذه الفتنة وفي هذا الصقل اليد العليا، وكأنّ من سنة الله أن يُصَفِّي بها عباده ويعلمهم ما لا يتعلّموه في غيرها، وقد أدرك همام أن فتنة السجن لا تقلّ عن فتنة النساء ولا فتنة المال ولا الجاه ولا المنصب ، ولعل لها

**النصيب الأكبر من فتنة بارقة السيوف، فكم من مدّعٍ متسلق، سقط من الليلة الأولى، وكم من مدفوع بالأبواب صمد حتى الرمق الأخير،**

**فالسجن يكسر كِبر أُناس**

**ويصقل تميّز آخرين.**

# رسمتُكِ على تختي ونمتُ (4)

أمسك همام بالقلم واختصر ما لا يُختصر، فأسهب، فالسجن لِخمس سنوات لا يمكن اختصاره بسهولة، لكنّها المرّة الأولى التي أُتيحت له الفرصة لِيكتب رسالة إلى أهله، فَلم يتردّد، فكتب إلى أحلام :

"أمّي .. رسمتُكِ على تختي ونمت، وبحضنك الدافي سكنت، وفي عتمة السجن والقهر تذكرت، فبكيت .. ثمّ بكيت، أمّي .. يا أميرةً ضائعة، ووردةً بيضاء ذابلة، أمّي .. يا من أرَّقَها دَمعها، وفرحت بصغيرها، ربَّتهُ لِيَكبر، وعلّمتهُ لِيفخر، جاعت ليشبع، وعطشت ليرتوي، فلمّا أزهر وحان القطاف .. هاجر وأُسِر، وفي سجون أخسّ البشر .. عُذِّبَ وعُذّب.

أمّاه .. أمّاه .. أَترى بقي منك ما بقي مني ؟ أم حل بك ما حل بي ؟ أشَكَاكِ السَهرُ أم شَكيتيهِ ؟ أمّاه ..لست ذاك الفارس المغوار، ولا البطل المقدام، أسروني لأنّه في يوم من الأيّام كنت كباقي البشر .. أُفكّرُ وأحلم، أمّاه .. كل ذنبي أنّي تمنّيت .. أنْ أنصر أمّا في بلاد المسلمين كأمّي، وأختا في غياهب الأسر كأختي، فانتهى أمري .. هنا."

بِلهفة تقرأ أحلام الرسالة تَغُبّها غَبّا، وكأنّها ماء نجاة بعد عطش صحراء مُهلك ومُميت

"هنا .. حيث نُزعت الرحمة من القلوب، وبِجُلود البشر عَوَت الذئاب، هنا .. حيث تنعدم النهايات، وتُنسى البدايات، يَأْفني القهر إحاطة السوار بالمعصم، وأدوس .. هنا .. بِقدميَّ الحافيتين رفات السابقين إلى حتفهم البائس المحتوم، هنا .. حيث لم يمدّ البشرُ إليَّ حبل النجاة، وحيث لم أرَ الضوء في آخر النفق، إلا ضوء قطار يسير عكس اتجاهي، يسحق إنسانيّتي، ويُهدر فيَّ الوجودَ المتبقي من الوجود، هنا .. يا أمّي يسدل المقهورون أستار ما كان يسمّى يوماً حياتهم، يُخيَّل لِمن رآهم، أنّه من أجلهم سيُغرق الله الأرض بمن عليها، هنا .. أيّتها الغالية يكون المرء في العشرين من عمره، وهو مما يكابد قلبه في السبعين من عمر قلبه .. أو أكثر."

كان ما يقع من نظر أحلام على رسالة همام نبرات تسمعها أذُنها، لا أحرف تبصرها عينها، فاستغرقت في قراءتها أياما وليال، وأعادتها مرّات ومرّات، وفي كل مرّة وجدت ما تجد الأمّ تجاه ولدها، حبّا وحنانا وشفقة، بِودّها لو أنّ لها دعوة واحدة مُجابة تفدي هماما بنفسها، وتمنّت لو أنّ يد القدر اختطفتها قبل أن تولد ويولد فلذة كبدها، تتسمّر واجمة عاجزة عن فعل أيّ شيء يُخفف عن روحها التي سكنت جسد همام لا جسدها.

"أمّاه .. حبيبتي .. أحلامي ويقظتي، أعرف كم هو مؤلم، لكنّ السر ألّا أهتم ولا تهتمي أنّه مؤلم، لكنّ ذلك صعب ..

**صعب يا أمّي، فَهُنا يا أمّي .. وفقط هنا .. يُسَاوَمُ المرء على أعزّ ما يملك ويعتقد .. ربّه ودينه وأرضه.**

**أمّاه .. في عتمة الليل البهيم صلّيت وناجيت، وبين يديّ الرحمن انتحبت، وبِضعفي إليه تقدّمت، وعلى عتبات بابه تَذَلّلت، ورجوته ورجوت .. ثم رجوته ورجوت، ربّاه وخالقي يا عالماً بحالي وضعفي، أُغلقت الأبواب وصُكَّت الطرقات، ولم يبقَ إلّا بابك، ربّاه إنّك تعلم أنّي أنا الضعف السرمدي، وأنا الفقر الأزلي، ربّاه طال شوقي لِحضن أمي وطال شوقها، وعاش الموت فِيَّ، وعاشت هي فيه، ربّاه يا عالما بِكل ذرّة، في كلّ جزيء، في كلّ صخرة، على كلّ كوكب، يدور حول أيّ نجم، في كل مجرّة، في أي مكان من فسيح خلقك البديع، ربّاه .. إنّهم يساومونني عليك إلهي، يا ربّ .. ليس بيني وبين الخروج من السجن، وأن أُبعث من جديد، إلّا أن أُقرّ لهم كما أقرَّ الكثير أنّك إلهٌ في السماء، ولست إلهاً في الأرض، وأن أُسَلِّمَ لهم أنّهم أصحاب حقّ فيما اغتصبوه من أراض وبلاد، ما الذي نقموه .. ما الذي نقموه مني ؟ أَلأنّي قرأت عليهم (وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ) ، يريدون الأمر لهم من دونك ربي ؟ أَأقرّ لهم أن معك آلهة أخرى يحكمون ويُشرّعون ويُحلّلون ويُحرّمون ؟ ربِّ ارحم ضعفي .. فليس بيني وبين تنشّق الحرّية إلّا بضع كلمات، يُزيّنونها لنا ويُرتّلون على مسامعنا .. أنّها تراجعات !! وبضع كلمات !! سلام واتفاقيّات ..."**

**لم تترك كلمات همام لأحلام من معاني وتجلّيات الحياة في لحظتها الراهنة إلّا روحا سارحة ونفسا ذاهلة، وعينا تنظر ولا تُبصر، وأذنا تسمع ولا تعي، تتابع كلماته شاردة ...**

**" أَتراجع ؟ أَأقرّ لهم أنّه ليس زمان الجهاد ؟ والحبيب عليه السلام قال : "لا يزال الجهاد حلواً أخضر ما قطر القطر من السماء وسَيأتي على الناس زمان يقول فيه قرّاء منهم ليس هذا زمان جهاد فمن أدرك ذلك الزمان فَنعم زمان الجهاد، قالوا : يا رسول الله واحد يقول ذلك؟ فقال: نعم من عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين"، قُرّاء الأحزاب والمُنظَّمات .. تتهافت على السجون، تنازعنا ديننا، فمنَّا المنتكس، ومنَّا عمار بن ياسر مُطمئنّ القلب يُسمعهم ما يرضيهم، ومنَّا بلال بن رباح هانت عليه نفسه، يقذف بها وجوههم .. أَحَدٌ أَحَد .. أَحَدٌ أَحَد، لطفك يا ربّ، حبلك المتين يا ربّ.**

**أمّي .. أو أيُّ أمٍّ .. إنْ وصلتك رسالتي هذه، فإلى الملأ .. قولي :**

**لقد عثرت بغلة ابني في الطريق إلى القدس، فهل أنتم السائلون عنها ؟ أم بين يديّ الله أنت المسؤولون ؟ أيا عباد الله اتقوه؛ فهو ناصر المظلومين وقاصم الجبارين.**

**واسألِيهم أمي .. عمَّ تراودوهم وعلامَ تنقموا منهم ؟ .. أن آمنوا بالله العزيز الحميد !! واحتسبي .. لما في غياهب**

**السجون تركتموهم وبالسياط تُناقشوهم .. وهل اتّسعت حريّة فضائياتكم لكلّ زنديق فاجر وضاقت بِكلّ أسير صادق ؟**

**وأنكري عليهم أمي .. أ قرابيا تقدّموهم على مذبح السلام ووسطية الانهزام ؟**

**وذكّريهم أمّي بِشِعْر أجدادهم .. "دع المكارم لا ترحل لِبُغيتها ... واقعد فإنّك أنت الطاعم الكاسي" .. أو .. قولوا فيهم كلمة حقّ ترضي الربّ وترفع الظلم، فالرجولة ثبات والمكارم موقف.**

**وإن نسوا أمّي فاعلميهم .. أنّ حاكمَ اليومِ محكومُ الغدِ، فالأيام دول .. والتاريخ عبر.**

**وأقيمي الحُجّة عليهم أمي .. أنَّ أعراضنا انتُهِكت في سجون أخسّ البشر وأكذب الخلق. "**

**أطرقت أحلام ساعة ذهبت نفسها فيها كل مذهب، فأعادها خطابُ همام لأمَّتَهُ ...**

**" ... وعلى لساني يا أمي خاطبيهم .. هل حدّثكم أحد أنّنا ننسى ؟ لا والله لم ننسى ولن ننسى.**

**وبِلسان الأسرى أمّي ألجميهم .. أنّه إن وُجِدَ فينا عمّار بن ياسر**

**فإنّ الكريم إذا انحنى لا ينحني .. إلّا لِيزرع (....) " تمّت**

**ربّما شطبت إدارة السجن الكلمة الأخيرة وربما لم يكتبها همام أصلا، فقد أعيته كتابتها وإخفائها عن أعين إدارة السجن، دون الألغام الأخرى المزروعة برسالته الأولى والأخيرة، وتمكّن بِشيء ورثه عن عمر في فنِّ الكتابة أن يُمَرِّرَ ما مَرَّر فيها.**

**لم تدرِ أحلام هل تفرح لمعرفة أنّ ابنها حيّ بعد انقطاع الأخبار وتبدّد الأمل لخمس سنوات مضت ؟ أم تبكي لحال ابنها في السجن ؟ فَفرحت يوما وبكت أيّاما، واستبشرت ليلة، ويئست ليالٍ، وكلّ يوم يمرّ عليها وهي على قيد الحياة يأخذ من عمرها سنوات، غارت العيون واسودّت الجفون، ونسيت أنّ هناك شيئا يرتسم على الوجوه يسمّيه البشر .. ابتسامة. ولم يراها أحد تبتسم إلّا إذا تكلّمت مع صعب في بلغراد، أو سَرَّت عنها بشرى بِنكتة هنا أو مزحة هناك، أما عمر فكان حظه من كل هذا النكد .. نكد.**

# الفتح المبين (5)

**اعتاد على سواد الشعر فَفُتن بشقاره، أَلف البشرة الحنطية فَذهبت الذهبيّة بِعقله، أدرك الآن لِمَ سمّوهم بني الأصفر، يُغالب حاضره بِماضيه، يستحضر من يعرف، في بلد لا يعرفه فيها أحد، لعلّ طيف أحدهم يردعه، يقترب ويبتعد، إنّها دنيا أوروبا وما حُفّت به من مُتع، وأيّ متع ؟ متناثرة اختر منها ما شئت ومتى شئت وبأي ثمن شئت، رَخُص هنا ما غلا في الديار هناك، وكما يقول المثل الشعبي " البلد الذي لا يعرفك به أحد شَمِّر وهَرْهَرْ".**

**تماسك يوما وأيّام، صبر شهرا وشهرين، سمع فتوى شاذّة وفَتوتين، هل زواج المتعة جائز ؟ لا يهمّ، فمن يفكر بهذا المنطق لا يلزمه فتوى أصلا !**

**- ألو كيف أنت بُنيّ الحبيب ؟**

**- بِخير أمّي الحبيبة.**

**- وكيف بلغراد والدراسة ؟**

**- على ما يرام.**

**- وهل ينقصك شيء ؟**

**- لا يا ماما أنا لم أعد صغيرا ولا ينقصني شيء.**

**لم يسمع السؤال الرتيب الذي يليه، فكيف لا ينقصه شيء ؟ وكلّ شيء ينقصه، ينقصه هواء الديار والمرور على الأطلال، ينقصه لطف أحلام، وزجر عمر، وذكرى الغائب الحاضر همام، ومناكفة بشرى، ينقصه الماء في الماء، وهل يسمى النهر نهرا دون ماء، ينقصه المكان في المكان، وهل يسمى البيت بيتا دون سُكّان، ينقصه طيف عمر رقيب عليه وعتيد، كيف لا ينقصني شيء أمي؟ وسور الحافة يتداعى .. بل قد تداعى.**

**- صعب .. صعب، أين أنت بنيّ الحبيب .. لما لا تجيب؟**

**- عذرا أمّي سرحت قليلا.**

**- ما بك حبيبي؟**

**- ماما اسمحي لي بسؤال.**

**- تفضّل يا قرّة عين ماما.**

**- هل تحبّونَنِي ؟ وأراد أن يقول كَحبّ همام وبشرى لكنّه اكتفى بالسّؤال مجرّدا.**

**- بالطبع يا صعب، ما هذا السؤال ؟ ... نحبّك حبّا عظيما وجارفا.**

**- فلمَ فرطتم بي إذاً ؟**

**- انظر ما تقول يا حبيبي .. لم نفرّط بك ولن نفرّط بك أبدا، أنت في عيوننا.**

**- لكنّي هنا .. وحدي.**

**- .... !!**

**يتدارك : صحيح يا أمي صحيح، لم تفرّطوا ولن تفرّطوا، أنا بخير .. أنا بخير، سلامي للجميع.**

**كانت بشعرها الأشقر وعيونها الزرقاء تزاحم طيف عمر، فيطرحها طيفه أحيانا، وتطرحه أحايين، زميلته في الكلية، بنت بني الأصفر أبا عن جدّ، طبيعة الدراسة تُحتّم عليه أن يكلّمها وتكلّمه، وسكن الطلاب مشرع الأبواب، كَظبية مشرعة لقطيع ضباع وقعوا بها.**

**دخلت عليه مرّة في غرفة سكنه لحاجة، ثبت وصبر، حزم أمره وقرر "إنّه باب إذا فُتح لا يغلق، ولن أفتحه أبدا، وعد عمر وأحلام في قاعة المغادرين يوم السفر، وعد أبي وأمي .. لن أخلفه .. لن أخلفه".**

**وذات مساء .. وقع بها، وبعد السكرة جاءت الفكرة، لم تكن تحبّه كما حسب، فهو"كالهجين وقع في سلة تين" ، إنّما أحبت أن تجرب رجلا شرقيا كما أخبرته، فسمعتهم عند بني الأصفر أنّهم فُحول، لكن الباب فُتح، كانت وقعة فأصبحت وقعتين،**

**وانقشع غبار المعركة عن وقائع، بل حروب وملاحم، وفتح العرب الأقحاح لأوروبا وأهل بلغراد، كانت أُولغا، ثم روكسلانة، فإلينيا، وكاترينا ... وأخيرا صوفي ، وعادت سيرة عز الدين في بني حامد بيك، فشرب الخمر وعاقر كل الأنواع، المعتّق والمقلّد، الحلو والمرّ، المركّز والخفيف، فالأبواب مشرعة، وكلّ سنة في الدراسة تأخذ سنتين، والجواب لعمر وأحلام حاضر، "إنّها اللغة .. إنّها اللغة يا أبي، وعمّا قليل أتخرّج وتفرحون بي"**

**ربّته أحلام ليكون من الصالحين، وأعدّه عمر ليكون من الفاتحين، ربّما يفتح القدس أو روما، أو حتّى الأندلس، لكنّه أبى إلا أن يكون مع العرب الفاتحين .. لبلاد الروم .. في بلغراد ... وأيّ فتح !!**

**سأله صديقه سعيد مُوَنّبا له بعد عودته من جلسة سكر ذات مرة :**

**سعيد : ألا تخاف أن يعرف أبوك ما تفعل؟**

**صعب : لا، كنت سابقا أخاف ..و .. ولكن ..**

**يقاطعه سعيد : القلوب لا تتصحّر دفعة واحدة يا صعب.**

**أطرق صعب قليلا ثم أردف قائلا:**

**- هل تراني أحدّق في السماء يا سعيد ؟**

**- لا .. ! أنت مطأطأ الرأس دائما.**

**- أتعرف لماذا ؟**

**- أخبرني.**

**- أنا أستحيي منه.**

**- من هو ؟**

**- الذي في السماء.**

# بين صعودين (6)

لم يكن عمر من ذلك النوع الذي يبادل المنافع مع الناس، فالواسطات في بلده أصبح لها أعراف عريقة، وسُبلٌ مُتّبعة، وما عادت مقتصرة على علية القوم، بل أصبحت تشمل الصغير والكبير، فحتّى جابي فواتير الكهرباء والماء طَوَّرَ عمله، ليكون له يد على كلّ من يُحصّل منه الأموال المستحقّة لخزينة الدولة، فيؤخّر فصل الكهرباء عن هذا ويعجّلها على ذاك، ودواليك في كل المهن والوظائف الحكومية، فأصبحت الواسطة وتبادل المنافع هي ركيزة تعامل الناس مع بعضهم، وأصبح كل مواطن يمتلك في جيبه قائمة بأسماء من يعرف في كل دائرة حكومية، أو مصلحة رسمية، وفي جيبيه الآخر قائمة بكلّ خدمة أسداها بالمقابل، ويحرص كل مواطن أن يكون له من الخدمات أكثر ما عليه منها، وإلّا فإن قائمة الخدمات ستلغي قائمة المنافع، ولن يستطيع أن ينجز شيئا من حاجاته ومعاملاته إلّا بالمستوى الأعلى، الرشوة.

كانت أخلاق عمر من الأنفة والتّرفع ما حال بينها وبين ذلك، وكَوْنه لم يخدم ولم يُخدم بهذه الطريقة، والتي رفضها ابتداء رغم إلحاح من حوله عليه بضرورة الدخول في نادي القوائم هذا، حتى يُيسّر أمور حياته، إلّا أنّه رفض ذلك رفضا

**قاطعا، وعندما ألجأته الحاجة إلى ترتيب زيارة يتيمة لابنه همام بالسجن، فلم يكن من سبيل أمامه إلا رشوة بني جلدته الذين أقاموا علاقات ومصالح مع اليهود، فأتت الرشاوى على ما ادّخر عمر وأحلام لنوائب الدهر، فوُئدن لبشرى وأحلام ذات خريف بزيارة همام دون عمر ودون أيّ رجل أو ذكر.**

**تحاول بُشرى إخفاء حزنها عن والدها مُسرّية عنه بأحاديث يُحبّها، وقد أشرقت الشمس على الدنيا بأشعة الحياة صباحا، قبل استعدادهما للسفر تاركين شوق عمر لرؤية همام أو لمسه أو سماع صوته، خلفهم :**

**بشرى : بابا لا تحزن، ألست أنت مَنْ كنت تحدثنا، أنّ الدنيا لو كانت تساوي عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافر شربة ماء.**

**عمر : صحيح يا بُنيّتي ... صحيح.**

**بشرى : فَلِمَ لا تضحك يا بابا ؟**

**عمر : هناك أشياء في الذاكرة يا حبيبتي لا تُجتثّ أبدا، وإنّه طريق أحزانٍ طويلٍ، وما أنا فيه يا بابا ليس انكسارا ولا ذُلا، إنّما شوق وحنين.**

**بشرى : وفيَّ وفي ماما سلوة عما تجد يا أبتي.**

**عمر : والنعم بكما يا بشرى، لكنّه طريقي يا حبيبتي، ولقد اخترته بمحض إرادتي، ربّما يوصلني إلى السعادة يوم ما، ولكن لغاية هذه اللحظة، فالأحزان هي سيّدة الموقف**

**بشرى : ..... !!!**

**عمر : يا بشرى هل تذكرين رحلتنا الأخيرة إلى الجبال الشاهقة جنوبا ؟**

**بشرى : طبعا يا بابا وهل أنسى رحلاتي الجميلة معك ومع ماما.**

**عمر : كان لي في سابق الأيّام يا حبيبتي، سجدة ليست كالسجدات، فوق أعلى قمّة في تلك الجبال، أُسبّحُ بها العليّ الكبير، معلّق بين السماء والأرض لا أفُق يحدّني ولا مخلوق يراني ، أشعر المعنى الحقيقيّ للفناء، أُدرك فيه العلاقة العكسية بين صِغَرِي وبين سعيي الدؤوب للقمم، سنّة فَطَرَ الله الناس عليها في البحث والمغامرة وفي الصعود والترقي، نعمة إن أَخْبَتَّ وسَلَّمْتَ، ونقمة إن استعليتَ وتكبرت.**

**بشرى : متى كانت هذه الرحلة يا بابا ؟**

**عمر : ليس بالزمن الطويل من عمر الأمم والحضارات هاتيكم الخمسة عشر عاما التي مضت منذ تلك السجدة، ومنذ سعيي للقمّة فوق تلك الجبال، لأجدّد المحاولة معكم مرة أخرى في رحلتنا الأخيرة، فَصعدنا سويًّا ما أسميته (صخرة العزة).**

**بشرى : وبماذا تختلف عن باقي الصخرات حتى تسمّيها بهذا الاسم ؟**

**عمر : أتذكرين فلم الكرتون "الأسد الملك" الذي كنَّا نشاهدهُ سويّا يا حبيبتي ؟**

**بشرى : طبعا يا بابا وهل أنسى "سمبا، وموفاسا، وسكار".**

**عمر : فهذه الصخرة تشبه صخرة العزة التي أعلن "موفاسا" من فوقها "عهد سمبا الجديد" أتذكرين ؟**

**بشرى : أذكر تماما.**

**عمر : لقد جددت باعتلائي لهذه الصخرة يا بشرى ثقتي بذاك الشابّ الذي يعيش بداخلي رغم ستين مضت، ستون سنة تعلّمت فيها يا حبيبتي التصاغر بين يديّ العزيز الجبار، رغم ما وضعه فيَّ من طموح وتَطَلّع، أدركت فيها أنّ الصعود صعودان؛ صعود الأنبياء والصالحين، يفنون أنفسهم، ويرصفون أجسادهم للمبادئ تصعدُ على أكتافهم إلى المكانة التي أرادها الله لشرعه ودينه.**

**بشرى وقد رأت عمر قد سرح قليلا : والصعود الثاني يا بابا ؟**

**عمر : وصعود المخذولين الخاسرين يدوسون المبادئ يتسلّقون أكتافها لِيصلوا هُم، تصمُّ آذانهم كثرة التصفيق وتُعمي**

**أبصارهم كثرة الأضواء، يحكمون ويرسمون بِاسم الشرع، ليس لهم منه إلّا رسمه، يعيبون على حكوماتهم السابقة وعلى أنظمتهم القائمة ما يمارسونه هُم واقعا مُشاهدا، يخلقون الأعذار التي لم يقبلوها لخصومهم.**

**في صعودي الأول يا فلذة كبدي، ظننت أنّ ليس للوصول إلّا ذلك المسار وتلك القنطرة، فأكتشف أنّي كلّما صعدت تنازلت وكلّما تنازلت صعدت، فأعرضت، أعرضت فالله أعزّ من أن يُطاع بمعصيته، وهو أَجَلّ من أن يُخدع بتبرير كل موبقات الأرض تُمارس تحت اسمه، تعالى عما يبرّرون علوّا كبيرا.**

**بشرى والفضول يتملكها : وفي الثاني ؟**

**عمر : وفي الثاني، صعدت بثقتي بربّي أنّه القوي المتين، وأنّه أَغَير على دينه مِنّا جميعا، نظرت من فوق صخرة العزة لِأرى ما لم أراه في صعودي الأول، رأيت المسالك تسير بقانونها والأودية تسيل بقدرها، كلّ من خالف تلك السنن العلوية ممّن هم تحت فليس لهم إلّا الشقاء والتعب، ولن يصلوا وإن حلفوا وإن أقسموا**

**فالسلطان ليس سلطانهم ولا سلطان الأشخاص، بل هو سلطان المبادئ والقيم، شاء من شاء يا بشرى وأبى من أبى، فهذا سبيلي يا بُنيّتي وهذه أحزاني التي اخترت بيدي، والطريق الذي لا تكون نهايته السماء لا حاجة لنا به ...**

تمسح بشرى بيدها على جبين عمر وقد أرهقته كلماته التي خرجت منه كما المولود، ألما وضيقا في النفس وعَرَقا :

- لا تحزن يا بابا، إنّ مع العسر يسرا، إنّ مع العسر يسرا.

عمر : قَبِّلِي همام بين عينيه وأخبريه عن حبّي وشوقي، وأَسِرّي إليه، دون أمّك، أنَّ ما اتفقنا عليه في بئر عميق، وقولي له "وإن أسقطوا المآذن فلن يُسكتوا النداء يا همام"

وبعد أن ودَّعَهما وتأكّد أنّهما ابتعدتا بالسيّارة حيث لا يرونه، غَيَّرَ اتّجاهه عن البيت، خاطب نفسه "يداك أوكتا وفوك نفخ يا عمر" مضى وكأنّه بركان بلغت به الحمم حدّ الثوران، وذهب إلى بيت مهجور اعتاد الذهاب إليه سرّا، يقع على المنحدر أسفل التل الذي يقبع عليه بيته، بيتٌ لا يدخله إلّا سِكّيرٌ أو عِربيد مشبوه، حدّثت إحدى الجارات نفسها ذات مرة أن تُخبر أحلام بذلك، لكنّها قالت في نفسها : "كهلٌ هرم، لعله الزهايمر أو النسيان، وإحسان الظن بالرجل أولى".

# نصف ساعة من ربيع (7)

**زجاج عنابر الزيارة في السجن كالحلم، يفصل بين عالمين ويحول بين مُتَحَابَّيْن، ففي الحلم ترى عزيزا عليك مات منذ زمن، يَتَفَلَّتُ طَيْفُهُ من بين يديك، تستيقظ على حقيقة وجوده هناك وراء البرزخ، ومن وراء الزجاج تتلاقى المُقل المُتلألئة والقلوب الملتهبة، كالمخاض في قدومه وكالنزع في ذهابه، دقائق معدودة، عذابها أشدّ من الفراق والنسيان.**

**يحرمكَ الكريمُ ما ألفته ربيعا طويلا، ثم يُذيقك منه نزرا يسيرا، لتدرك النعمة وتشكر المنعم، فالألفة تُبطل الروعة، والدوام يُنسي الحمد، يُهَوِّنُ عليك الخطبَ ذكرُ الموت، فلا لقاء بعده، إلّا في جنّة أو نار، لكنّ موسم الأخذ والاعتقال هذا وقد أرخى سدوله، جعل الخريف كالموت والزيارة كالحلم، إلّا أن نزع الزيارة أصعب من صحو الحلم.**

**يُسرع الخطى ذهابا وإيابا، يستجمع ما عرف من معاني القوة والإباء، وما خبُرَ من تجارب الرسوخ والثبات، يُعيد ترتيب الجمل والكلمات يُزوِّقها في ذهنه، يُرتّب هندامه بما تيسّر من بسيط الأدوات، يستقطر من صابون السجن طِيبا يتعطّر به.**

وروح أحلام الهائمة هناك في الفندق، تستعد أمام المرآة ، تنتقي من الملابس ما يُخفي نُحولها، وتختار من الألوان ما يُذهب شُحوبها، فقد تفتّق كرم الخريف عليها وعلى وبشرى بزيارة خاصّة يستظلون بها تحت شجرة ابنها نصف ساعة من ربيع .

إنّ الأنثى كالزهر يُجَمِّلُ الأيام وينشر البهجة، وإن كانت قد عرفت من الرجال أباها وأخاها وزوجها، إلّا أن المعرفة الحقيقية والحبّ الأعمق هو لمن كان من دمها ولحمها، وسكن رحمها تسعة أشهر، وهنا على وهن، فلذة كبدها وقطعة من روحها، فهو بالإضافة إلى أنه الأبن فهو الأب والأخ والزوج، وهو كلّ من تعطيه شدوها وبهجتها، وهو كلّ من تجد عنده سَكَنها وطُمأنينتها، فتكون مصيبتها في فقده أضعاف الآخرين.

كأنّ أغلال الكون على عاتقه، يجرّ أقدامه المُثقلة خارجا من الزنزانة، صيحات المساجين تُهنّئه كَأوّل من يحظى بزيارة خاصّة، تلتقي فيها الأجساد كما الأرواح، دونما عنابر الزيارة برازخ الموت تلك، بِودّه لو غيره مكانه، فالحمل أثقل من ما مرَّنَ عليه نفسه سنوات طويلة مضت، وهذا أصعب ابتلاءاته، دقّات قلبه كأنّها طبول حرب، وَقِرَبُ الدموع المحبوسة مُنذ أُخذَ، كأنّها سدٌ يتصدع، يتجلّد للشامتين يُريهم أنّه لريب الدهر لا يتضعضعُ

**بَاسم المُحَيَّا يلج**

**فتبكي أحلام رحمة، وتنحب بشرى باكية**

**ويح جدران السجن وحيطانه**

**ويحها ... كم كتمت خلفها هدير مشاعر صاخبة**

**ويحها ... كم خدعت السجناء أنّهم صابرين**

**يتمنّى أنّ كلّ حوائط الأرض بين يديه يتّقي بها الربيع**

**فما ضرّه لو كانت الزيارة برسالة مكتوبة أو كلمات ممهورة**

**فقد اعتاد الخريف مُذ عُزل**

**ولا قِبَل له بِأمّه وقد حضنها بين ذراعيه، يتماسك، وأعين الشُرَطِ - التي كانت تراقب الربيع خوف أن يمرّر له من خارج السجن زهرة ، وتطيل النظر إليه مهابة أن يُضيىء للظلام خارج السجن شمعة - بكت، بكت وهي تنظر الإبن بين ذراعي الأم، الجمع يذرف الدمع بِسجّانيه ومسجونيه وزائريه، صمد وصمدت أحلام، إلّا أنّ ترقرق الدمع في عينيها وضعه على الحافة، فكاد ينهار، وكيف له ذلك ؟ وهو الشجرة وهم المستظلّون، وكيف للروح أن تطوف بالجسد إن سقط ؟ وكيف لمن تحت قدميها جنّات السموات والأرض أن تطمئنّ إن تَصَدَّع ؟**

**كظم وكادت عيونه تَبْيَضّ ... فأمسك.**

**فتنزلت رحمة السماء ... وعبر القنطرة.**

**ظنّت أحلام فيما مضى أنّ حظّها من الإبتلاء انقضى، لكنّها عادت لِتجد نفسها تُناظر فلذة كبدها همام بملابس السجن، تتساءل في نفسها "آلابتلاء ماضٍ حتى يمضي من الرمق آخره؟؟"**

**أي بُنيّ :**

**كيف في السجن .. طعامكم ؟ وكيف في القيد .. حياتكم ؟**

**ورغم الإجابة البادية على جسد همام إلّا أنّها سألت : هل عذّبوكم حبيبي ؟ وهل ضربوكم يا قرّة عيني ؟**

**مُتحشرجَ الصدر ... حابسَ الدمع ، سائلا الكريم بها رحمة، ولإبتلاءاتها نهاية، مُسرّحا الطرف في لهفتها، ومُدقّقا النظر في خشوع عيني بشرى ... مُسرّيا عنهما ومبشرّا :**

**أمّي ... بشرى**

**يمضي الابتلاء على الصابر كما يمضي على من كان جَزوعا، فيكون على هذا نعيما وعلى ذلك يكون جحيما.**

**أمي**

**وكما دعوتي لي أن أكون مجاهدا ... فهذه الضريبة**

**قد سبق فضله ... فكوني صبورة**

**فَ "قَيدُ العبيد من الخنوع ... وليس من زرد الحديد"**

**وكما ربّيتني ... وكما عهدتكِ**

**كوني أبيّة.**

# البذار

# بقيَّةُ الطُهر (1)

**يقف عمر في الصف الأوّل في الروضة الشريفة في المسجد النبوي، بعد أن حضر على وجه السرعة على أقرب طائرة إلى المدينة المنورة لدفن طاهر الذي وافته المنية وهو يصلّي في الروضة الشريفة، ذلك الحدث الذي لم يتكرّر في هذه البقعة المباركة منذ أكثر من عشر سنوات، وربّما لن يتكرّر كذلك لعشر أخرى، وكأنّ يد القدر اختارت طاهر بعناية فائقة في أطهر بقعة وقطعة من الجنة، من بين ثمانية مليار إنسان يسكنون هذه الأرض.**

**يأخذ عمر مكانه الذي أُفرغ له ولكلّ من له مَيّت يريد الصلاة عليه في الروضة الشريفة، دون مزاحمة ولا اصطفاف على الدور، كما فعل طاهر قبل أقلّ من أربع وعشرين ساعة عندما حضر إلى المدينة المنورة مع سليمة استعداد لأداء شعيرة العمرة.**

**يردّد عمر، والناس يباركون له هذه الميتة : "نحسبك يا أبي والله حسيبك، ولا نزكّي على الله أحدا، فأنت الفقير إليه وهو الغنيّ عنك"**

تَخْتلط الخواطر بشعائر صلاة الفجر التي سبقت صلاة الميّت على والده، وتغلب الذكريات الموقف ويغلبها، ويتماهى حديث نفسه مع الذكر والقرآن :

" الصلاة على الرجل يرحمكم الله، نداء مؤذّن الحرم النبوي للصلاة على الميّت، سمعته للمرّة الأولى يوم أخذتني يا أبي لأداء أوّل عمرة لي وأنا طفل صغير، وتمرّ بيَ الأيّام عمرة بعد عمرة وحج، أستجيب لهذا النداء، أقف بعد كل صلاة أصلّي على الميّت، ليكون هذا الميّت وهذا الرجل في نهاية المطاف ... أبي طاهر حامد بيك.

آه ثم آه ... آه يا أبت لو رأيتني وأنا المسجّى واقفا أصلّي عليك، وأنت الشامخ في أكفانك، آه يا أبت لو رأيتني وأنا أسمع الإمام يرتل فجر يوم الجمعة ( فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ). كنتَ تأخذنا صغارا إلى الروضة الشريفة، توصينا أن نسجد في محراب رسول الله - صلّى الله عليه وسلم - حيث لامست جبهته الشريفة البقعة الطاهرة، وحيث قُبضت روحك خلف المحراب مباشرة، ملبّيا نداء الحبيب ( من استطاع أن يموت بالمدينة فَليمت بها فإنّي أشفع لمن يموت بها ) ، وبفضل الله استطعتَ أن تموت بالمدينة، بل في الحرم، بل في الروضة، وخلف المحراب، بعد عدّة ساعات من وصولك، منطلقا إلى الحرم النبوي، مخبرا رفيقتك في السفر أمّي الحبيبة سليمة ... أنّك لن تعود، لن تعود لأنّه لم يبق لك إلّا صلاة قيام وفريضة فجر وسنّة ضحى وختام مسك لقيا الرحمن بعد بشرى الرسول لك في المنام.

**كيف لي أن أسقط أمام جثمانك وأنت الجبل الأشم ؟ كيف لي أن أنهار باكيا وأنت صاحب الدمعة العزيزة ؟ كيف لي ... وكيف لي وأنا وريثك أبي ؟ كيف لي أن أخذلك في يوم برّ ووفاء ؟ فلتفتك بي الدموع ما شاءت، ولتفعل بجسدي ما يحلو لها، فإنّي على إثرك حابسها، ولن تكون إلا كدموعك أبدا ... عزيزة".**

**يعود عمر إلى بلده وروحُه معلّقة في الروضة الشريفة، يتذكّر نداء إمام الحرم "الصلاة على الرجل يرحمكم الله" كلّما دخل مسجدا يعيده النداء مرة ثانية إلى الحقيقة التي يجد صعوبة في استيعابها، إنّها سنة الحياة وحقيقة الموت، إنّها المرّة الأولى التي يقترب فيها عمر من الموت إلى هذه الدرجة، فَطاهر هو أقرب ميّت إلى نفسه يفقده، ربّما حزن على عمه عز الدين يوم مات بِتشمّع الكبد، وتمنّى له الرحمة، ولعلّه صُعق من طريقة موت عمه يوسف، ورغم أنّه كان يدعو له بالهداية وهو حيّ، إلّا إنه لم يستطع أن يترحّم عليه بعدما مات، أمّا والده طاهر فقد ترك موته أثرا لا يُمحى وذاكرة لا تُنسى، فكان النداء يسرح به في عالم صاخب من الأحداث والذكريات.**

# الفارس (2)

**أحلام : يا أسامة إنّما أردت أن أحدثك على انفراد دون بشرى وعمك عمر.**

**أسامة : كما تريدين عمتي أنا تحت أمرك.**

**أحلام : طمئنّي ابتداء على صحتك هل هي بخير ؟**

**أسامة : الحمد لله ، كان عارضا مؤقّتا منعني من التواصل لعدّة أيّام مع بُشرى، والآن شُفيت بفضل الله ثم بفضل وصفات عمي المُجَرَّبة، عسل مع زنجبيل وليمون، على الريق لثلاثة أيام متواصلة .**

**أحلام : الحمد لله على سلامتك، ظننت انقطاعك عن بشرى لسبب آخر ؟**

**أسامة : لا .. لا .. أبدا**

**يتردد قليلا ثم يُتابع : وهل أخبرتك بشرى بشيء ؟**

**أحلام وقد وجدتها فرصة للدخول في الموضوع الذي أحضرت أسامة لأجله : لا ... مجرّد دلع بنات .**

**أسامة متفحّصا وجه أحلام الذي احمرَّ خجلا، يجيبها مُبتسما : عمّتي أنا مثل ابنك، صارحيني بما شئت.**

**أحلام : والله يا ابني لا أدري ما أقول لك، عندي إحساس أنّ الأمور بينك وبين بشرى ليست على ما يرام، ولم يمضِ على خطبتكم بضعة أشهر.**

**أسامة : يبدو أن بشرى أخبرتك بآخر مشكلة .**

**أحلام : لا .. لا ... يا أسامة، بشرى سرّها في بئر عميق، وهي لا تخبرني بخصوصيّاتها، لكنّي رأيتها مُنشغلة الذهن، مشوّشة الفكر، ولا تحب الجلوس معي ومع عمّك عمر، وتجنح إلى الخلوة كثيرا في الأيّام القليلة الماضية.**

**أسامة ممازحا : لعلّه الحب يا عمتي .**

**أحلام : الله يديم الود بينكم يا أسامة، ولكنّها بنتي وأعرفها معرفة جيدة، الأمر أكبر من ذلك، وأنت يا بُني لا أخوات لديك، ولعلّ هذا جعلك لا تفهم الإناث بشكل كاف.**

**أسامة : صحيح، في من كلامك يا عمتي، أجد صعوبة أحيانا في فهم بشرى، ولا أدرى هل الأمر متعلق فيَّ، أم فيها، أم في جنس النساء كلّه؟**

**أحلام : أنتم الرجال، ميزان الحكم عندكم على الأمور مختلف عنَّا نحن معشر النساء، فالأشياء عندكم عقلانية جافّة،**

واحد زائد واحد تساوي اثنين، أما عندنا فإن الأمور عاطفية و أكثر تعقيدا.

أسامة في محاولة لتلطيف الجوّ ونزع التوتر يقول مُبتسما : واضح جدّا .

أحلام : إنّ الأنثى يا بُني عاطفيّة بطبعها، لذلك فهي تُحبّ بأذُنها وبما تسمع، أكثر مما تُحب بعينيها كالرجل، وهي تحبّ أن تكون دائما محط اهتمام خطيبها، وهي من الرقّة بمكان بحيث تتأثّر فيه بالكلام الذي يُطلق أحيانا على عواهنه، يحسبه الرجل كلاما عاديا، وهو عندها ممّا تخرّ الجبال له هدا.

أسامة مدافعا عن نفسه : ولكن كلامي يا عمّتي رقيق وعذب .

أحلام : تحمّلني يا بُنيّ، فأنا مثل أمّك رحمها الله، ليس المهمّ في الكلام أن يكون منمّقا مرتّبا، إنّما المهمّ أن يقع منها مواضع الاهتمام، والذي يُشعرها أنّ قرينها حريص على سعادتها ويفهم دواخلها ويلبّي لها رغباتها.

أسامة : مثل ماذا يا عمتي ؟

أحلام : لست أقصد بذلك الرغبات المادية، إنّما هو الشعور الذي يتولّد لدى الفتاة أنّ خطيبها أو زوجها يعرفها حقّ المعرفة، ويعرف أدقّ التفاصيل عنها، فَلعلّ وردة في مناسبة عزيزة عليها تقع في نفسها أكثر من الهدايا الغالية والنفيسة،

**ولعلّ كلمة في موقف تُحبه يحفر في ذاكرتها حبّا ومودة إلى الأبد، ولعلّ مراعاة لظرفها في موقف صعب يبدّد الموقف وتبعاته.**

**والمرأة على العموم كالريشة الطائرة، لا تطمئنّ ولا يهدأ لها بال حتى تشعر أنّها حطت رحالها في مأمن ومسكن، عند من يفهما دون أن تتكلّم، ويُسعدها دون أن تطلب، ويعذرها يوم تغضب، واللمسة الحانية تصنع الفرق أحيانا يا بُنيّ ...**

**يقاطعها أسامة : ولكنْ كثيرا يا عمتي، لا أعرف متى تغضب بشرى ولماذا تغضب ومتى تفرح ولماذا تفرح.**

**أحلام : هذه الزوجة يا أسامة، تكون معك على حال من الغضب تُشعرك فيه أنّك الشيطان الرجيم، وأنّ الفراق هو الحلّ الوحيد، ثم بعد ثوان معدودة تحبّك حبّا تظنُّ نفسك فيه ملكا مُقرّبا أو أميرا مكرّما.**

**أسامة يستغلّ السياق ليقول ما في نفسه : هي عمليّة متعبة يا عمّتي، فإنّما نحبّ حتى يهدأ بالنا.**

**أحلام وقد أدركت ما فعلته عصبيّة بشرى به، فتقول له وهي تضحك : صدقت يا بُني، فكم كنت أحزن على عمّك عمر عندما كنت أريه "نجوم الظهر" أحيانا، رغم حبّي الشديد له، وما ألبث أن أراضيه، ونحن الإناث يا أسامة كالورد لن تستطيع قطفه إن أمسكت الغصن أينما تيسر، إنّما تتحرّى**

**موطن الساق الخالي من الشوك فَتنال مرادك، سنّة الحياة الدنيا يا أسامة ... سنة الحياة الدنيا.**

**أسامة : وكأنّي يا عمّتي أحتاج إلى دورات تخصّصيّة في التعامل مع الإناث.**

**أحلام : بالعكس يا أسامة نِعْم الشابّ أنت، ولو تعرف كم يُحبّك عمّك عمر ويفتخر بك أمام أصدقاءه.**

**قالت أحلام ذلك وهي تعرف أنّ أصدقاء عمر تركوه أو ربّما زهد هو بهم، فأمسى وحيدا منذ ذهبت كوابيسه فَهجر وسلَّم، ثمَّ أرادت أن تقول لأسامة "وكذلك بشرى تحبّك"، لكنّها تردّدت، حتّى تترك الأبواب مفتوحة لكلّ الاحتمالات المستقبلية، والتي رأت من مواقف بشرى وكلامها عن أسامة ما أقلقها، وما تعمّدت إخفاءه عن عمر، فيكفيه ما فيه من همّ صعب وهمام، فبادرت هي بالتواصل مع أسامة لعلّ شيئا مفقودا يُعيد الأمور إلى نصابها، ولعلّ تطورا في علاقتهما الشائكة، يُنبئُ بزواج صالح وبيت صالح وذرّية صالحة.**

**أسامة وقد لاحظ شرود أحلام : عمّتي، ولكنّ بشرى عند أي مشكلة صغيرة تعود وتفتح لي كلّ المشاكل السابقة، وتُشعرني أنّي أسوء إنسان في الدنيا، وأنّي سبب مشاكل العالم بما فيها الخرق الذي حدث لِطبقة الأوزون، وأنها ما رأت معي نعيما قط.**

**أحلام : ألم أخبرك يا أسامة أنّ خبرتك بالنساء قليلة، ولو كانت أمك على قيد الحياة - رحمة الله عليها - لَأخذت عنّي ثقل ما أنا فيه يا بُنيّ، ليس تثقّلا منك والله، بالعكس فأنا أحبك كما أحبّ هماما وصعبا، ولكنّه ثقل الحرج الذي أنا فيه، خاصّة أن بشرى هي ابنتي.**

**أسامة : لا عليك يا عمّتي، فأنا أستفيد ممّا تقوليه فائدة عظيمة.**

**أحلام : أما قصّة ما رأيت نعيما قط، فتلك قصّة الملفات التي تحتفظ فيها الأنثى لمعاركها، ولكن لا تأبه يا بُني، فما كُفران العشير - في وجه من وجوهه - إلا ستار تقف خلفه الأنثى تخفي فيه ضعفها، وتستر وراءه قلّة حيلتها في الخصومة والجدال، ألم يقل الله فيها ( أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ )، فكن في هذا الأمر صاحب النفس السامية، فإنّما سيد القوم المُتغابي، وما هي إلّا ساحبة صيف عابرة في كل خلاف ثم تمضي، وتعود بعينيّ خطيبتك الفارس المقدام.**

**أسامة : أنا أعرف يا عمّتي، أنّ الخطبة ليست مرحلة تجربة، فمن دخل عليها مجرّبا، فسيجد من اختلاف الشخصيات ومن اختلاف البيئات ما يجعله يقفز بين البيوت باحثا عن فتاة على مقاسه، متناسيا أنّها بالمقابل لم تجد تلك الفتاة فيهِ الفارس الذي كانت تحلم به.**

**أحلام تَهُزُّ رأسها معجبة بكلامه : مم مم مم ...**

**أسامة : إنّما الخطبة، خطوة تعارف للإندماج، وتعارف للتأقلم، وتعارف للتنازل، وتعارف للإنصهار في بَوْتقة واحدة لتكوين أسرة سعيدة قائمة على ميثاق غليظ، لا يصحّ فيه عقد الزواج إلّا بنية التأبيد، إلّا إن أحدث الله له أمرا، فكان الطلاق مخرجا ومتنفّسا لتستمرّ الحياة على خير وجه سلسة دون جحيم المشاكل وطغيانها، وما أرى الناس هذه الأيام إلا وقد عكسوا الأية، فجعلوا الخطبة تجريبا وجعلوا الزواج مؤقّتا، فكثر الطلاق وخربت البيوت وضاع الأولاد، ففسد المجتمع، وما كان مُبتدؤه مودّة وسكينة يا عمتي، تدفق في آخره عطاء وبركة، وجمال البيوت بما سُتر فيها، لا بما تزيّنت فيه للناس.**

**صُدمت أحلام لمنطق أسامة الواعي، والذي لم تعطيه الفرصة الكافية للتعبير عنه، لكثرة ما ألقت عليه من نصائح، فأدركت أنّ مشكلته مقتصرة على الخبرة في التعامل مع النساء لا غير، وأنّ معركة الإصلاح التي تخوضها يجب أن تكون في ملعب بشرى لا ملعب أسامة.**

**أرادت إخباره وهو الذي نشأ في بيت كله ذكور، أن المرأة فيما يعتريها من تبدل في هرموناتها الشهرية، تتحوّل إلى وحش كاسر أو إلى مُخبر مترصّد؛ لكنّها استحت منه، وفكّرت كيف عليها إيجاد سبيل لإيصال أمر مهمّ كهذا له، بخلاف ما حرصت على إخفاءه عنه، بأنّ بشرى ربما تشعر بالكآبة بسبب غياب حبيبها همام، وحزنها على جدّها طاهر الذي لم يمضِ**

**على وفاته أكثر من عام، فهي لا تريد أن تُرَحِّل مشاكل بيت عمر بن طاهر بن حامد بيك إلى مهجع وبيت جديد، تأمل من الله أن يتمّ أمره على خير.**

**ودَّعت أحلام أسامة، ولم تكن تعرف أنّ بشرى التي عادت إلى البيت مبكّرا دون سابق إنذار، كانت تتجسّس عليهما، وكانت تردّد في نفسها بصوت عال سمعته كل خلية في جسدها، وحرصت أنْ تُسمعه لقلبها وعقلها ونفسها :**

**لا أريده ... لا أريده.**

# الأنين (3)

تتماسك أحلام لتُصبّره، وتتصبّر لتطمئنهُ، يبادلها عمر الدور وتبادله، وكأنّ الابتلاء شُقّ بينهما، فقد امتزجت أرواحهما بهذا الابتلاء امتزاجا أحالهما إلى روح واحدة، أأسرهما في الحريّة أصعب ؟ أم حريّة نفس همام الشامخة في الأسر أهون ؟؟ يحجب مشاعرهم المتدفّقة جبال ووديان ومفاوز، فبعد طول العشرة وحلوها، ما عاد لهما إلّا صورة هنا أو "فيديو" قديم عن طفولة همام هناك. يُهوّن عليهما الأمرَ ذكرُ الموت، فلا لقاء بعده إلّا في جنّة أو نار، يأبى الله عليهما إلّا أنْ يعودا إلى الخلد، فَهُنا الفناء ... وهناك البقاء، يتغمّدهما برحمته ويذكّرهما فضله، يفتح لهما أبواب لطفه، يقطع عنهما الأسباب ... ليعودا في حبّهما الخالد إلى ربّ الأسباب.

رأته أحلام ينسلّ من بينهم كي لا يشعر به أحد، لكنّها لم تكن أيّ أحد، نصفه الثاني، تعارفا معا في عالم الأرواح منذ تسامي الأحد العتيد، فألفته وألفها، كانت تقرأ الكلام في عيونه قبل أن تسمعه من شفتيه، منذ عدة أيّام وهو صامت سارح، في فمه ماء لكنّه لا يلفظه، ظنّت أنّ السبب همام، فتبعته إلى شرفة البيت حيث جلس ، أرخت السمع من وراء الباب كعادتها :

**"أبتِ، تقصُ الحكايات علينا، عزام وسيّد يَرفعونَ راياتنا، وهل لغيرِ تلكَ الحكايات تحرّكت فينا الرغبات ؟ ما الذي حدثَ وكيفَ تغيّرتِ المسارات ؟ في موجِ بحرٍ متلاطمِ الظلمات أضاءَ لنا وليٌّ قبساً من الآيات، أبحرتُ وحدي أرنو الغايات وزورقي في بحارِ التيهِ، تقاذفتني الأمواجُ في بحرِ الظلمات، بحثتُ هناكَ عن مستودعِ سري، لِما تركتني أبي في حلكةِ الظلمات ؟ تركتني وحيدا أصارع الحيات.**

**رأيتُ فيما يُرى في الأحلام، رأيتُني أحطّمُ القيد لا آبه للتَبِعَات، وأقراني يَلهونَ في الدنيا، لم آبه لوحشةِ الدربِ وصعوبةِ الطرقات، لكنّي استرقتُ النظرَ خلفي في ظلمةِ الليل الحالك، فلم أجد ركناً شديداً آوي إليهِ عندَ المَلَمَات"**

**سكتَ .. وأطرق رأسه، فاستغلّت أحلام الفرصة وطرقت عليه الباب وولجت : أبا همام ما بك ؟**

**- لا شيء.**

**- أراك حزينا.**

**- تذكّرت والدي رحمه الله.**

**- ظننته همام.**

**- وهل أنسى هماما حتّى أتذكّره، ثمّ إنّ همام يا أحلام لمْ يعد إلّا قصّة وحكاية، لم يعد ملكنا، إنّما ملك القدس، يسرد بجسده ونفسه حكاية شقاء ونعيم، شقاء الحياة ونعيم الموت.**

**- هل اشتقت لوالدك ؟**

**- نعم ... لكنّي ...**

**تمسح الدمع عن وجنتيه :**

**- أكمل حبيبي ... أكمل.**

**- لا شيء ... وددت لو سمع مني بعض الكلمات قبل أن يمضي.**

**- أليسوا يقولون أنّ الميت يسمع طرق النعال في المقابر؟**

**- بلا.**

**تسكت قليلا وقد خطر ببالها فكرة : فهلّا حججنا السنة القادمة، وزرنا قبر والدك - رحمه الله - في المدينة المنورة، وتسمعه هناك في البقيع ما تشاء. أرادت بذلك أن يخفّف عمر بعضا مما في نفسه، فشوقه لِهمام قتله، وغضبه على صعب فتك به، وقلقه على مستقبل بشرى يُخيفه، وقد كبر بعض الشيء وتخاف عليه من الجلطات وأخواتها.**

**فكانت أمانّي اليوم كما الأقدار دوما ... حقائق وحج الغد**

# يمين الله (4)

ولمَّا رجما الجمرة الكبرى، بكى عمر وانتحب، ينظر الناس إليه مستغربين، أَيبكي الحاجّ أثناء الرجم ؟ أليس البكاء خاصّا بالصلاة وعرفات والطواف والسجود ؟ وما شعيرة مِنى إلّا تعب وزحام نقضيها إتماما للحج ومناسكه، لكنّ للرجم عند عمر ألف حكاية وحكاية، يعيشه كلّ يوم، بل كلّ لحظة.

كان بعض أولاد الحارة يظنّونه مجنونا، يتسلّل إلى بيت مهجور قريب من بيته أسفل التل، أسدل الموت على حديقته الخراب، يصل فيه إلى زاوية اسودّت لكثرة ما أُشعلت فيها النيران، يعبر جدرانا من الأشواك المُعمّرة في الطريق إليها، تُطلّ عليها نوافذ مُكسَّرة وجدران مُلَطَّخة، تتناثر علب "البيرة" الفارغة حول صخرة مُدبّبة اتخذها عمر نُصبا يرجمه، فَتجريد الشيطان إلى شكل قبيح، وتنزيله على الواقع، يُسَهِّل على عمر دفع الوساوس ورؤيتها على حقيقتها المجرّدة، لا على التخيّل المفترض، فكم رجم هناك الشهوة والمال، وكم رجم المنصب والشهرة، وكم رجم الشيطان وقد قعد له على الصراط مذ رشُد وأدرك.

**وعند الجمرة الكبرى في منى رجم كبرى الوساوس، رجم سؤال القدر والأسباب الذي يطارده، هل ما أقدم عليه مع همام رحمة أم عذاب ؟ أَهو قدر أم قرار ؟**

**يردّد في نفسه "نزعم أنّنا نملك مصائرنا، ونتفاخر بإنجازاتنا، وما نحن إلا ريشة في مهبّ الأقدار، تحطّ بنا ملايين الأسباب حيثُ شاء المُسبّب عز وجل**

**"إذا لم يكن عونٌ من الله للفتى ... فأوّلُ ما يجني عليه اجتهادُهُ"**

**التوكل، الرضى، والدعاء، أعمال قلب تُقرُّ بها أنّ وراء الأسباب مسبّبا، وأنّ خلف القوانين الحاكمة مُقَنِّنا، تُخبتُ فيها بين يدي الخالق الذي لا يشفع عنده أحد إلّا بإذنه، تُنيخُ رحالك بين يديه معترفا بالعجز المطلق أمام القدرة المُطلقة، تُسَلِّمُ أن الأسباب الذاتيّة فيك؛ وأنّ الأسباب التي مُلِّكتها؛ إنّما هي محض مخلوقات لله - عز وجل - جعلها تحت تصرفك مدّة من زمن، يبتليك بها لينظر هل تكفر أم تكون من الشاكرين.**

**إنّ انتظام الكون الدقيق رغم اللّا محصور من أفلاكه ونجومه، ورغم اللّامنظور من خلاياه ومكوناته، ورغم اللّامحدود من أُممه وعوالمه، مضبوطٌ بقوانين حاكمة وأسباب غَلَّابه، من تركها كُسر وفشل، ومن عاندها كان حاله ( كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ**

بِبَالِغِهِ ) ولو بقي الدهر كلّه باسطا يده فلن يرتوي، ولو بقيت الأمم تتمنى على الله الأماني إلى يوم الدين، وتدعوا بالنصر وعودة القدس فلن تعود"

أفكار وأفكار تدور برأسه كلّما تذكّر ماضيه وما قدّمت يداه، هناك رجم هو وأحلام إبليس، إبليس الذي تزيّن له بلباس إمرأة العزيز لِيثبّطه عن هجرة همام للقدس، وقال له : هيت لك.

يجاهد نفسه فَكلُّ شيء فيه سَينطق، ويخبر أحلام بما أخفاه عنها سنين طويلة، أنّه هو من أخرج همام إلى حتفه، يحاول إخفاء دموعه الكاشفة، وما يُجدي إخفاؤها والنحيب سيّد الموقف. وأحلام تحفظ نظريّته عن إبراهيم وإبليس عن ظهر قلب، ولَربّما أَسَرَّت في نفسها ما كشفته حرقة دموعه ونبضات قلبه وأنفاس صدره الخافقة.

كان مخيّمهم في منى يقبع في أبعد مسافة عن الجمرات، رغم ما كان يزعمه وزير الأوقاف أنّ بعثة بلاده هي أفضل بعثة حجّ في العالم الإسلامي، وقد صدّقه عمر وأحلام أوّل الأمر؛ يوم سجّلوا أسماءهم في مديريّة الحجّ، لكنّهم لم يتذمّروا لا في مكّة ولا في منى، فلا إخبات مع تذمّر، ولا حجّ مع تَسَخُّط.

تسير المواكب ملبّية مكبّرة في انتظام بديع، يتردّد صدى تسبيحهم بين جبال منى، يتناغم مع الكائنات في سجودها، ذلك

**السجود الذي خضعت فيه المخلوقات مُسيرةً لخالقها، بسمائها وأفلاكها وبجبالها وأرضها، إخبات وتسبيح الحيوانات والنباتات، حظّ الإنسان المُخيَّر من ذاك السجود وهذا الإخبات نزر يسير، ربّما يوم حجّه وعمرته، أو يوم صيامه وزكاته، أمّا في حياته ودنياه فهو على النقيض من ذلك مُتذمّر ثائر، ومتسخّط عاصٍ.**

**الله أكبر الله أكبر الله أكبر**

**لا إله إلا الله**

**الله أكبر الله أكبر، و لله الحمد**

**الله أكبر كبيراً**

**و الحمد لله كثيراً**

**و سبحان الله بكرةً و أصيلاً**

**لا إله إلا الله وحدهُ**

**صدق وعدهُ**

**و نصر عبدهُ**

**و أعز جندهُ**

**و هزم الأحزاب وحدهُ**

**لا إله إلا الله**

**و لا نعبدُ إلا إياهُ**

**مُخلصين له الدين و لو كره الكافرون**

**اللهم صلِ على سيدنا محمدٍ**

**و على آل سيدنا محمدٍ**

**و على أصحاب سيدنا محمدٍ**

**و على أنصار سيدنا محمدٍ**

**و على أزواج سيدنا محمدٍ**

**و على ذرية سيدنا محمدٍ**

**و سلم تسليماً كثيراً.**

**كثير من الحجاج يتعجّلون، وكثير منهم في مكّة ينامون، فَفتاوى تحقيق المبيت في منى، وفتاوى الرجم قبل وبعد منتصف الليل عن يومين، أضاعت على الكثيرين حجّهم، لا حجّ الشعائر والطقوس، إنّما حجّ المشاعر والروح، فَخلوة منى والبعد عن الأسواق لها من الحِكَمِ ما لا يعلمها إلّا من ذاقها.**

**بقي عمر وأحلام في المخيّم في يوم التشريق الثالث وحدَهما، مهابة ما بعدها من مهابة، وخلوة ما بعدها خلوة،**

**وكأنّ الرحمات التي كانت تتنزّل على الملايين من الحجاج في منى أصبحت تتنزّل عليهم فقط وعلى القليل الباقي في المدينة المهجورة، أصبحت مدينة الحجّاج في منى والتي كانت عامرة قبل يوم الآن مدينة أشباح، كذلك الحواضر والمدن عندما تخلو من شريعة الرحمن، وكذلك البيوت عندما يهجرها أحبّتها، وكذلك بيت عمر لمّا غاب عنه همام.**

**عمر : الابتسامة هي من تُجَمِّل الأمكنة يا أحلام، وإنّما تلفظ المساكن أنفاسها بغياب من أحبّت يا حبيبتي.**

**وبعدما أنهيا المناسك وطافا طواف الوداع، قَبَّل عمر الحجر الأسود، وقد وضع راحة كفّه عليه متقمّصا مصافحة متعمّدة، مستذكرا قول ابن عباس "الْحَجَرُ الْأَسْوَدُ يَمِينُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ ، فَمَنْ صَافَحَهُ وَقَبَّلَهُ فَكَأَنَّمَا صَافَحَ اللَّهَ وَقَبَّلَ يَمِينَهُ" .**

**مُغالبا نفسه ... مُجدّدا عهده.**

# العبرات (5)

**حطّت بهم الحافلة في المدينة المنورة، ولم يسبق زيارة قبر طاهر إلّا زيارة قبر الحبيب المصطفى - صلى الله عليه وسلم - فاجتمع عليهما مهرجان الأحزان ، بكاء مشاعر منى وبكاء الرسول وهمام وطاهر.**

**يمرّون أمام قبر الهادي -عليه الصلاة والسلام - يرددون**

**"يا خير من دُفِنَتْ بالقاع أعْظُمُهُ ... فطاب من طيبهن القاع والأكم**

**نفسي الفداء لقبر أنت ساكنه ... فيه العفاف وفيه الجود والكرم"**

**وبعد الحصول على إذن خاصّ بزيارة قبر طاهر، اقترب عمر وأحلام من البقيع، ففاحت رائحة الموت وملأت المكان، زوّار يغدون، وأرامل من وراء الأسوار يودّعون، الكلّ في شغل فوق الأرض، ينظّفون، يرشون الماء ويضعون الجريد الأخضر، وتحتها الأموات أشدّ شغلا .. كلّ وما قدم.**

**بحثتَ أحلام عن القبر فلم تجده، فَكلّ القبور على رسم واحد، لكنّ رسم طاهر ومكان قبره محفور في ذهن عمر، لا يغادره، ولا يفارقه، فقد دفنه بيديه، أمسك بشاهد القبر، شدّه بعنف .. وبكى، قرأت أحلام في عينيه حاجته للخلوة، فابتعدت خطوة عن تدفق مشاعره الهادر، وأبقت على مسافة تسمح لها بالتقاط الكلمات أو ما تيَسَّرَ من عبراتها :**

**"أبكيكَ أبي بكاءَ النائحات، أبكيكَ قرّةَ عيني ومستودع الرحمات، أبكي غُربَتَك عن أهلِكَ والبُنَيَّات، كيفَ وجدتَ الموتَ أبي ... والعلامات ؟**

**أبتِ، شَرُفَت الأرضُ بسجودِ البشرِ مع الكائنات، وأزهَرَ الربيعُ مُتَلَحِّفاً بالبركات، واستوى العودُ على سُوقِهِ فأشرَقتِ الظلمات، ونادى منادي السماءِ أنَّ الحقَّ في آل الشُمُوخِ والعَزَمات.**

**أبتِ، ما عُدتُ الأسيفَ الغريبَ بين الناس والجماعات، طاولنا السحابَ في الفضاءات، واشرأبّت مِنّا الأعناقُ ترنو المكرُمات.**

**أبتِ، ما لي وللأضواءِ تعميني ... والنظرات، ما لي وللتصفيق يصمّني ... والشاشات، ما زلتُ صغيركَ أحبو في الساحات، ليتكَ تَنهَضُ فتُنهِضُ فيَّ طفلاً بَحثَ عنكِ يوماً بين الركامِ والمستحيلات، ليتك تُبعَثُ فتَبعَثُ فيَّ صغيراً أَحبَّ أن تَرَاهُ يَصنعُ المعجزات، أبكيكَ ... أبكيكَ ... وقد ولّى زمانُ**

**الطفولةِ والصعوبات، واهاً لكَ أبتِ ما ضرَّ لو عرفتَ صغيركَ يوماً ... والعبرات"**

**يغادرا البقيع والمدينة المنورة، يلقى عمر نظراته الأخيرة في مشهد واحد، على القبّة الخضراء التي تعلو قبر الحبيب المصطفى وعلى البقيع الذي يسكنه طاهر، يتغنّى بكلمات أبي بكر الصديق في رثاء رسول الله، يرثي بها نفسه :**

**"وحُمَّ له عنِ الدنيا انصرافٌ وكلٌّ سوف يَصرِفُهُ الحِمامُ"**

# أبكيك قُدسي (6)

أقلعت طائرة العودة إلى الديار، وكان تعليق أحلام الذي حفظه عمر كلّما أقلعت بهما طائرة مُذ ركبا معا في أول رحلة مشتركة لهما في شهر العسل إلى تركيا في باله، فسبقها عمر وردّد تعليقها وهو يبتسم " أنا شاعرة يا عمر أن هذه آخر رحلة لي وسوف أموت فيها " فردّت إليه الابتسامة بابتسامة أخفّ وألطف، وطفقت تدعو أدعية السفر، وما تيّسر من أدعية الخارج من الدنيا المقبل على الموت، وقد اصفرّ وجهها وارتعشت يداها وتلعثم لسانها.

لم ينظر عمر هذه المرة إلى النجوم والأفلاك، بل استمرّ في النظر إلى المسجد النبوي الذي بدا من السماء كالقصر الأبيض المُتلألئ، فكما كان يسبّح الله على بديع صنعه في الجمادات كلّما طار سابقا، هو الآن يسبحه على جمال خلقه في الإنسان، فقد أذهله جمال محمد - صلى الله عليه وسلم - ورسالته عن جمال الأكوان، يستعرض سيرته العطرة الطاهرة، دعوة وجهادا، صبرا وتضحية، رحمة وحنانا، يتفكّر في غربة الرسول بين قومه، يوم جاءهم بالحق خلافا لعاداتهم وتقاليدهم ومصالحهم، فرفضوا النور، لأنّهم لم يروه، ولم يروا الحقّ الذي جاء به، إنّما رأوا فكرا وافدا غريبا يحمله يتيم أبي طالب

**ابن أبي كبشة لا غير، دأب الأمم المهزومة قبل نهضتها تعاند قدرها بالتحرّر والسؤدد، وترفض منقذها بل تقتله وتحبسه.**

**وقبل أن يغادرا أجواء الحجاز، أرادت أحلام انتهاز فرصة هدوء نفس عمر بعد الحجّ، وما تبعها من سكينة وإيمان ورضى، فَهَمَّتْ بفتح موضوع أسامة وبشرى، ورغم تعاطفها الشديد مع عمر، إلّا إنّ طبعها غلبها، ولم تستطع أن تقفز عمّا كان يشغل بالها من زيارة عمر لقبر طاهر في البقيع، فبدأت به :**

**- عمر ... تالله إنك لفي ضلالك القديم.**

**- حسبنا الله ونعم الوكيل ... ما بك أحلام ؟**

**- كنت تتكلم مع أبيك في البقيع وكأنّ القدس قد عادت، ونزل علينا النصر من السماء.**

**- وما الضير في ذلك.**

**- ألست ترى الدنيا ؟ .. ألست ترى الأحداث ؟ ابنك في الأسر لا نعرف عنه شيء، ولا نملك فعل شيء، وبشرى ... ، تتدارك فتسكت ولا تكمل الكلام عنها، وتستأنف : "وأنت تقول .. طاولنا السحابَ في الفضاءات، أنت حالم يا عمر .. أنت واهم يا عمر"، يستشيط غضبا، فقد ضربت على الوتر الحسّاس وفركت الفلفل في الجرح : "أنا لم أطلب منك مواساتي وأنتِ من تطوّعت لزيارة قبر والدي معي، فلماذا**

المنّ والأذى ؟ دعيني وشأني، فإنّي أعلم من سنن ربي ما لا تعلمين." كان عمر رغم ما قاله لأحلام، يعرف أن المعارك العظيمة ومحطّات التاريخ المفصليّة، يلزمها من الوقت ما يناسب حجم الحدث، وليس لها إلّا الأخذ بسنن الله التي سنّها لعباده، لكنّه مع ذلك كان يَمُدُّ أمام نفسه وأمام مُحَدَثِيه أملا فسيحا من التفاؤل وحسن الظن بالله.

- والله إنّك لمجنون، ألم تكن تقول هذا الكلام لأمّك ؟ وتعدها أنك ستصلّي معها في القدس، وها هي أمّك عجوز خرفة، وأنت .. أنت .. عمر بيك حفيد البيك حامد.

- اخرسي .. أنتِ خرفة وشمطاء أيضا، وبإذن الله سأصلّي مع بشرى في القدس، بينمّا تتعفنين أنتِ في قبرك.

أشاحا بوجهيهما عن بعض، هي تُجاه الركاب وهو تجاه شبّاك الطائرة، مد نظره لمئات الأميال بعيدا ناظرا متخيّلا القدس وقبّة صخرتها الذهبية، ثم أنشد بخواطر نفسه لا بلسان فمه :

"يا قدس، أبكيك قُدسي وقدسَ كل موحّدٍ وأبكي فيك أحلام الصبا وتشوُّقي، أبكي فيك يوم العبور الناقص وأبكي فيك رفيق الدرب المُجندل، أبكي ثرى التّراب الطاهر ضمَّهُ فجرا ولا زال المكلوم في الموطن.

أيا مدينة لعودتها تزيّنت السماء بالأنجم، أين أنت عن كهلٍ مُتَعذِّر، سار يوما إليك فَبات في المعتقل، وهل في مجدكِ متسعٌ

**لمناصرٍ بالكلم ؟ لكلمة التوحيد هو منافحٌ بالأحرف، فالخائب من فاتهُ الفتح مع الجند الأروع.**

**أبكيكِ .. أبكيكِ .. أبكيكِ، وأبكي فيك همام المكنى بالعُمَر، وغريبا لم يشهدا في الدُنا معاليك، بدمائهما طهَّرا المنارةَ البيضاء للزحف المقدس مع ابن مريم يؤمهم عند الفجر في المسجد"**

**أمّا هي فتناولت من الجيب المعلق بالكرسي أمامها الأوراق التي تضعها شركة الطيران لتقديم الشكاوى، وكتبت شكايتها :**

**"أكرمني الله وإياك يا عمر بالحجّ هذا العام، ولتقدير الله أسرار وحكم، رحلة ليست كّكُلّ الرحل، فيها نترك الأهل والولد، مُتجهين إليك إلهي، متجرّدين من كلّ ما في الدنيا، وقد أخلفناك فيمن وفيما تركنا وراءنا، أياما ليست بالأيام، ولكنها نفحات ربّانية تملأ الروح والعقل والنفس والجسد.**

**أيام منى كانت أوقاتا فيها لله ما فيها، تبتعد فيها النفس عن الدنيا وما فيها من ملذّات وشهوات وملهيات، رمي الجمرات وما فيه من عناء لذيذ، والمبيت في الخيام على أرض كلّ ما فيها يترك أثرا في الجسد، لمنى في قلبي وقفات ... مع عمر الحبيب رغم كل شيء، ورغم غضبه المستمر وغير المبرر، لمنى في قلبي ومضات مع الأمّة إبراهيم - عليه السلام - وزوجته وابنه والتسليم والتفويض لله، لمنى في قلبي رعشات، وعهد مع الله أتمنى عليه أن يُعينني على الوفاء به،**

**الّلهم ارزقني تسليما كتسليم خليلك، وتفويضا كتفويض خليلك، ورجاء بك كرجاء خليلك ... أنكَ غيرُ مُضيعه وزوجه وابنه ..."**

**تدمع عينها وقد تذكرت همام، ثم تنظر إلى عمر نظرة حبّ وإشفاق، كانت فيها دمعة الرحمة والشفقة بالنسبة إلى عمر كابتسامة الساخر، فكلاهما مُؤلم قاتل، وتختم شكايتها :**

**"سامحك الله يا عمر، فرُبَّ كلمة جارحة، كالرصاصة، لا يُصلحها اعتذار، لقد أصبحتَ تكتب الحكم بالإعدام على الآخرين، وكأنك تكتب خاطرة**

**سامحك الله"**

# المعاينة

# سؤال القدر (1)

**عمر : كيف أسامة يا حبيبتي، لم نسمع عنه منذ زمن ؟**

**تتغافل بشرى عن السؤال وكأنّها لم تسمعه، وفي محاولة منها لتغيير الموضوع، تنحو في النقاش منحىً يُنسي عمر موضوع أسامة، ويغرقه في الحوارات التي يحبّها :**

**بشرى : بابا، أما لهذه الابتلاءات التي أصابتنا من نهاية ؟ وما حاجة الله من عباده بِكلّ هذه الفتن ؟**

**عمر : يا بُشرى، إن ما ترينه هو نتاج أفعالنا، ولا تتكسّر أعتى الأمواج إلّا على القامات الشامخة، وكلّما تأخّرنا عن فعل الصواب كانت الضريبة أكبر وأكبر، والله يعلم الصادق من عباده ويعلم المنافق قبل أن يخلقهم، لكنّه يجعل لذلك دليلا في الدنيا يُحاسب الناس على ما اقترفته أيديهم فيها يوم القيامة، فلا ظلم هناك في محكمة السماء، يوم التغابن، يوم تُرفق بيّنات الدنيا مع اتّهامات الآخرة.**

**بشرى : أحس يا بابا أننا في هذا المعترك وحدنا، الناس في نعيم ونحن في تعب !**

**عمر : يا حبيبتي، يوم يأتي نصر الله في الدنيا يكون له ألف أب وأب، أمّا إن كانت الهزيمة والابتلاء فهي يتيمة، ولا يعاركها إلّا قِلّة من الناس، وحظّنا أن نكون منهم.**

**بشرى : أَوَليس الله أعلم بما في صدورنا ؟ فهلَّا رفع عنا مانحن فيه.**

**عمر : لا بدّ من عدل مؤلم يا حبيبتي؛ حتّى يعلم الناس ما ينعمون به من فضل هانئ.**

**بشرى : صحيح يا بابا ... صحيح.**

**عمر : نزعم يا بُشرى حبَّ الله والرضا بقدره، فإذا أوذينا في الله جعلنا فتنة الناس كعذاب الله، فاعلمي حبيبتي أنّ مَنْ آمن بالله وأحبّه فَسيُؤذى فيه، نسأل الله العفو والعافية في الدنيا والآخرة.**

**بشرى : لا زلت أحسّ بِدفء يد همام على يدي منذ لامستها عندما زرته في السجن قبل سنوات، هي لمسة ليست كَكُلّ اللمسات يا أبي، ولم أهنأ بعدها بنوم، وما استَلْذَذْتُ من حينها بطعام، كيف لي ذلك يا أبتِ وهو جائع مُعَذَّب ؟**

**عمر : السجن والموت من أجل المبادئ شرف لا يدركه الصغار يا حبيبتي، وستبقى حريّتنا أوسع من كل سجونهم. والنفس يا بُنيّتي كالماء، في ركودها أَسَن، وفي تدافعها نقاء، والشمس تُشرق على من ارتقى أوّلا ولا أظنّ همام إلّا منهم يا**

**حبيبتي، فَرغم الحتّ والتعرية تبقى بعض الصخور شامخة دائما.**

**تجهش بالبكاء : ولكن عزائي يا بابا أنّ الشمس التي تُشرق على همام هي التي تُشرق عليَّ، فآنس بها كل صباح، ولا أفرح لرؤيتها إلّا لأنّه رآها، وأنّ القمر الذي يُضيء ليل همام هو الذي يُضيء ليلي، فأرى في صفحته انعكاس طيفه، أُلاطفه ويلاطفني، أُبادله الشوق ويُبادلني، قالت بشرى ذلك وهي لا تعلم أن همام بصندوقه المصمت لا يرى شمسا ولا يراه قمر، وكلّ الذي حدّثهم به في زيارتهم اليتمة عن رؤية آية الليل وآية النهار، كان كذبا في كذب، يخفّف به عن أحلام وبشرى فاجعتهم به.**

**يربت عمر على كتفها ويحضنها، وهو للبكاء بل للنواح أشدّ حاجة، يُخفي ترقرق الدمع في عينيه، ربّما حسدها لأنّها رأت همام حتّى لو مرة واحدة، وحتّى لو نصف ساعة فقط، أمّا هو فَلم يراه منذ بضع سنوات، يموت في يومه عليه ألف مرّة ومرّة، ولا يدري به أحد، فدمعته عزيزة كدمعة والده طاهر، يُطيل ضمّها علَّ عينياه تَجِفّان، يشدّها إليه علَّ رجفان يديه يتوقّف، يُطيل الصمت علَّ الحشرجات تُكبت ...**

**أي بُشراي، يُريد الله منَّا أن نعرف نِعَمَه، يحرمنا ما ألفناه دهرا من الزمن، ثم يُذيقنا منه نزرا يسيرا، كتلك اللّمسات الدافئة التي قتلتكِ، نُدرك بعدها ما كنّا فيه من نعمة، وما أغدق اللهُ علينا من رحمة ...**

يُبعدها عن صدره قليلا بعد أن مسك زمام نفسه مجدّدا، فيرى نظرة في عينيها متلألئة ليست كَكُلّ النظرات، يتأرجح تأرجح السكران الثمل، ولهول الموقف يظنُّها سمعت حديث نفسه ونواح قلبه وهو يقول :

"لمن يا همام تتركني ؟ للحزن أكابده طيلة عمري ... أم لذكراك الأليمة تقتلني ... أم لسؤال القدر والأسباب يذبحني ... إنّه قهر الرجال يا فلذة كبدي ... إنّه العجز عن فعل أي شيء يُقعدني ... حسبي الله يا همام ... حسبي الله ... جعلكَ اللهُ فتنةً للذين ظَلَموا ... وتذكرةً للذين ظُلِموا ... أنّ فضله على هؤلاء كبير ... وأنّ مَكْرَهُ على أولئك آت"

ينظر إليها بعين ملؤها الإشفاق والرأفة، يَتَجَلَّدُ ويكمل، إنّها يا حبيبة قلبي بشرى متاع الغرور، والدنيا بالمحصّلة كهشيم تذروه الرياح، فما قيمة أجساد تلامست عندما يأكلها في القبر الدود ؟ وما قيمة عيون تلاقت إذا حيل بينهم وبين ما يشتهون ؟ فاحتسبي هذا البلاء ليوم لا ينفع فيه مال ولا بنون، إلّا إن جنناه يا بُشرى بقلب سليم، قلبٌ سمت فيه المعاني عن متطلّب الجسد والطين، وكانت للخلود ناظرة في مسعى الروح واليقين

أي بُنيّتي، لا تحزني فإنّ هذا مقدر منذ جفت الصحف في الكتاب المبين، ودروب الهداية دائما محروسة بالتوفيق، ومن تنسّم الطيب ترفَّع عن العطن، فجلال المعنى لا يُدرك بِوضاعة المادّة، وفي يوم قريب سيكون مجرّد رواية تُروى وبطاقة تُوْزَنْ، فكوني لله ساجدة وله حامدة، فما نحن فيه مقارنة

**بالبلاء يسير، وهو اللطيف بعباده، ربّي ورّبك وربّ همام وربّ آسِريه ... ربّ القدس وربّ اليهود ربّ العالمين.**

**ويبقى الأمل يا بُشراي ما بقيت في الجسد الروح، وإن غاب الحبيب فقد بقي الحب، ومهما بعدت الشقة إلّا أنَّهُ هناك، وسيُشرقُ يوما ما.**

# حضرت القدس وحضر جوابها (2)

**لِتَسمُوَ للخلودِ مَغْنَىً وحِسَّاً يأبى عليكَ الله في دنياك دوامَ اللحظات الرائعة ببراءتها وبَسَمَاتها، يُذيقكَ فيها قبساً جميلاً من آخرتك، لتكونَ ممن سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا**

طيف يستبدّ بك يقتلك، لا أنت ترتوي ولا هو ينضب، تأمّلت أحلام عيني همام في الصورة المفضّلة لديها، رفيقتها في حلّها وترحالها، احتفظت بها في شنطتها اليدوية، بهتت ألوانها لكثرة ما داعبتها بأناملها، واهترأت لكثرة الدموع التي سالت عليها، يصل إلى مسامعها بعض الأخبار عنه وكأنّها لا تسمعها، تأتيها التلميحات تترا فَتتغابى في فهمها، التقت به يوما في منامها، فما الأحلام في جزء منها إلّا حديث النفس واهتمام الفكر، حاولت عناقه فَلم تستطع، رامت لمسه فما قدرت، تَحُوْل بينهما الحقيقة والواقع، فما نفذ من عالمها إلى عالمه إلّا كلمات حرّة أذنت بها أضغاث أحلام ... أحلام، فَترنّمت بها كل صباح وكل مساء.

أخفى عمر الخبر الصاعقة عن أحلام، فقد علم أن حملة إعدامات قادمة للأسرى في سجون العدو، وأنّ همام من الذين وردت أسماؤهم في القائمة، لم يدرِ عمر ما يفعل ، فهو في نفسه أضعف من أن يتحمّل خبرا كهذا، وهو لا يقلّ هشاشة عن أحلام في حبّها لهمام، لكن القدر الذي جعل منه الأب وجعل منها الأم، لزمه وأقام عليه حُجّة الثبات وحُجّة الرسوخ والصمود، وكيف له أن يصمد ؟ ولن يكون هناك همام بعد اليوم، وهل هو الذي أودى بابنه وأرسله إلى حتفه ؟ أم هي الأقدار ؟ خبر أعاد له السؤال من جديد، أَيُخبر صعب في بلغراد ؟ وهل صعب من الرجولة بمكان لتحمّل مسؤولية خبر كهذا ؟ أم يخبر بشرى حياته بشرى، وهي الغضّة الفتيَّة حبيبة همام ورفيقته ؟ أي وسيط هناك لينقل الخبر إلى أحلام ؟ ألقى بجثّته

**التي أحسّ أنّها بوزن الجبال على الأريكة سارحا واجما، لا يعلم بحاله أحد، ولا يقدر على حمله إنس ولا جن، فإخبار أحلام بالإعدام أصعب عنده من الإعدام بذاته، فنهاية همام بعد إعدامه جنّة عرضها السموات والأرض يحسبه عمر كذلك والله حسيبه، أما خبر الإعدام فهو جحيم الدنيا ونارها، فهل تنجو أحلام من هذه، كما نجت من خبر هجرة همام، وكما فارقت عمر أول مرة ؟ لقد كبرت في السن وما عادت تلك المرأة الحديدية ، فقد وهن العظم منها لكثرة ما نزل عليه من بلاء واشتعل رأسها شيباً.**

**قَرَّرَ تأجيل الخبر، ومهّد لها بكلمات، تركها على الأريكة بجانبها، علّها تتعثّر بها فتقرأها مصادفة، يكون فيها تسرية عن حقيقة لا بدّ لها أن تعرفها عاجلا أم أجلا :**

**"جَرَّت الأيامُ الأيامَ وسحبت الأشهرُ الأشهرَ في انتظارها، مرّت عشر سنوات بحُلوِها ومُرِّها، نجح بعضنا في بعضها وأخفق البعض في كلّها، مال الكلّ إلى بعض الدنيا واستقام البعض عن فُتَاتِها، وتعاظمت في المُعجب برأيه الأنا وظنّ أنّه فارسها، فلفظت عن نفسها خبث المتساقطين على طريقها، بالماء والثلج والبرد طَهَّرت ثوبها وبدنها، فاستوت على عُودها واتّسقت مع الخلائق في سجودها، بالدم والحبّ والورد قطفَ الثمارَ زُرَّاعُها، كُنّا أنا وأنتِ يا أمَ همام وجُلّ المسلمين نقف حائلا دونها، فكسر القيد ثُلّة الطُّهر من الأمّة فوصلوا**

**أرضها، واستشهد منَّا أصدقنا في طلبها، غلبت سنّةُ الله سننَ البشر، ومن تحت الركام بُعثت أمّة نبيها، فتحقّق الوعد يا رفيقة الدرب وحضرت القدس وحضر جوابها ... فاحتسبي حظَّكِ منها"**

# فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا (3)

حرص عمر في هذا الأسبوع على إخفاء أيّ معلومة تصل إلى إحلام عن إعدامات الأسرى، فتلكّأ في إصلاح جهاز استقبال الأقمار الصناعية الذي زعم أنّه تعطل، امتنع عن إحضار الصحف اليومية للبيت لِمُدّة أسبوع كامل، بذل جهده في إلهاء أحلام عن أيّ شيء يُذكّرها بهمام، ورغم أن سيرة صعب بالنسبة له كانت همّا وغمّا، إلّا أنّه الحديث الوحيد الذي قد يشتّت أحلام عن تتبّع أخبار همام، هو يعلم أن الخبر سَيصلها عاجلا أو آجلا، لكنّه أراد اختيار الوقت والكلمات المناسبة التي يستطيع تمهيد الخبر فيها، أو بالأحرى حتّى يستطيع هو استيعاب الخبر والتصالح معه ابتداء.

عمر : متى كان آخر اتّصال لك مع صعب ؟

أحلام : لا أدري بالضبط، لكنّه لا يقل عن عدّة شهور .

عمر : وهل تعتقدين أن هذا "السرسري" يدرس في بلغراد ؟

أحلام (بغضب) : صعب ليس "سرسريا"، وهو ابنك في النهاية، وقد أخبرني أنّه تجاوز مشكلة اللغة في دراسته.

**عمر : ابني صحيح، لكنه الابن العاقّ.**

**أحلام : ليس عاقًّا، إنّه يحترمك ويبرّك .**

**عمر : إنّما البرُ، الهداية والصلاح قبل أن يكون تقبيل الأيادي والاحترام.**

**أحلام : اللهم اهده ووفّقه، ومهما صدأت القلوب يا عمر فالأمل بانفتاحها للهدى باقٍ ما لم تطلع الشمس من مغربها، اسبر غوره يا عمر، وستجده دائما طفلا يرجو حنانك.**

**عمر : دعك من كلام العواطف هذا، وأخبريني ما السبيل للتأكّد من وضعه، وهو لم يزرنا مرة واحدة في ستّ سنوات ولا نعرف عن دراسته شيئا ؟**

**أحلام : نسأل صاحبه سعيد، فهو شابّ صادق وخلوق؟**

**عمر : دعكِ من هذا الكلام، شبابٌ يغطي بعضهم على بعض ...**

**يُطرق رأسه قليلا، وبعد تفكير قليل يقول : وجدتها ... ليس لي إلّا زيارته في بلغراد زيارة مُفاجئة.**

**شعر عمر بعد هذا النقاش أنّه بحاجة شديدة إلى الاختلاء بنفسه، فالبُعد يكون أجمل من القرب أحيانا، والابتلاء بِنقيضيه، همام وصعب، بلغ به الغاية، وأشدّ ما فيه ابتلاء التسليم بالقضاء والقدر، قدر الهداية وقدر الضلال، بودّه لو أنّ**

أولاده صلصالا يشكّلهما كيفما شاء، لكنّه التسليم لمشيئة الله، وقد علَّمه طاهر في شبابه ( إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ )، ولكنّ المعاينة غير النظرية، وقد أدرك عمر أنّ لكلّ عقيدة رسخت في القلب لا بدّ لها من ابتلاء في واقع الحياة، فذاك موسى - عليه السلام - قال : ( سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ) نظريّا، فما لبث أن عاين الواقع؛ فأدرك البَوْن الشاسع بين النظرية وبين إسقاطاتها، فلم يستطع صبرا.

ترك أحلام في البيت تفكّر بكلامه عن زيارة صعب، وقد شتّت انتباهها عن همام قليلا، وذهب إلى مَرجَمه العتيق أسفل التل على المنحدر حيث البيت المهجور، أمسك هذه المرة بصخرة كبيرة، وجد صعوبة بالغة في حملها وقد بلغ من الكبر عتيّا، فما عادت الحصيات تجدي نفعا مع إبليس ووساوسه، ورجم هناك سؤال القدر والأسباب للمرّة الأخيرة، فإنْ كان قدر صعب النار، فهو لن يملك له من الله شيئا، وإن كان قدر همام الموت فإنّه أيضا في ذلك عاجز أمام ما كُتب على ابنيه وهما في بطن أحلام شقاء أو سعادة، هو أخذ بالأسباب والتزم بمطلب الشرع، وكذلك أولاده كلٌّ وما قدم، رفع صخرته الكبيرة وقد تزايلت أوصاله وتفصدت عُروقه مردّدا ، "قدّر الله وما شاء فعل، قدَّر الله وما شاء فعل"، وألقى بها على مرجمه فتحطّم وتفتّت.

**وذكر الراوي أن الجارات شاهدن في ذلك المساء إمرأة سوادء مُمزقة الثياب ناثرة شعرها تتقيّأ من فمها الزبد، تلطم وتولول، تركض بعيدا وتصيح :**

**غلبني الفاروق، غلبني الفاروق، فلم يعد لي هنا مسكن ولا مستودع**

# السكون (4)

نام عمر ليلته هانئا مطمئنا، وكأنّ حملا ثقيلا أُزيح عن أكتافه، فرأى نفسه يُخاطب همام في منامه: قتلني الشوق واستبدّ بي الحنين، كيف لا وأنتَ بعضي وبضعي، تزورني في المنام مُتأنّقا، في رباطة جأشك حُزن، وفي مُحياكَ البهي تساؤل :"أي والدي ... لعلّي سبّبت لك حرجا ؟! أو أنّي بخروجي ضيّقت عليك واسعا ؟؟ !!"

فيجيبه : أي فلذة كبدي، أي همام الهُمام، يا حبّي الذي أسلمته للقدر، دع عنك حالي ولا تلتفت لمآلي، ادنُ منّي، فإنّي إليك لفي شوق، وتعال أعانق طيفك الساحر، فإنْ عُدمت لحمك ودمك، فلن يبخل عليَّ ربي بنفسك وروحك في منامي وفي خلجات نفسي، ويا عاذلي، دع عنك لومي، فإنّي أحسب أنّي أعلم دون نهاية القصة ما لا تعلم، وإنّما أشكو بثّي وحزني إلى الله.

تبدّد الحلم من بين يدي عمر وهو يحاول التشبّث به دون جدوى، واستفاق قبل الفجر وهو يردّد : فهو حسبي وهو حسيبي، ولمّا تأكّد أن أحلام لم تُحسِنْ به ولم تستيقظ على صوته، توضّأ وذهب إلى غرفة همام ليصلّي هناك ركعتين قيام

**ليل، الغرفة التي تركتها أحلام على ما هي عليه منذ دخلها همام للمرّة الأخيرة، تنسّم عمر رائحة ملابس همام التي تركتها أحلام دون غسيل، فلا زالت رائحة عرقه كما هي، أجمل من كلّ العطور الباريسية الفاخرة التي تركها همام على مكتبه قبل أن يُطلّق الدنيا ويغادر، الوسادة نفسها لم تُغسل، الملاءات هي هي، ففي بعض الأشياء سلوة عن صاحبها، وكتبه التي كان يطالعها مفتوحة على نفس الصفحات التي وصل إليها قبل أن يُتَرجم ما فيها من معانٍ إلى أفعال وأعمال، أمسك عمر بكتاب (مشارع الأشواق إلى مصارع العشّاق و مثير الغرام الى دار السلام) وقرأ لكاتبه الإمام ابن النحاس "وإذا أخذنا هذا بعين الاعتبار، وجدنا من قُتل لانهزامه، أكثر ممن أصيب بسبب إقدامه، والإقدام بقوة الاهتمام، والتجرّد من تقديرات الأوهام، سببٌ لنيل كلِّ مرام" أراد إغلاق الكتاب على اعتبار أن العاشق قد بلغ مصرعه، لكن بقيّة أمل منعته، فتركه على حاله، قَلَّبَ رسائل همام الأخيرة، وحرص على إعادتها تماما على الهيئة التي كانت عليها يوم كتبها همام بالدمع قبل أن يكتبها اليوم بالدم.**

**تذكّر أوّل وقوفه على قدميه يركض نحوه حتى لا يقع، يراه الآن يبتعد عنه بعيدا نحو المجد، تخيّله مُسَجّىً على الفراش ميّتا، ذاك الفراش الذي لأجله هجرت أحلام فراشها ليالٍ طويلة، وتساقطت فيه نفسها، تنام عليه وتَشُمُّ فيه عبق ولدها، وتستذكر فيه طفولته حبّا وشقاوة، وحياته صحوا ونوما، ولم تعد إلى فراشها إلّا بعد تهديد عمر الغاضب، كآخر أسلوب**

اتّبعه معها لإقناعها بالعودة إلى حياتها الطبيعية، فجثا على ركبتيه أمام السرير، محدّثا نفسه بصوت لشدّة صدقه أسمع كل ذي كبد رطب إلّا أحلام وبشرى وكل النائمين وما أكثرهم :

"انطق .. لا زال فيك من الحياة نبض، تبسّم .. لا زال فيك من الوفاء عهد، عن وجهك لن أكشف الغطاء فكلّ ما قالوه كذب، تحرك .. فلا زال فيك من البقاء رِكز.

أرى عيونك من تحت الملاءة تتقد، لم تمت .. وكيف تمت والوعد حق ؟ كيف ترحل ؟ وقد أقسمنا أنَّا مُنتَصِرون، كيف تُغمض ؟ وعلى غيابك عيناي كل يوم تنتحب، أرجوك لا تمت أيها الجميل الطيب البطل، ابق ألم يكن عهدك لي ما له حدُ : نعيش معا .. نموت معا .. والحب يمتدُ.

قم وانهض .. فقرّة العين في البيت تنتظر ولقُبلة المساء هي تفتقر، قم وانهض ... ما زال في فكرك غايةٌ ومطلب، شريعة الرحمن نبغيها .. وإن غيَّرَ المَلأ"

تصارع الدمعةُ مقلة العين، تفارقها ضعفا فتبرد، أم تلازمها تجلُّدا فتحرق، رفع وجهه المُلقى على الفراش، ونظر من النافذة إلى الظلام وقد أرخى سدوله في كلّ مكان، في ليلة ليلاء لا يكاد يغرب لها كوكب أو يأفل لها نجم، وتذكّر رجمه الأخير ونهاية وساوسه، فسكن سكونه قبل الأخير وقد قُبض بعضه، محا حبُّ الله في نفسه حبَّ الولد، ارتجَّ عليه قليلا، فلم ينطق، وبصعوبة أَتَمَّ : "قم يا همام فَمُت ... فالقدس تنتظر"

# البحر الأسود (5)

**السابع من كانون الأوّل**

**ربّما لم تعرفه حقّ المعرفة، ربّما غفلت عنه نهارا ولم تناجيه ليلا، وربّما الإيمان الذي تحمله بين جنباتك كان متناً جافّاً وحرفاً صلداً، ربّما ... وربّما ... وربّما، أمَّا هناك حيث الغيث منهملٌ، فقد عرف الحبيبُ الحبيبَ، ففي الملكوت نظر ثم تفكر، تلك طريق العائدين وسبل التائبين، ولما أبيتَ أنتَ السبيل وأضعتَ الطريق، ولأنّه يُحبكَ أبى لكَ إلّا الرحمة والسلام، ففي الصعاب وضعك وعن الصوارف عزلك وعن الموانع حجبك، لتعلم أنّه لا يأفل وأنّه هو الأكبر، ففتح لك دون الغمام أبواب السماء، فَأَنِخ رحالك بين يديه، وعلى عتبات بابه ... تمرّغ.**

**كان نائما في حضن صوفي يوم رنَّ هاتفه في منتصف الليل، رنَّة ليست كباقي تلفوناته التي كان يتلقَّاها في سنين عمره الضائعة في الغربة، يواعد بها أصدقاءه في نادٍ ليليّ أو يرتّب مع خليلاته موعدا غراميّا، لم يترك حديقة في بلغراد إلّا وكان له فيها قصة وحكاية، شاهد الأفلام في دور السينما كلّها، ولعب "الشدّة" في المقاهي جُلَّها، ربّما كان مسجد بلغراد الوحيد الذي لا يطأطأ رأسه يوم يدخله، إمّا لصلاة جمعة يتيمة بعد أسبوع مُجون وضياع، أو للشيء الوحيد الذي بقي له من دينه؛ لقمة حلال في المطعم الإسلاميّ أسفل المسجد، ورغم أنّهم كانوا لا يطبخون إلّا نوعان اثنين من الطعام تقريبا، فلفل أصفر حلو محشو بالرز ولحم حلال يذبحونه في ساحة المسجد مع مرق الطماطم الأحمر، أو فاصوليا بنفس المرق، كان لا يفوّت فرصة للذهاب إلى المطعم إلّا وانتهزها، سأله سعيد عن ذلك يوما ما :**

**سعيد : أراك يا صعب رغم كل مُجونك تحرص على الأكل الحلال !**

**صعب : ألهذه الدرجة تظنّني فاسقا ؟**

**سعيد : (بسخرية) هههه، لا أبدا، بل أراك شيخ الإسلام وإمام المسلمين .**

**صعب : اسمع يا سعيد، رغم المعاصي والكبائر التي أرتكبها إلّا أنّ هناك فرقا بين ما يخرج منك وبين ما يدخل جوفك.**

**سعيد : "مش فاهم" ؟**

**صعب : لن أطيل الشرح، لكنّه سرُّ أمي الوحيد الذي حافظت عليه يوم ودّعتها في المطار، ألّا ينبت لحمي من أكل حرام .**

**سعيد : والخمر التي لم تدع من أنواعها شيئا إلا وشربته !!!**

**يرتبك صعب : ذاك شراب تتبوّله وهذا طعام ينمو بلحمك .**

**سألته صوفي وقد قفز عن السرير مبتعدا عنها وقد وجم وُجوم الخِراف أمام الذئاب بعد تلقّيه المكالمة الليلية :**

- **ما الخبر يا صعب من على الهاتف ؟**
- **لا أحد ... لا أحد.**

**لم يخبرها بالصاعقة التي ستحلّ عليه بعد أقل من عشرين ساعة، فهو في نظرها الشاب المستقلّ المتحرّر الذي لا يخاف من أمّ ولا أب، وقد أمضيا معا ثلاثة ليالٍ حمراء في فندق "كالدوفا" المُطلّ على نهر الدانوب في بلدة ديرداب، حيث الجبال المكسوّة بشجر التنّوب الأخضر، تطلّ على النهر من كل الجوانب، تاركة فسحة وكأنّها لسانٌ من الجنان امتدّت فيها**

الأرض مستوية تخترق الجبال، أُقيم عليها فندق فاخر، يعزلك عن العالم، فلا يراك إلّا من قابلك من النهر، أو من نظر عليك من أعلى، ولروعة وهدوء المكان، اتّخذتهُ منتخبات كرة القدم العالمية مَصْيَفا ومعسكرا للتدريب للبطولات العالمية، تتحقّق فيه الراحة النفسية قبل الاستعدادات الجسدية والتدريبات المضنية.

وصلا إليه قبل ثلاثة أيام بعد إنهاء رحلة جامعيّة علميّة لمحطة دييرداب لتوليد الكهرباء، تقع أسفل مجرى النهر على الحدود مع رومانيا، ربّما استفاد الطلاب بعض المعلومات العلمية، وربّما شاهدوا الكتل الإسمنتية الضخمة على شكل مثلثات مُدببة، تُلقي بها الآليات لتوسعة السد ورفع منسوبه، بعد تراكم الطمي عبر السنوات، ممّا قلّل ارتفاع الماء اللازم لتحقيق الضغط لتحريك التوربينات الضخمة، والذي تقبع أسفله محطّة توليد الكهرباء، ربّما شاهد الطلاب ما لم يشاهدوه من قبل، ولكنّ الأهمّ من ذلك كلّه هو الإجازة التي تتبع الزيارة، والليالي الحمراء التي يخطّط لها الطلاب كلّ عام بعد تلك الزيارة.

كان الطلاب المواطنين يستغلّون غياب الأهل في هكذا إجازات لزيادة المجون، أمّا صعب والطلاب العرب، إلّا من رحم ربي من أمثال صديقه سعيد، فكانوا يعتبرونها فرصة لِغيابٍ فوق غياب، ففي هذا الفندق لا يوجد سعيد ولا الأصدقاء الذين قد يخجل منهم صعب وأضرابه من الطلاب العرب، عوضا عن وجود عمر أو أحلام.

**صوفي : إمّا أن تخبرني ما الموضوع يا صعب وإمّا سأنزل إلى البار الآن، ألست حبيبة قلبك كما تدّعي ؟ لِمَ لا تُخبرني ؟**

**يخرج من الغرفة إلى شرفتها التي تطلّ على الجبال الموحشة في ظلمة الليل خلف الفندق، لم ينتبه لكلام صوفي، بل لم ينتبه لها أصلا وهي تغادر الغرفة بعد أن وضعت ملاءة فوق جسدها شبه العاري، كلّ الذي أراده أن يعيد الاتصال مع سعيد ليفهم منه الموضوع.**

**صعب : ألو سعيد ... هل أنت متأكد ؟**

**سعيد : نعم يا صعب لقد اتّصلت أمّك، ولمَّا لم تجدك في السكن طلبت منّي أن أخبرك أن والدك سيصل إلى بلغراد غدا .**

**صعب : وماذا يريد مني عمر بيك ؟ ألن يكف عن مطاردتي ؟**

**سعيد : .....**

**صعب : هل تعلم يا سعيد أنّ سبب دراستي هنا في بلغراد كان هروبا من أبي ومتابعته لي ووصايته عليَّ.**

**سعيد : وماذا أنت فاعل ؟**

**صعب : ماذا أخبرتك أمّي بالضبط ؟**

**سعيد : قالت أن عمر سَيحضر بشكل مفاجئ إلى سكن الطلاب، وإلى غرفتك تحديدا، حتّى يعرف عن حالك المخفي بعد هذه السنوات، والتي لم تبعث لهم بها لا رسالة ولا أيّ كشف علامات أو أيّ شيء يطمئنهم أنّك لا زلت حتّى مسلما على الأقل، وتدرس.**

**صعب : وماذا أيضا ؟**

**سعيد : وسيذهب إلى الجامعة لمتابعة أوضاعك الدراسية .**

**صعب : يا سلام !!!**

**سعيد : وقد أكّدت عليَّ أمّك أن أخبرك أنّ خطوة أباك هذه يُفترض أنّها سرّية وأنّك لا تعلم عنها شيئا، وإن عرف عمر أن أحلام أخبرتك فستسبّب لِأمّك مشاكل لها أوّل وليس لها آخر.**

**صعب : أَلَيس الأولى به الذهاب لِإخراج همام من السجن ! أليس هو من ضيّعه ؟ فليتركني بحالي ...**

**سعيد : دعك من هذا الآن، هل تريد مني أن آخذ مفتاح غرفتك من المشرف وأنظّفها من الصور الخليعة التي غطّت الجدران، وأخرج زجاجات الويسكي والفودكا، قبل أن يأتي أبوك إلى الغرفة فَيموت هناك بالسكتة القلبية ؟**

**صعب : لا تفعل شيئا، سأحضر أنا بنفسي لترتيب الأمور .**

**سعيد : لكنّ المسافة بينك وبين بلغراد تحتاج إلى إثنتي عشرة ساعة على الأقل، وربّما تتأخّر ويصل والدك قبلك.**

**صعب : فليصل قبلي، ومن قال لك أنّي أخاف منه.**

**سعيد : صلِّ على النبي يا صعب .**

**صعب غاضبا : أتعرف يا سعيد، سأترك الغرفة كما هي ولن أزيل شيئا.**

**سعيد : يبدو أنّك سكران.**

**صعب : لا ، ولكنّي لا أخاف من أحد، إنّي أحذرك، لا تفعل شيئا بالغرفة.**

**يغلق الخطّ بغضب .**

**سعيد : ألو ... ألو ...**

**يحسّ صعب أنّ قدميه لا تحمله، فَيُلقي بجسده على الكرسي الخشبي الخفيف في الشرفة، فَيقع به مكسورا ، يصيح :**

- **صوفي ... أين أنت يا صوفي ؟**

**يدرك أنّها غادرت الغرفة، فيفقد أعصابه :**

- **أين أنتِ يا ش...طة ؟ أين أنتِ يا بنت القحبة ؟**

يضع ملابسه المبعثرة في أرض الغرفة في حقيبته، ويلملم أغراضه ويخرج مسرعا إلى الاستقبال لأخذ جواز سفره، فيرى صوفي في البار، ينظر إليها وتنظر إليه، وكأنّهما غرباء، يأخذ جواز السفر ويخرج مسرعا إلى أوّل حافلة متجهة إلى بلغراد.

يزيد العُطل الذي حدث لإطار الحافلة في الطريق؛ تأخيرا إلى تأخير تحميل وتنزيل الركاب على الطريق في القرى التي أقيمت على جانب نهر الدانوب؛ لِيَنعم أهلها بخير الأمطار التي تتجمّع من كل جبل ومرتفع لِتصبّ في مجرى الحياة التي تعيش على ضفافه ثمانون مليون نسمة عبر أوروبا.

توقّفت الحافلة لمدّة ساعة بجانب جزيرة القلعة العثمانية، الواقعة في نهر الدانوب والمعروفة باسم "أضا قلعة"، ليأخذ السوّاح صورا تذكارية لواحدة من أهمّ أثار الأتراك المتروكة خلفهم في حوض الدانوب، كان بِودّ صعب لو أنّ الجزيرة غرقت ولم تكن موجودة بتاتا، فما يشغل باله ويُغرق فكره، أهمّ عنده من كل الدولة العثمانية وتاريخها.

يصل بلغراد بعد خمس عشرة ساعة، حسبها صعب لطولها الدهر كله، استعرض فيها حياته كلّها، من يوم ولادته ودراسته في المدرسة، وأيّام كان يأخذه عمر إلى الحجاز في رحلة عمرة، ليبلغ فيها هو وهمام وبشرى ما لا تبلغه التوجيهات والتربية والوعظ والتلقين، تذكّر أحلام والليالي التي كانت تبكي فيها على سجادة الصلاة وهي تدعو له بالهداية، " يا صعب إنّ حالك أصعب عليَّ من فراق همام، فاتّق الله يا بُني ولا تحرق

**قلبي بحالك الذي لا يسرّ الصديق ولا العدو، فإنّ حالك يؤجج مرضي يا حبيبي، أرجوك ... أرجوك" وتذكّر بشرى التي خدشت أفعاله براءتها، فباتت لا تُطيق النظر إليه رغم حبّها وودّها له، وتذكّر أنّه لم يبعث لها بأيِّ رسالة منذ سافر.**

**وصل به التكسي إلى باب السكن، فوقف على المدخل محتارا، وقد بقي لوصول والده ساعة أو ساعتان حسب المعلومات التي تسرّبت من أحلام إلى سعيد، أسرع بصعود الدرج لِظنّه أنَّ أرجله ستكون أسرع من المصعد**

**وعلى باب غرفته تسَمَّر ...**

**تقدّم خطوة واحدة نحوها ... فأحجم**

**وكأنّ جدران الممرّ الذي يقف به أمواج بحر متلاطم ...**

**مدَّ يده إلى الباب ... ثم أمسك**

**شعر أنّ الأرض تهتزّ به وكأنّها زلازل مدمّر**

**براكين الأرض تلتهب بجوارحه وجوانحه**

**كاد يختنق ...**

**لماذا يغلقون النوافذ ؟ ... لماذا يحجبون عنَّا الهواء ؟**

**أزرار قميصه وكأنّها حبل مشنقة يخنقه**

**حزام بنطاله وكأنذه مقصلة تقطعه**

**حذائه وكأنّه جلاميد صخر تُثْبِتهُ**

**فك أزراره وأرخى حزامه وخلع حذائه**

**صاح بأعلى صوته**

**لن أخضع لك يا عمر**

**لن أطأطئ رأسي لك يا عمر طاهر حامد بيك**

**أطلق العنان لأرجله راكضا نحو السطح**

**وقف وحيدا هناك**

**رفع رأسه ... إنّها المرة الأولى التي يرى فيها السماء مُنذ فسق**

**لم يُطأطأ رأسه خجلا منها كما الأيام الخوالي**

**سرَّح طرفه فيها ... ونظر في الأفق**

**رفع يديه يستجدي الغيوم المتلبّدة عناقا**

**أرعدت السماء وأبرقت**

**نزل الغيث غزيرا**

**أحسّ بالحر الشديد فَخلع ملابسه كلّها وعاد كيوم ولدته أمّه**

**انساب الماء على كلّه وبعضه، مطر غزير مَلَأَ السطح، لم تتسرّب منه قطرة واحدة إلى السكن وغرف الطلاب، فالقطران الأسود العازل للسطح قد سدّ كل الثغرات، وهل يمنع الغيث إلّا القطران.**

**انهمر المطر على رأسه وسال إلى أخمص قدمه، سار متدفّقا نحو مزراب الماء ليخرج من المبنى نحو الشارع العام، يكنس معه كلّ الأتربة والأوساخ، فسالت شوارع بلغراد كلٌّ بقدره، تجمّعت في جداول صغيرة، صبّت من كل اتّجاه في نهر الدانوب الآتي من منبعه في الغابة السوداء في ألمانيا، مُتدفّقة نحو سد ديرداب، تُرَسِّبَ الرمال والتراب هناك طميا، يندفع منه بطاقة جديدة وقد تخلص من بعض العوالق، يجري سريعا لمئات الأميال نحو البحر الأسود، صابغا إيّاه بأوساخ المُدن والحواضر ... مُتَبَخِّرا هناك نقيّا صافيا**

**عائدا إلى السماء**

**غيثا صَيِّبًا نَافِعًا**

# الحِمام (6)

**السابع من كانون الأوّل**

**روائح غريبة وأصوات صلصلة، تفارق نفسُه جسدهَ، تُناظر المنصة من علِ، وحبل أثيري يتدلّى إلى جسده يُبقيه في عالم الأحياء، لو بقي لأُرسِلت ولو انقطعَ لأُمسِكت.**

**الأمر مختلف عن موت النوم الأصغر، فَفي كلّ ليلة تسيح نفسه في الملكوت، يعيدها للجسد صوت أو حركة أو منّبه ساعة، أمّا اليوم فالأمر مختلف، يعلو زفير أنفاسه المتسارعة، وتقرع دقاتُ قلبه قفصه الصدري، إنّه حقيقي يشعر به ويتنفسه، إنّه الموت بما فيه إنّه النهاية.**

**يُناظر جسده من فوق، لعلّها النظرات الأخيرة، وضوء في آخر النفق يكبر ويكبر، أصوات من عالم آخر تُنادي، ظِلال معتمة وأنوار متقطّعة، برد يلفّه من كل جانب، ولا يدري أهو المعلق من فوق ؟ أم هو الواقف في التحت ؟**

**لا زال الحبل الأثيري يشدّه إلى الدنيا، والضوء الآتي من عمق النفق يختلط بالنور، أهكذا البرزخ ؟ أم أنّه خيالات الخائف المُرتاع ؟ حُسن الظن بالرحيم عظيم، لكنّ الخوف من سالف**

**العمل والغفلة مريع، تَردُّدَ بندول الساعة يَتَرَدَّدُ بين الموت والحياة وبين الفوق والتحت.**

**أحبابٌ سبقوا من قبل يُنادون وحور يُغنّين، نور يُشرق وجموع تستبشر، وصدى الأصوات يخالط تسابيح الكائنات، وآخر النفق يتراءى له جدّهُ طاهر في سجوده الأخير، التحت يشدّ والفوق يتفلّت، فيغلب عمر وتغلب أحلام وبشرى، فيرتطم الفوق بالتحت، يتلاشى النور ويُظلم النفق، تسكن الأصوات وتُصكّ الرياض، وروائح مألوفة تنبعث، دخان وبارود نيران وتفجيرات، تكبيرات تتعالى فوق منصّة الإعدام وجموع تحرّر السجناء، رصاص ينهمر بِكلّ اتّجاه وأحدهم ينادي من قريب**

**"فكّوا عنه حبل المشنقة"**

**الوقت يمرّ ..**

**وحتّى الراوي الذي بات يكتب بالوقت الضائع لم يعرف ما حدث مع همام في تلك الليلة**

**هل هو حيّ ؟؟ !! أم هو ميّت ؟؟ !!**

**هل نجا أم أنّه بات شهيدا ؟؟ !!**

**الله وحده يعلم.**

# البداية

# السنديانة (5)

تاقت نفسه إليها، توق الطيور المُهاجرة إلى أعشاشها، خيطٌ رفيع لا ينفكّ يُلازم الطيور ويُلازمهُ، يمتدّ لآلاف الأميال يشدُّها إلى مسقط رأسها، وكما سيُعيده ذاك الخيط يوما، تعود الطيور بعد أن تقضي وطرها بعيدا عن مُبتدئها ومُنتهاها، فَليست هجرتها إلّا استراحة مسافر استظل ثم مضى، وهو مُستظلٌ بعدُ، وما مضى.

كان الناس ينظرون الشروق، واعتاد هو مذ أبصر وذهبت كوابيسه، أن يُعطي الشمس ظَهره كلّ صباح، يتسلّل من بينهم تسلّل مُخفِ العبرات، أن ينتهك أحدٌ حرمتها، وما أن يفصله عن رقّ الأصدقاء بون، وعن صخب الكون شطّ، حتى يختلي بسنديانته التي كان يُظلّها صغيرا، فأمست تُظلّه كبيرا، سقاها دهرا دموع عينيه، ورعاها زمنا كدّ يديه، يُيَمِّمُ وجهه غربا، يجلس في حضن شجرته التي مهدتها السنون، ويَنعمُ بِأُنسها الذي نسجته الشُجون، يردّد حديث الأحد العتيد

"لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا"

**يُطيل النظر نحو الغرب كلّ صباح، علّها تأتيه من يومه أو غده، ورغم بعد الشقة، إلّا أنّه مدَّ أمله فسيحا في انتظارها، سَميرتهُ شجرتهُ، صَلُبَ عودهما تناغما، وأينع عطاءهما توافقا، فظلّلت أوراقها المستظلين، وروى هو بكلماته العابرين، فكانا رفيقا درب وشريكا مصير.**

**لم يلتفت لتعدّد الأراء في وصفها، وأيقن أنّها الكمال، كتمام البدر في سطوعه. هم؛ في غيّهم لا يرون فيها إلّا شِقّ قمر مظلم، ونصف كأس فارغ، فَهابوها وخافوها، وبِأقذع الأوصاف ذمّوها، عاصفة هوجاء عاتية، لا تترك شيئا إلّا جعلته كالرميم. إلّا أنّه نظر إلى نصف كأسها الممتلئ، فَرأى منها حسناً وبهاءً، تنشر البهجة والسرور في قلوب محبّيها ، فأحبّها حبَّ الصحراء للماء؛ وكرهوها. أدام ذكرها، وتناسوها. ورغم لهفة الانتظار وطول السهاد، هاب لقاءها، فكان بين كلّ انتظار صباحي وانتظار، يكدّ ويتعب في تحصيل مهرها، علَّها يوم اللقاء ترضى.**

**وفي الموعد المضروب مُنذ الأزل، صباحا تحت ظلّ شجرته، وقف مشدوه العيون شاخص البصر، لقد جاءت، آه لقد حضرت، ويلٌ للغافلين لقد أزفت، وغُلِّقَتْ الأبواب دون رضاها، جاءت كما في الكتب، وأقبلت في موكب مهيب كما الحكايات**

**أشرقت عليه الشمس من مغربها**

**سجد بين يدي خالقها وقدّم مهره :**

**خالصُ توحيد، وحُسْنُ ظَنٍّ بالله،**

**إنّه اليوم الذي لا يظلم الله فيه أحدا**

**إنّها القيامة الكبرى**

**وقد أحسن لقاءها**

# التداعي (4)

**السابع من كانون الأول**

**كانت بلده من آخر القلاع الصامدة قبل التداعي الأخير، وقد وصلتها العدوى أخيرا، ورغم وَهْن العظم فقد قرّر أن يشارك هذه المرّة، رأته أحلام يستعد :**

**- خير، إلى أين؟**

**- سأشارك في حملات الإغاثة والتبرع بالدم على الحدود اليوم.**

**- عجوز هَرِم، ما لك وللإغاثة.**

**- ليس من شأنك.**

**- بل من شأني، فأسامة سيأتي اليوم مساء للتكلّم معك بموضوع مهمّ كما أخبرني، وغدا موعد سفرك إلى بلغراد، ولم تخبرني ماذا تريد أن تأخذ معك لِأجهّز لك أغراضك، ويجب أن نشتري الهدايا لِصَعب، لا يصحّ أن تدخل عليه دون هدية.**

**- بل يصحّ، فابنك هذا لا يستحق الهدايا.**

**- بل يستحقّ .. وإن كان لا يستحقّ الهدايا فأنت يا عمر من فرطت به.**

**- بل أنتِ يا أحلام من "رطرطه ودلَّعه"، حتّى وصل إلى ما وصل إليه.**

**- إن كنتُ أنا التي فرّطتُ بصعب، فأنتَ الذي فرّط بهمام، بِسبب ما حشوت به رأسه، أَلم تسمع أنّ هناك حملة إعدامات للأسرى ؟ ألم ترسله إلى حتفه ؟**

**موجة غضب عارمة تجتاحه، فَقد مسّت الوتر الحسّاس ثانية، ودقّت طبول الحرب في صدره من جديد، يطرق باب الغرفة بعنف، تاركا إيّاها في الخارج تبكي، وهو في الداخل يزبد ويرعد .. "أنا لم أفرّط بِهمام .. لم أفرّط بِهمام"**

**هَبّت بشرى من غرفتها تستطلع الأمر :**

**- ما بكِ أمّي .. لِمَ تبكين ؟**

**- إنّه أبوك ، لم أَعُدْ أحتمل تصرّفاته، إنه يُهينني في كلّ مرّة، وحضرته يريد الذهاب إلى الحدود، ولم يعد يهتمّ بهمام ولا يسأل عنه ، ويتّهمني أنّي أنا التي فرّطت بصعب ...**

**تجهش بالبكاء.**

**- لا عليك أمّي.**

**- ادخلي كلّمي أباك، وإن ذهب فإنّي والله لن أبقى في البيت ولا يوما واحدا.**

**تطرق الباب طرقا خفيفا**

**- أبتِ إنّه أنا بشرى.**

**- تفضّلي.**

**تجلس بجانبه وتمسك بيده**

**- أبتِ ما قصّة الإغاثة هذه ؟**

**- أنا ذاهب وبدون نقاش.**

**- لكنّك لم تشارك بهكذا فعاليات منذ سنوات، بل عقود.**

**- نعم ... لكن هذه مختلفة.**

**- وكيف؟**

**- صَعُبت الظروف على الحدود بسبب قصف اليهود ونيرانهم، وهُم بحاجة إلى دماء وإغاثة، بضع ساعات وأعود قبل المغرب، وإنّي لها بارز.**

**- لكنّك كبير بالسن يا بابا.**

**- الشيب بالجسد لا بالروح، ثم لماذا تكررين كلام أمّك الخرقاء.**

**- أمّي ليست خرقاء.**

**- وتدافعين عنها أيضا، فأنتِ خرقاء بنت خرقاء مثلها.**

**يخرج من البيت .. يتردّد قليلا .. يفكّر بالعودة .. لم يسبق له أن شتم بشرى .. لكنّه لم يعتد الرجوع إلى الخلف .. يحزم أمره ثم يمضي .. لم يُسلّم على أحد، ولن يُسلّم على أحد، لم ينظر لأحد، ولن ينظر لأحد ..**

**فقد خرج من البيت غضبان أَسِفًا**

**وبرز .. إلى حيث برز**

# فأحسن لقاءها (3)

هو لم يسمع إلّا صوت الرصاص، فركض مع المتجمهرين، البعض منهم التفت ورائه صائحا : شهيد .. شهيد. التفت فرأى القتيل مضرّجا بدمائه، رجع البعض لسحب الجثة، فرجع مع الراجعين، سكون عجيب يحيط به، لا يحسّ بالأشياء، هذا الشعور كان يأتيه سابقا في نومه، هدوء وسكون، طمأنينة عجيبة تتنزّل عليه بعد قيام ليل طويل، يضع رأسه على وسادته متدثّراً، فتأخذه سنة من نوم، يرى نفسه يطير متحرّرا من جسده وقد مات الموت الأصغر، يسيح في ملكوت الله، يربطه بجسده خيط أثيريّ هو الدليل له عند عودته لجسده النائم، إنْ قرّر العودة أو أعاده منبه الساعة معلنا دخول وقت الفجر، ربّما كان في مكة أو في القدس حيث تهوى نفسه، وأحيانا يذهب إلى الصين، يطير به فضوله باحثا عن سدّ يأجوج ومأجوج، طالما طار بين النجوم أو غطس في المحيطات، يرى التسبيح، الذي نام وهو يردّده، ينقلب إلى كائنات وخلائق، بديعٌ خلقها، جميلٌ منظرها، وأمتع اللحظات عندما كان يرى النور، نور مطلق مهيب، لا يستطيع وصفه بكلمات، يُشعره بجلال الموقف ورهبته، فيخرّ ساجدا خائفا مرتاعا، ورغم المتعة كان يسرع إلى جسده النائم خشية مواجهة النور الكاشف، فَينكشف. أحيانا كان يرى نفسه من

**فوق وجسده على الفراش ويرى ذلك الرابط الأثيري العجيب، حذّره بعض العارفين أن الخيط إذا انقطع، فإن النفس قد أُمسكت، ولن تعود بعدها للجسد، وذاك هو الموت الأكبر، تنساب نفسه الخفيفة العائدة في جسده النائم، فيشعر بالثقل، ثقل الطين، يستيقظ مباشرة، وقد اطمأنّ انّه لا زال في عالم الأحياء.**

**هو رجع مع الراجعين، هو تفاجأ مع المتفاجئين !**

**إنْ كان القتيل المضرج بدمائه هو ... أنا !**

**فمن يكون الناظر إليه ...أنا !**

**وهل هذا يفسر أنّ من حوله لا يشعرون به، ولا يردّون عليه وهو يتكلم؟ تمعّن الجثة .. ثم تمعّنها**

**إنّها جثّته !!**

**لا حراك بها، بحث عن الخيط الأثيري فَلم يجده**

**هل انقطع؟**

**لقد انقطع .. يا للهول .. لقد انقطع، لا عودة للجسد، لقد انفصل، لقد أُمسكت النفس،**

**إنّه القتيل عمر؛**

**أنا هنا ..**

**بل هو الجثة الملقاة هناك ..**

**بل نحن !!**

**كيف حدث الأمر الجلل بهذه السرعة، لم يُحسِسْ بصلية الرصاص تخترق قلبه بل شعر بالسكون، ذهب بعيدا، وعاد قريبا، ارتقى وهبط، طار وغطس، ألقى بنفسه على جسده، لكنّها لم تَنْسَبْ فيه، لقد أغلق الجسد أبوابه فقد عطب، الكلّ يحوقل ويتشهّد ويترحّم، يسحبون الجثّة، يخاطبهم لا يردّون، يلمسهم لا يشعرون، يصرخ لا يلتفتون، بقي لديّ بعض الأمور المعلّقة، ساعات وأعود، ساعات يا رب .. دقائق يا رب .. ثوان يا رب، أنظر فلذة كبدي .. بشرى، أُقبّل أحلام بين عينيها .. اعتذر منها ونظرة وداع .. نظرة واحدة يا رب، أُمَهِّدُ لأحلام خبر إعدام همام، أستقبل أسامة بعد المغرب، بلغراد والسفر، صعب .. صعب .. حسرتي عليك يا صعب، إنّها نار حامية يا صعب**

**رب ارجعون .. رب ارجعون.**

**لم تأتِ الملائكة بعدُ لأخذه، لكنّه في السكون ينعم، يرافق جسده أينما ذهبوا به، يلطم، يتحسّر، يصرخ، يولول، يحوقل، يسترجع .. لا يهمّ، ففي السيّارة حملوه، ولبيته نقلوه، وقد سبقته الفاجعة إلى هناك، هناك حيث الجمع المنتظر، بعضه مرتبك مسترجع، والبعض الآخر نائح حزين، يمرّرون الخبر بينهم، منهم المتماسك وأغلبهم المنهار، أطلال البيت تتراءى،**

بشرى تّتكئ على أسامة، فالبيت لم يعد فيه رجال، وأسامة آخر مَن تبقى مِن الرجال الوافدين إلى بيت عمر بل إلى ملحمة عمر، وكأنّه خَطَبَ بشرى ليكون عُكّازها في لحظة العجز هذه، في لحظة الصدمة، بل زمن الصدمة، فَبعد الأب الحنون العمر كلّه صدمة، كيف ستتماسك ؟ كيف ستعيش ؟ كيف ستحبّ ؟ كيف ستكره ؟ الله وحده يعلم، لسانها يسترجع لكنّ قلبها ينوح، عيونها ترقب السيارة تصطف، وقد ترجّل منها والدها، بل جثّة والدها، على خشبة مرميّة في مستودع المسجد سجّوه، وإليها قدمّوه، ترفع الغطاء عنه، يبللُ ماءُ عينيها الدافئ وجهَه البارد، يهزُ صُراخُها المكبوت قلبَه المعطوب، يحوم حولها، يقترب منها، يداعب شعرها، يمسح دمعها، أنا هنا يا بشرى .. ألا تسمعيني ؟ أنا الذي بالفوق عمر روحا ونفسا .. ولست الذي بالتحت عمر جسدا وطينا .. أنا حيّ يا حبيبتي .. أنا أراك ألا تريني ؟ أنا أسمعك ألا تسمعيني ؟ حبيبتي أنا بخير أنا بخير، يصرخ بها فلا تجيبه .. يهزّها بعنف فلا تحسّ به .. لقد أُرسلت الحُجُب، وأسدلَ البرزخ أستاره.

الوحيدة التي تحسّ بوجوده أحلام، تشمّ رائحته، تشعر بطوافه، ينظر إلى عينيها، تنظر إليه وكأنّها تراه، رأت اعتذاره .. لطالما كان لهذه النظرات فعل السحر فيها وفيه، تؤنس غربته رغم الخلاف، تشدّ على يده رغم كلّ شيء، بقيت معه في زورقه رغم العواصف، يأوي إليها كلّما اغترب، يبثّ إليها همومه كلّما اغتم، بِودّه لو يحضنها، بِودّه لو يقبلها، لقد كانت مصدر إلهامه وأحلامه، وإليها أهدى كلماته، يمعن النظر،

**فالغياب سيطول هذه المرّة لا كالمرّة السابقة .. دأب الحياة الدنيا، أحبب فيها من تشاء، فإنّك مفارقه.**

**جَلَبَة مريحة، وبياض يُثير النور، ومسك يفوح، وأطياف تتراءى من بعيد، مرحبا بالشهيد، لقد آن الأوان، هذا كفنك والمسك، يتساءل إلى أين؟ فيفهم الجواب فهما لا يسمعه سماعا، فَلِلْبرزخ قوانينه ونظمه، تُخضع كلّ برّ وفاجر، يحيطون به إحاطة الأمّ الرؤوم بولدها .. حيث الكتاب المرقوم، إلى عِلّيّين .. ونحو عِلّيّين.**

# النداء (2)

ملايين الفُرش تهتزّ، قليل منها بالحلال، كثير منها بالحرام، نطف تُقذف في آخر ما قُذف من أصلاب الرجال، وحيوانات منويّة تتسابق سباقها الأخير، بويضات تُلقّحُ لقاحا لا لقاح بعده، أنوية تتكاثر تُشكل آخر ما يُشكّل، قضاء من اللوح يتنزّل، وقدر من الأرحام يُبثّ، وما بعده من والد ولا ولد، يتهارجون تهارج الحمر، لا كتاب ولا كعبة، وناجيهم لا يعرف إلّا الله .. الله.

من مغربها أشرقت، فقال علماؤهم إنّها ظاهرة كونية بسبب تغيّرات حدثت لقطبيّة الأرض، الأهوال تنتظرهم، وهم في الطرقات يتناكحون، ولدانُهم سيشيبون، ولأمثالهم هم يشتهون، لم يعد اسمهم شواذّا لوطيّين، بل أصبحوا مثليّين، لا ينكرون منكرا ولا يعرفون معروفا.

لم يعرف أحد إن كان حفيد عمر من الأنفس التي بُثّت بتلك الليلة، فهو شخص عادي لم يؤرّخ له أحد، ربّما كان أحد أحفاده منهم، ربّما حفيده الأوّل أو العاشر أو المائة، فلم يخطر ببال أحد من المؤرخين كم فَصَلَ من الوقت بين عمر وبين أيّ من أحفاده الحاليين، منهم من رأى المهديّ، وربّما صلّى

**أحدهم الفجر مع عيسى بن مريم عليه السلام عند المنارة البيضاء شرقيّ دمشق، وربّما منهم من رأى الدجال وهو يذوب كالملح، ولعل أحدهم هرب من يأجوج ومأجوج إلى الطور، وربّما وَسَمَت الدّابة أحدهم، لكنّ الأكيد أنّ آخر الأحفاد رآها وهي تُشرق من الغرب.**

**لم يكن هناك حامد بيك ولا أوراقه الصفراء، لا سليمة ولا طاهر، لا أثر لعمر، لا نفس ولا روح ولا جسد، كلّهم غير موجودين، أحلام، همام، صعب .. والأحفاد، وبشرى التي لم تعد حتّى ذكرى، لقد فنيت وفَنَوا. النداء يتردّد صداه، ولا مكان في المكان، ولا زمان في الزمان، ولا مجيب، أربعون سنة، ولم يُسمع جواب، فالعدم لا يجيب، الفناء يُخيّم على المكان وعلى الزمان، يتردّد النداء .. يملأ الأرجاء، إن كان هناك ما يسمى أرجاء ..**

**أَ إله مع الله ..**

**أَ إله مع الله ..**

**قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين.**

# لعله النسيان يرحم الله به العباد في الجنان (1)

**نسي شعور الظمأ، ولن يظمأ بعد الآن، فَماء الحوض له شأن آخر، ينساب من يدي الحبيب - عليه الصلاة والسلام - كشلّال يبحث عن واديه السحيق، الذي قضى سنوات عمره باحثا عن قاعه، إنّه عَطَشُ النفس التوّاقة، عطش المتعطّش إلى النهاية منذ البداية، منذ أشهدهم الله على أنفسهم، تنسلّ كل قطرة من يديه الشريفتين في كلّه وفي جزءه، تستقر حيث مستودعها المكتوب منذ جفّت الصحف ورفعت الأقلام، ترتوي النفس قبل أن يرتوي الجسد، فَتطمئنّ قبل أن يسكن، فلم تظمأ بعدها أبدا ولن يظمأ بعدها أبدا.**

**أحضروا له ورقة وقلم، وقالوا له اكتب :**

**- ومن أين أبدأ.**

**- كما تشاء، يمكنك البدء من الأكبر للأصغر.**

**- وكم العدد النهائي ؟**

**- سبعون.**

أمسك بالصحيفة، وكتب : صحيفة مُشَفَّعي الشهيد عمر بن سليمة، أوّلا حامد بيك، ثانيا طاهر، سليمة ... وغيرهم، عمه عزّ الدين والأخوال، تردّد في كتابة اسم عمّه يوسف، لكن غلبته الرحمة فكتبه برّا بوالده طاهر، فشُطبَ الاسم من تلقاء نفسه، أعاد كتابته، فَتلاشى من جديد، سألهم فقالوا : إنّه لم يقل يوما ربّ اغفر لي خطيئتي يوم الدين، مضى ولم يتوقف، فلان بن فلانة، وفلانة بنت فلانة، كتب أسماء إخوانه والأخوات، أحبابه والحبيبات، ثم رفيقته في الدنيا والآخرة، حلمه ويقظته أحلام، ثم الأولاد، همام بن أحلام، ارتعش وهو يكتب اسم صعب بن أحلام، انتظر لحظات كالدهر خوفا أن يُشطب ، لكنّه لم يُشطب، تابع فرحا مُستبشرا، بشرى بنت أحلام، تلاشى عقله مع تلاشي الاسم، أعاد الكرّة فشُطب، لم يصدّق فكتبه مرّات ومرّات فلم يثبت، بشرى شُطبت !! يا للهول .. بشرى شُطبت، خاف من الإجابة فلم يسأل، سلّم الصحيفة ومضى ، ولم يعلم بحاله كيف مضى ... إلّا الله.

مصيبة الناس في المشهد مصيبة، ومصيبته مصيبتان، ماذا فعلتِ بعدي يا ترى؟ لم يفارق طيفها خياله، لقد كانت بشرى يوم ولدت، وبشرى يوم عاشت، أمّا الآن فلا بشرى في بشرى، أين أنت حبيبتي؟ أين أنت فلذة كبدي؟ ما الذي حدث؟ ومتى حدث؟ حسبي الله ونعم الوكيل، كيف سيكون النعيم بدون البشرى ؟ إنّا لله وإنا إليه راجعون، لعلّه النسيان يرحم الله به العباد في الجنان .. لعلّه النسيان، وكيف يكون النسيان ؟ وبعضهم يقبل على بعض في الجنة يتساءلون، فيُقال هل أنتم

**مطّلعون؟ فيطّلعون فَيرونهم في سواء الجحيم، لم ينساها إلّا عندما عبر الصراط، فالكلّ هناك ينسى الكلّ، حتّى الأنبياء، تَرّدى هناك المرتدّون، ونفق هناك المنافقون، وكُفر هناك الكافرون، وبُدّل هناك المُبدّلون، عبر مع العابرين، الكلّ يحمد وهو يحمد ويحوقل، الكلّ يشكر وهو يشكر ويسترجع، الكلّ يفرح وهو يفرح ويحتسب، سار مع السائرين، ومضى مع الماضين نحو أبواب مُفتّحة ستُغلقُ عما قريب، تاركة وراءها ما كانت دار ابتلاء ومحن، وجحيم ونيران، خالدين فيها أبدا .. خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض.**

# بداية الخاتمة (0)

**كالأحلام .. يهبّ النسيم من تلقاء الأبواب الذهبية المزركشة، يداعب شعرها، يبثُّ المسك فيه والزعفران، فَتتلألأ الأنوار، يسمو بها بساط مُخَلَّقٌ ممّا لم يُسمع به أو يُرى له مثيل، تراقب الحامدين في زمر تَلِجُ الجنة تترا، فَتراه قادما من بعيد، فَرِحا وحزين، يردّد :**

**لعلّه النسيان .. لعلّه النسيان يرحم الله به العباد في الجنان.**

**يهبط بها البساط أمامه، فَتنقشع غمامة من نور ، فَيراها بِشحمها ولحمها :**

**- بشراي ... بشرى !! بشرى الرحمن ... بشرى الرحمن.**

**- بشرى يا أبت.**

**يتحسّسها، يضمّها، يقبّلها، يُكذّب عينيه .. بل يُصدّقها، يطير بها ويهبط ، يخرّ ساجدا ويركع، يحمد ويشكر.**

**- لما تبكي يا بابا ؟**

**- خِلْتُكِ .. في .. في الأمّ الهاوية .. في النار.**

**- وهذا ظنّك بي يا أبي !**

**- لا .. لكن اسمك شُطب من صحيفتي مع عمّي يوسف والمشطوبين.**

**- ربّما شُطبت من صحيفتك لأني على صحيفة عمر .. .**

**- أَ عمر .. غيري ؟!**

**- عمر بن أسامة ... ابني.**

**- عمر .. حفيدي ؟!**

**- نعم بابا ... عمر بن بشرى بنت عمر بن طاهر بن حامد بيك.**

**- وكيف ذاك ؟**

**- لقد كان من أُولي البأس الشديد الذين جاسوا خلال الديار وتبَّروا ما علوا تتبيرا في القدس**

**واستشهد هناك على أسوارها.**

**دمعت عينيه وهَزَّ رأسهُ ... فَأمسكت بشرى بيده ..**

**وقيل**

**(ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ)**

**مردّدا حديث الأحد العتيد :**

**(لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا)**

**ركب مع أحلام على جواده الأبيض وطار بها نحو الخلود**

**تمت**

# بِضاعتي المُزجاة

بني العظيم .. كم ظلمت نفسي

إلهي وخالقي .. ثَقُلت بِيَ الذنوب

كم دعوتني .. فَأعرضت

كم أمرتني .. فَعصيت

لا إله إلا الله محمد رسول الله

بطاقتي في الميزان ..أسطرها بِكلمات

يسيل بها قلمي .. بِآخر الرجم

أتقرب بِها .. علّك لِيَ تنظر

تصارع الدمعةُ مقلة العين، تفارقها ضعفا فتبرد، أم تلازمها تجلُّدا فتحرق، رفع وجهه المُلقى على الفراش، ونظر من النافذة إلى الظلام وقد أرخى سدوله في كلّ مكان، في ليلة ليلاء لا يكاد يغرب لها كوكب أو يأفل لها نجم، وتذكّر رجمه الأخير ونهاية وساوسه، فسكن سكونه قبل الأخير وقد قُبض بعضه، فَحا حبَّ الّله في نفسه حبَّ الولد، ارتجَّ عليه قليلا، فلم ينطق، وبصعوبة أَنَمَّ:

**قمْ يا همام فَمُت...**

دار أسامة
دار أسامة للنشر والتوزيع
الأردن ـ عمان
هاتف: 00962 6 5658253 / 00962 6 5658252
فاكس: 00962 6 5658254 ص.ب: 141781
البريد الإلكتروني: darosama@orange.jo
الموقع الإلكتروني: www.darosama.net